الدكتور بديع محمد جمعة

الشاه عباس الكبير

٩٩٦ - ١٠٣٨ هـ ١٥٨٨ - ١٦٢٩ م

Bibliotheca Alexandrina
0130641

الشاه عبّاس الكبير

الشاه عبّاس الكبير

٩٩٦ - ١٠٣٨ هـ   ١٥٨٨ - ١٦٢٩ م

الدكتور بديع محمد جمعة

١٩٨٠

دار النهضة العربية
للطباعة والنشر
بيروت ص.ب ٧٤٩

تقديـم

يتفق المؤرخون على أن قيام الدولة الصفوية (٩٠٦هـ ــ ١٥٠٠م) كان نقطة تحول كبيرة في تاريخ ايران والشرق كلـه ، فلأول مرة يعلن المذهب الشيعي الاثني عشري مذهبا رسميا لكـل ايران • حدث هذا والدولة العثمانية في عنفوان مجدها ، وقمة انتصاراتها ، ونحن نعرف أن الخلافة العثمانية كانت تعتبر نفسها حامية حمى المذهـب السني والمسئولة عن العالم الاسلامي كله ، ولهـذا لن ترضى عن خروج ايران عن التبعية للخلافة السنية واعلان المذهب الشيعي مذهبا رسميا ، فثارت الحروب بين الدولتين العثمانية والصفوية ، مما سبب ضررا كبيرا أحاق بالعالم الاسلامي ، حيث استثمر الغرب الاستعماري هذا الخلاف ، وتسلل الى الشرق الاسلامي ناهبا ثرواته ، ومستعمرا بلدانه !

واذا كانت الدولة الصفوية تمثل نقطة تحول هامة بالنسبة لتاريخ ايران والعالم الاسلامي ، فان الشاه عباس الكبير كان واسطـة العقد بالنسبة لهذه الدولة ، حيث تجسدت خلال سني حكمه (٩٩٦ــ١٠٣٨هـ ــ ١٥٨٨ ــ ١٦٢٩م) كل أهداف الدولة الصفوية • ففي عصره تم تدعيم المذهب الشيعي في ايران ، كما تمكنت الدولة الصفوية على عهـده من استعادة السيطرة على الاماكن المقدسة الشيعية في العراق العربي، مما أتاح للايرانيين الفرصة لزيارة هذه المزارات بعد ان حرموا من زيارتها طول قرن من الزمان بدأ مع بداية حكم الدولة الصفوية واستمر حتـى تمكن عباس من اخراج القوات العثمانية من النجف وكربلاء •

كما تميز عصر عباس الكبير بانفتاح ايران على الغرب، وعقد المزيد

من المعاهدات التجارية والسياسية بين ايران وسائر الـدول الاوروبية، ولقد كان المحور الاساسي الذي تقوم عليها هذه المعاهدات هو العداء المشترك للدولة العثمانية ، وكذلك ايجاد أسواق جديدة لبيع الحـرير الايراني ذي الشهرة الواسعة •

ويعتز الايرانيون بالشاه عباس الكبير كذلك بسبب حركـة العمران الكبيرة التي تميز بها عصره ، وبخاصة في مدينة اصفهان حتى راج قول مشهور : «اصفهان نيم جهان» أي : أصفهان نصف العالم!

وهكذا كان الشاه عباس نجما ساطعا اخترق ضوؤه كل الحجب والغيوم التي غطت سماء ايران قبل عصر عباس وبعده، ولـذلك حظي عباس باهتمام كل المؤرخين الايرانيين والعالميين ، فكتبت عنه العديد من المؤلفات باللغة الفارسية وباللغات الاوروبية المختلفة •

وعلى الرغم من هذا الاهتمام العالمي بالشاه عباس ، فان المكتبـة العربية تخلو تماما من أي كتاب يتعلق بفترة حكم الشاه عباس ، وهذا مادفعني لتقديم هذا الكتاب • على أمل أن يتعرف القارىء العربي على بطل قومي ايراني حمل الراية وتقدم بها حتى أصبحـت ايران محط أنظار الجميع في ذلك الوقت ، وليدرك القارىء كذلك الآثار الضارة للفرقة والانقسام في العالم الاسلامي وما ينتج عن ذلـك من اتاحة الفرصة للدول الاستعمارية كي تسيطر على مقاليد الأمور في الشـرق وتنهب ثرواته !

والله الموفق

بديع جمعة

بيروت في ١٩٨٠

تمهيد

١ ـ الصفويون :

ينتسب الصفويون الى الشيخ صفي الدين الاردبيلي ٦٥٠ـ٧٣٥هـ (١٢٥٢ـ١٣٤٣م) ، وقد ادعى البعض بأن نسب هذا الشيخ يمتد الى الحسين بن علي بن أبي طالب ، ولكن هذا النسب قد شك فيه كثير من المؤرخين ، فلم يرد في المراجع بان الشيخ صفي هـذا كان من السادة الذين ينتسبون لبيت علي بن أبي طالب كرم الله وجهه .

وهكذا ثار الجدل حول تشيع الشيخ صفي وتسننه ، وان كانت أرجح الأقوال تؤيد أنه كان سني المذهب ومن أنصار الشافعية ، فقد قال حمد الله المستوفي القزويني ، وهو يتحدث عن سكان أردبيل: «وأكثرهم على مذهب الامام الشافعي ، وهم من مريدي الشيخ صفي الدين الأردبيلي» (١) كما كتب عبيد الله خان قائد الأوزبك الى الشاه طهماسب الصفوي في عام ٩٤٦هـ (١٥٣٠م) يعاتبه ، وقد أشار في كتابه الى تسنن الشيخ صفي ، حيث قال : « ... لقد كان ـ الشيخ صفي ـ رجلا معززا مكرما ، كما كان من أهل السنة والجماعة...» (٢) . وعلى

---

١ ـ حمد الله مستوفي القزويني : نزهة القلوب ، المقالة الثالثة : في صفة البلدان والولايات والبقاع ، بسعي واهتمام جاي ليسترانج ص : ٨١ .

٢ ـ نصر الله فلسفي : زندكاني شاه عباس اول ، جلد أول ، جاب اول ١٣٣٤ ش ، ص ١٦٥ ، حاشية (٢) .

هذا فان معظم المؤرخين يرون أن اتجاه البيت الصفوي نحو المذهب الشيعي قد تم بعد وفاة الشيخ صفي الدين ، وفي عهد أبنائه وأحفاده، ولعلهم أرادوا تجميع أكبر عدد من الانصار والمريدين ، عندما روجوا بأنهم من نسل الحسين بن علي •

وقد ساعدت الظروف السياسية والاجتماعية التي كانت تمر بها ايران خلال حكم المغول والتيموريين على زيادة الاقبال على دعوات الزهد والتصوف التي راجت في كل أرجاء ايران ، ومنها دعوة الزهد التي نادى بها الشيخ صفي الدين الاردبيلي، لذا تجمع حوله مريدون عديدون ، كما كان الناس يزورونه في أردبيل للبركة والتعلم ، حتى ذكر بعض المؤرخين أن عدد الذين وفدوا على مقر الشيخ صفي الدين الاردبيلي من سكان مدينتي مراغة وتبريز خلال ثلاثة اشهر فقط، قد زاد على الثلاثة عشر ألف مريد •

وبعد وفاة الشيخ صفي الدين تبعه أبناؤه وأحفاده في تولي مشيخة الجماعة الصوفية التي أسسها صفي الدين ، ولكن نتيجة للاضطرابات السياسية والاجتماعية التي اجتاحت ايران بعد وفاة تيمورلنك عام ٨٠٧ هـ (١٤٠٤م) ، بدأ أحفاد صفي الدين يهتمون بتدريب أتباعهم عسكريا ، وتعويدهم على التضحية والفداء ، حتى يكونوا خير مدافع عن الطريقة في حالة تعرضها لأي ضغط سياسي من حكام القبائل التركمانية التي سيطرت على مقاليد الحكم في غربي ايران ــ ومن بينها منطقة أردبيل التي كانت المقر الاساسي للبيت الصفوي والتي تضم أذربايجان وشيروان والتي يتجمع فيها أكبر عدد من مريدي البيت الصفوي ــ ، وأهم هذه القبائل قبيلتان هما : قرهقوينلو ، وآق قوينلو• وقد حدثت معارك كثيرة بين أنصار البيت الصفوي ورؤساء هاتين

الطائفتين التركمانيتين انتهت بمقتل الجنيد جد الشاه اسماعيل الاول مؤسس الدولة الصفوية فيما بعد بأمر من حاكم شيروان ، وهو رئيس طائفة قره قوينلو ، كما قتل ابنه الحيدر (والد الشاه اسماعيل) على أيدي الآق قوينلو والقره قوينلو معا ، وذلك عندما اتحدا لبعض الوقت أملا في التصدي للخطر الذي بدأ أنصار البيت الصفوي يشكلونه بعد أن تزايدت أعدادهم ، وتضاعف تسليحهم وتدريبهم ٠

ونتيجة لما كابده البيت الصفوي من هاتين الطائفتين ، فقد نشأت خصومة شديدة فيما بينه وبينهما ، وأصبح الامر قضية حياة أو موت لأي طرف من هذه الاطراف ، ولهذا لجأ البيت الصفوي الى تدعيم مركزه عن طريق توطيد صلاته ببعض القبائل التركمانية المتطلعة الى القيام بدور فعال في الحياة السياسية الايرانية ، ولكن لم تواتها الفرصة لتسلط طائفتي القره قوينلو والآق قوينلو ، وقد أطلق على هذه القبائل والطوائف التركمانية التي انضمت الى البيت الصفوي اسم «قزلباش» (١) وقد بلغ عدد هذه القبائل القزلباشية تسع قبائل كان أهمها قبائل : روملو، وشاملو ، واستاجلو ، والأفشار ، والقاجارية ٠ وقد حدث هذا التلاحم بين هذه القبائل القزلباشية التركمانية وبين البيت الصفوي بدافع ـ بالاضافة الى الوحدة المذهبية ـ المصلحة المشتركة ، فالصفويون في حاجة الى مريدين وأعوان يحاربون معهم ضد أعدائهم، حتى يتحقق الأمل المنشود ويصبح البيت الصفوي هو البيت الحاكم لكل ايران ، ويكون المذهب الشيعي مذهب كل الايرانيين ، كما كانت تتطلع هذه القبائل للقيام بدور متميز في حكم ايران ، حيث سيكون لها الفضل على البيت الصفوي في حالة الوصول الى الحكم ٠

---

(١) اي اصحاب القلانس الحمراء ، حيث كانوا يغطون رءوسهم بلباس رأس أحمر ، وقد كانت هذه القلانس الحمراء رمز الطريقة الصفوية ٠

٢ ـ الدولة الصفوية قبل عباس :

سبق أن ذكرت أن الشيخ حيدر المرشــــد السادس من مرشدي البيت الصفوي ، ووالد الشاه اسماعيل الاول قد قتل نتيجــــة لتآمر طائفتي القره قوينلو ، والآق قوينلو ، ولهذا تم اسناد المشيخة لابنـــه اسماعيل الذي تجمع حوله المريدون ، وعقدوا العزم على الانتقام من هاتين الطائفتين التركمانيتين ، وقد استطاع أنصار البيت الصفوي دخول شيروان وقتل حاكمها انتقاما لمقتل حيدر والد اسماعيل ، وقد تم ذلـــك الفتح عام ٩٠٦ هـ (١٥٠٠م) ، وكان هذا الفتح بمثابة اعـــلان رسمي بقيام الدولة الصفوية ، فقد تم بعد هذا الفتح تنصيب الشاه اسماعيـــل (الأول) كأول شاه يحكم من البيت الصفوي ، ونتج عن ذلـــك زيادة الصراع بين اسماعيل ومريديه وأعوانه ، من جانب ، وبين الآق قوينلـــو الذين يحكمون تبريز حاضرة أذربايجان من جانب آخر ، فنشبت الحرب بين الطرفين ، وانتهت بانتصار اسماعيل وجنده ، وتم لهم دخول تبريز عام ٩٠٧هـ (١٥٠١م)، واتخذوها بعد ذلك عاصمة لهم ، وبعد دخوله تبريـــز أمر بأن تقرأ الخطبة باسم الأئمة الاثني عشرية ، وأن تسك على العملة عبارة :

«لا اله الا الله ، محمد رسول الله ، علي ولي الله» .

ثم يتبع ذلك ذكر اسم السلطان .

بعد ذلك اتسعت رقعة المعارك بين الصفويين وبين أعدائهـــم من التركمان ، ولكن النصر كان حليف البيت الصفوي في معظـــم المعارك، مما حقق للصفويين شهرة كبيرة ، والمزيد من البلاد التي دخلت تحـــت سيطرتهم ، فقد أخضعوا لسلطانهم كل أذربايجـــان والعراق العجمي وفارس وكرمان وخوزستان ومازندران واستراباد ولاهيجان وكل أنحاء جيلان وكذلك مدينة يزد ، وهكذا أصبحت معظم الاراضي الايرانيـــة

تحت لواء العلم الصفوي الاثني عشري ، بل ان الشاه اسماعيل استطاع بعد ذلك ان يمد سلطان دولته الفتية حتى الأماكن الشيعية المقدسة في النجف وكربلاء بالعراق العربي •

وتتيجة لهذا التوسع بدأ جيران ايران من أهل السنة يتحرشون بهم ، فثارت عدة معارك على الجبهة الشرقية بين الصفويين والأوزبك الذين كانوا يحكمون منطقة ما وراء النهر ، فقد هاجموا خرسان كي يقتطعوها من الدولة الصفوية الشيعية ، ولكن اسماعيل استطاع اخراجهم من خراسان ، ثم كلف ولي عهده ليقيم بصفة دائمة بمدينة مشهد حاضرة خراسان ، كي يتولى الدفاع عنها •

أما عن الجبهة الغربية فقد هال العثمانيون ما وصل اليه البيت الصفوي من قوة ومنعة ، كما أغضبهم دخول الصفويين النجف وكربلاء، فسارع الخليفة العثماني بارسال انذار الى الشاه اسماعيل ، يطالبه فيه بسرعة التخلي عن المناطق التي استولى عليها خارج الأراضي الايرانية ، ولم يترك له فرصة للتفكير ، حيث سارع الجيش العثماني بدخول تبريز واحتلالها مما دفع اسماعيل الى الفرار بعيدا عنها ، ولكن لم يدم بقاء العثمانيين في تبريز الا ستة أيام ، عادوا بعدها للاعداد كي يعدوا العدة لحملة جديدة على أوروبا ، مما أتاح الفرصة للشاه اسماعيل بالعودة الى حاضرة ملكه مرة اخرى •

وتتيجة لكثرة الحروب التي خاضها الشاه اسماعيل الأول في الداخل وفي الخارج ألم به المرض والوهن ، فأسلم الروح وله من العمر ثمانية وثلاثون عاما فقط ، وذلك في عام ٩٣٠ هـ• مات وقد ترك العرش لابنه طهماسب الاول ، الذي اتسم عهده بكثرة الحروب بين الصفويين وبين اعدائهم السنيين — في الشرق الأوزبك ، وفي الغرب العثمانيون — فقد هاجم العثمانيون العاصمة

تبريز واحتلوها أكثر من مرة ، مما دفع طهماسب الى نقل العاصمة الى داخل البلاد ، فاتجه جنوبا واتخذ من مدينة قزوين عاصمة جديدة للدولة الصفوية .

ولاشك أن الحروب المتعاقبة بين العثمانيين والصفويين قد أدخلت السرور على الاوروبيين ، لذا تراهم يحاولون الاتصال بالشاه طهماسب، يعرضون عليه خدماتهم ، وذلك على أمل عقد اتفاقيـــة ضد العدو المشترك ، وأعني به الدولة العثمانية ، بغية ارباك الدولة العثمانية التي كانت تهاجم اوروبا بصفة منتظمة ، فوجـــد الاوروبيون في الدولة الصفوية عونا لهم يستطيع طعن العثمانيين من الخلف كلما تقدموا صوب أوروبا ، وبالتالي يضطر العثمانيون لتفتيت قواهم ونقل أعداد كبيرة من جنودهم الى الجبهة الشرقية المتاخمة لايـران ، مما يخفف الضغط عن أوروبا . والحق يقال بان هذه المحاولات الاوروبية لم تحقـــق نجاحا يذكر في عهد طهماسب الاول ، ولكنها حققت كل ماكانت تصبو اليـه وأكثر في عهد الشاه عباس كما سنرى من خلال الفصل الخامس من هذا الكتاب ..

وبعد فترة حكم دامـــت أكثر من نصف قرن (٩٣٤ ـ ٩٨٤ هـ) ودع الشاه طهماسب الحياة تاركا الحكم لعدد من الأبناء ، فنشب بينهم صراع انتهى بتولي ابنه اسماعيل الثاني عرش الصفويين وذلـك بمساندة بعض طوائف القزلباش ، وقد كان هذا الصراع بين أبناء البيت الصفوي مؤديا الى صراع كذلك بين طوائف القزلباش مما أوجد شيعا وأحزابـا متناحرة حول السلطة والنفوذ، ونتج عن ذلك انتشار الفتك بأبناء البيت الصفوي للتخلص منهم ، فاقدم اسماعيل الثاني على الفتك بكل من نازعوه السلطة من اخوته وأبناء اخوته عدا أخاه الضرير محمد خدابنده، وهكذا

أصبحت العلاقة بين أبناء البيت الصفوي علاقة عداء وتوجس وخيفة كما أصبح الشاه لعبة في أيدي القزلباش الذين يوجهونه وفق أهوائهم، حتى أن بعض هذه الطوائف أرادت أن تمتص الخلافات الداخلية بافتعال خصومة خارجية ، حيث شجعوا اسماعيل على مهاجمة العثمانيين، ولكن العثمانيين عاجلوهم بضربة قاصمة ، مما زاد من حنق الناس والأمراء باسماعيل الثاني ، فسارعوا باغتياله ، وذلك بعد عام واحد من توليه الحكم ، أي في عام ٩٨٥هـ •

بعد اغتيال اسماعيل الثاني لم يعد من أبناء البيت المالك الصفوي على قيد الحياة الا أخوه محمد خدابنده الكفيف البصر ، والذي كان يتولى أمر فارس من قبل والده طهماسب الاول واخيه اسماعيل الثاني، وعلى هذا لم يجد المتآمرون على اسماعيل الثاني من بديل ينصبونه حاكما جديدا الا هذا الضرير ، ولعلهم نصبوه لمعرفتهم بانه ضعيف الشخصية ، وبالتالي لن يقوى على الوقوف أمام أطماعهم •

وأمام ضعف شخصية الشاه الجديد ، بدأ دور أميرات البيت الصفوي في الظهور على مسرح الاحداث ، فقد حاولت أخته بريخان خانم — والتي شاركت القزلباشية في اغتيال أخيها اسماعيل الثاني — ان تكون صاحبة الكلمة الاولى في تسيير الامور داخل البيت الصفوي، وأن يظل أخوها محمد مجرد واجهة تختفي من ورائه ، ولكن هذا أثار حفيظة مهد عليا زوجة محمد خدابنده ، حيث تطلعت الى أن تكون الكلمة لها لا لأخت زوجها ، مما أوجد نزاعا مريرا بين هذه وتلك ، لم ينته الا بمقتلهما ، حيث تآمرت مهد عليا على بريخان خانم ، وتم اغتيالها لكي يخلو المسرح السياسي للزوجة مهد عليا ، التي تجبرت وبدأت تفرض نفوذها وسيطرتها على كل رجال الدولة ، وعلى رؤساء الطوائف

القزلباشية ، مما جعل صورتها كريهة لدى الجميع ، ولذا أقدم بعض القزلباشية على سفك دمها وهي ترقد على الفراش بجوار زوجها محمد خدابنده •

وامام هذه الاضطرابات داخل البيت الحاكم الصفوي ، بدأت كل القوى المناوئة للدولة الصفوية بالتحرك ضدهم ، سواء في ذلك المعسكر الأوزبكي في منطقة ما وراء النهر ، او الدولة العثمانية التي طالما اغارت على حدود ايران الغربية ، كما اصبح كل طامع في الحكم يتخفى وراء امير من امراء البيت الحاكم ، حتى يصل به الى العرش ، فيكون صاحب الكلمة الأولى في الدولة وهذا ما حدث بالنسبة لحماة الامير عباس بن محمد خدابنده الذي سيصبح ملكا بعد ان ينتزع الحكم من ابيه ، كما سنرى اثناء دراسة الفصل الاول من هذا الكتاب •

وهكذا وصل عباس الى الحكم بعد فترة مريرة من الاضطرابات الداخلية والمنازعات بين ابناء البيت المالك ، والفتن بين الطوائف القزلباشية ، كما تولى الحكم والدولة محاطة بأعداء أشداء في الشرق وهم الأوزبك ، وفي الغرب وهم العثمانيون ، ولكن كيف عالج عباس كل هذه الفتن وتلك المنازعات ، وأصبح حاكما مطلقا مظفرا ؟ هذا ما سنعرض له بشيء من التفصيل في فصول الكتاب المختلفة •

الفصل الاول

عباس ميرزا في خراسان ثم تتويجه في قزوين

الفصل الأول

إقامة عباس ميرزا فى خراسان وتتويجه فى قزوين

— ١ —

مولده :

ولد عباس ميرزا فى ليلة السبت غرة رمضان عام ٩٧٨ هـ[١] ، الموافق السابع من يناير عام ١٥٧١ م[٢] ، وقد كانت ولادته فى مدينة هراة مركز حكومة خراسان فى ذلك الوقت[٣] ، حيث كان والده محمد خدابنده يتولى أمر خراسان من قبل والده الشاه طهماسب . وقيل بأن محمد خدابنده عندما رزقه الله بهذا المولود أرسل يبشر الشاه طهماسب بمقدمه وطلب منه اختيار اسم له ، فقام الشاه طهماسب بتسمية المولود باسم (عباس)[٤] .

أما عن نسبه فهو ابن الشاه محمد خدابنده الذي حكم خلال الفترة ما

---

(١) مجله' يادگار : سال سوم شماره' دوم مهرماه ١٢٢٥ ش مقالة بعنوان : مباحث تاريخى از ابتداى صفويه تا آخر قاجاريه : پادشاهان إيران : هريك دركجا مدفونند . ص : ١٣

(٢) نصر الله فلسفى : زندگانى شاه عباس أول ؛ جـ ١ ، تهران ١٣٣٤ ش ص : ١

(٣) دهخدا : لغت نامه ، مراجعه' دكتر محمد معين ، شماره ٧٦ ، طهران ١٣٤١ ش ، ص : ٤١

(٤) زندكانى شاه عباس أول ، جـ ١ ص : ٢

بين عامي ٩٨٥ – ٩٩٦ هـ . والذي كان كفيف البصر ، مما ساعد على اضطراب الأحوال الداخلية في عصره . وقد ساعد ذلك أيضاً في بروز دور زوجته مهدعليا ابنة الأمير عبدالله خان المرعشي والي مازندران [1] والذي يتصل نسبه بسيد قوام الدين المشهور باسم الأمير الكبير [2] . وقد لعبت هذه الزوجة دوراً بارزاً في توجيه دفة الحكم أيام محمد خدابنــــده مما أدى إلى الضجر منها والفتك بها ، كما أشرنا إلى ذلك في التمهيد .

وكان عباس الابن الثاني للشاه محمد خدابنده ، حيث رزق بأربعة أبناء هم على التوالى : حمزة ميرزا ، عباس ميررا ، أبو طالب ميرزا ، وطهماسب ميرزا . وقد اغتيل حمزة ميرزا عام ٩٩٤ هـ ، أما أبو طالب وطهماسب فقد سملت أعينهما بأمر من عباس بعد أن تولى حكم الدولة وزج بهما سجينين فى قلعة ألموت[3] .

وظل عباس ميرزا يعيش فى كنف والديه فى مدينة هراة حتى عام ٩٩٠ هـ (١٥٧٣ م) حيث صدرت الأوامر لأبيه بالتوجه صوب شيراز ، وترك إقليم خراسان ، ولـكن شاء القدر ألا يسافر الطفل عباس مع والديه ، وأن يعيش محروما من عطف الوالدين بعد عام ونصف فقط من ولادته ، ولـكن كيف تم ذلك ؟

---

(١) هدايت (رضاقليخان) ملحقات تاريخ روضة الصفا ناصرى ، ج : ٨ قم (إيران) ١٣٣٩ ش ، ص : ١٩٦

(٢) لغت نامه ؛ شماره : ٧٦ ، ص : ٤١

(٣) ادوارد براون : تاريخ ادبيات إيران از آغاز عهد صفويه تازمان حاضر ، ترجمه رشيد ياسمى ، چاب دوم ، تهران ١٣٢٩ هـ ش ، ص: ٩٧

ولاية عباس أمر خراسان .

كان من المتبع منذ عهد الشاه اسماعيل الأول أن تسند حكومة خراسان لأكبر أبناء الملك ، فأسند أمرها إلى ابنه طهماسب ووفر لهـــذه المنطقة ما يلزمها من قوات القزلباش التى تستطيع الدفاع عنها ، ورد أى هجوم أوزبكى عليها ، وبعد وفاة اسماعيل الأول ، أسند الشاه طهماسب أمر هذه الولاية إلى ابنه الأكبر محمد خدابنده . فعاش فيها فترة طويلة ، وكان يتركها أحيانا لفترات وجيزة ثم سرعان ما يعود لحكمها من جديد . ولكن حدث فى أواخر حكم الشاه طهماسب أن اختلف محمد خدابنده مع قائد الجند هناك وأخذ يشكو كل منهما الآخر للشاه طهماسب ، فحرص الشاه على أن يقضى على هذا النزاع حتى لا يكون مدعاة لاضطراب الأمور هناك ؛ ممـــا قد يعرض خراسان لهجمات من قبل الأوزبك المتربصين بالدولة الصفوية ، فأصدر الشاه أوامره التى تنص على :

١ — أن يتوجه محمد خدابنده وجميع أبنائه عدا حمزة ميرزا إلى شيراز لكى يتولى حكم ولاية فارس .

٢ — إسناد ولاية خراسان ومركزها هراة إلى حمزة ميرزا بن محمد خدابنده[1] (وكان عمر حمزة ميرزا فى ذلك الوقت ثمانى سنوات) .

ولكن الأمير محمد خدابنده وزوجته مهد عليا رجوا الشاه طهماسب بالموافقة على تعيين ابنهما الثانى عباس ميرزا مكان أخيه الأكبر حمزة ميرزا

(١) زندگانى شاه عباس أول ، جـ ١ ، ص : ٨ ، ٩

الشديد التعلق بوالديه خشية أن تعتل صحته إذا أُبعد عنهما[١] . أما عباس فما زال طفلا رضيعاً لا يستطيع أن يشعر بمرارة ما يشبه اليتم ، ولعل تربية عباس بعيداً عن كنف والديه كانت ذات آثار بعيدة على مسلك عباس مع أسرته بعد ذلك ومما سنعرض له فى حينه .

وافق الشاه طهماسب على تعيين عباس على ولاية خراسان ومقرها هراة فى عام ٩٩٠ هـ ، ولما كان له من العمر وقت صدور الأمر عام ونصف ، فقد أمر الشاه طهماسب بأن يتولى الوصاية عليه شاهقلى سلطان[٢]

وهكذا بدأ اسم عباس يتردد على الألسنة كحاكم وهو ما زال طفلا رضيعاً ، وأصبحت منطقة خراسان كلها تحت إمرته الإسمية ، ولولا حرص محمد خدابنده على اصطحاب ابنه الأكبر حمزة ميرزا معه إلى شيراز ، لما تولى عباس أمر خراسان ، ولما أتيحت الفرصة لعباس لكى يلعب ذلك الدور الخطير الذى لعبه فى تاريخ إيران وما جاورها من البلاد ، لأنه لو سافر مع والده محمد خدابنده إلى شيراز ، وبقى حمزة ميرزا ، لكان من الممكن أن يلعب حمزة ميرزا ذلك الدور الذى أداه عباس بتخطيط من أمراء خراسان أولا ، وبتفكيره ثانياً . وهكذا قدم محمد خدابنده لابنه الرضيع عباس خدمة كبرى دون أن يدرى .

— ٣ —

الأمر باغتيال عباس ميرزا :

بعد رحيل محمد خدابنده إلى شيراز ، بقى عباس ميرزا فى هراة عاصمة

---

(١) المرجع السابق ، ص : ٩

(٢) لغت نامه . شماره : ٧٦ ، ص : ٤١

خراسان لا يبرحها إلى غيرها من المدن ، ولم يرد فى الأخبار بأنه التقى بأبيه خدابنده منذ رحيله وحتى توليـــــــه عرش الدولة الصفوية عام ٩٨٥ هـ (١٥٧٨م)(١) . وسارت الأمور على هذه الحال حتى توفى الشاه طهماسب عام ٩٨٤ هـ (١٥٧٦ م)(٢) . وتولى الحكم من بعده اسماعيل الثانى ، فأبقى على عباس فى منصبه والياً على خراسان ، كما أبقى على أبيه محمد خدابنده فى مكانه بشيراز .

وفجأة حدث تغير كبير فى علاقات أفراد البيت الصفوى وبدأت الاضطرابات تجتاح الدولة ، وانتشرت الدسائس فيما بينهم ، فأقدم الشاه اسماعيل الثانى على الفتك بعدد كبير من أمراء البيت الصفوى ، ولم يعد منهم على قيد الحياة إلا محمد خدابنده وأولاده ، وأخيرا فكر الشاه اسماعيل الثانى فى اغتيالهم والتخلص منهم .

وذكر البعض أنه أقدم على هذه الخطوة الأخيرة عندما أنجب ابناً أسماه (أبا الفوارس شجاع الدين محمد)(٣) ، فأراد أن يمهد الحكم لنفسه ولابنه من بعده دون منازع ، ولما لم يبق من أبناء الأسرة من يخشى بأسه سوى أخيه محمد خدابنده وأولاده ، فقد أصدر أوامره السرية إلى بعض حكامه وقواده بالقضاء على أخيه محمد خدابنده وجميع أبنائه ، فأوكل أمر محمد خدابنده إلى (ولى سلطان ذى القدر) أحد ولاة إقليم فارس ، وأسند مهمة

---

(١) كليفورد ادموند بوسورث : سلسله هاى اسلامى ، ترجمهٔ فريدون بدره اى . تهران : ١٣٤٩ ش ، ص : ٢٥٥

(٢) تاريخ ادبيات إيران از آغاز عهد صفويه تازمان حاضر ، ص : ٩٧ .

(٣) زندگانى شاه عباس أول ، ج : ١ ، ص : ٢٤

قتل عباس فى هراة إلى عليقليخان شاملو ، على أن يتولى عليقليخان حكم هراة بعد ذلك[1] .

وتنفيذاً لأوامر الشاه اسماعيل الثانى ، توجه عليلقيخان صوب هراة ، فوصلها فى السادس والعشرين من رمضان عام ٩٨٥هـ [2] ، وكان من المفروض أن يسفك دم عباس ميرزا بمجرد وصوله ، ولكنه تباطأ بعض الوقت ، إما شفقة بهذا الطفل الذى لم يرتكب جرما يستحق معه عقوبة الإعدام ، وإما بواعز من قدسية شهر رمضان المبارك ، فآثر الانتظار حتى ينقضى هذا الشهر الحرام وتنقضى أيام عيد الفطر [3] ، وبعد ذلك ينفذ المهمة التى أسندت إليه، والتى وجد نفسه مضطرا لتنفيذها امتثالا لأوامر الشاه اسماعيل الثانى،وإشباعا لرغبته هو فى حكم مدينة هراة بعد التخلص من عباس .

ولكن شاء القدر أن ينجو عباس من القتل ، حيث وردت الأنباء إلى هراة من قزوين باغتيال الشاه اسماعيل الثانى نفسه فى الثالث عشر من شهر رمضان ٩٨٥ هـ (١٥٨٨ م) ، كما ذكرت الأنباء بأن قواد القزلباش قد اختاروا محمد خدا بنده سلطانا على إيران وهكذا لم يعد عليقليخان مجبرا على سفك دم الطفل عباس ميرزا ، بل إن الحكمة تستدعى الحفاظ عليه ، والإبقاء على حياته ، إرضاء لوالده الشاه الجديد من جهة ، واحتمال استخدامه ورقة رابحة قد تفيد فيما بعد فى تدعيم جانب من يتولى رعايته ، وتصريف أموره من جهه أخرى .

---

(١) رضا پازوكى . تاريخ إيران از مغول تاافشاريه ، چاب أول ، طهران ١٣١٨ ش ، ص : ٦ ٣

(٢) زندگانى شاه عباس أول ، ج ١ ، ص : ٤٢

(٣) تاريخ ادبيات ايران از آغاز صفويه تازمان حاضر ، ص : ٩٥

وهكذا تولى عليقليخان الوصاية على عباس ميرزا ، وحكم باسمه فى هراة ، وعامل عباس معاملة الأب لابنه ، كما أحسنت زوجته رعاية هذا الابن الجديد لهما ، لدرجة أن عباس كان يناديها (أمّى) ، وقد حفظ لهما عباس حسن رعايتهما له ، وظل وفيا لهما كما سأشير إلى ذلك عند الحديث عن مقتـــل عليقليخان على أيدى القوات الأوزبكية ، وبعد ذلك ضم إليه زوجة عليقليخان لتعيش فى بلاطه ، فظلت ملازمة له ومشرفة على خدمته إلى أن توفيت عام ١٠٣٢ هـ (١٦٢٣) فى مازندران ، وأمر بأن يدفن جسدها فى كربلاء [١] .

– ٤ –

التحفظ على عباس ميرزا فى هراة :

ما أن تولى محمد خدا بنده عرش الدولة الصفوية عام ٩٨٥هـ (١٥٧٨م)[٢] حتى حرص على استعادة ابنه عباس للعيش معه فى قزوين ، بعد أن أنجاه الله من عقوبة الإعدام امتثالا لأوامر الشاه اسماعيل الثانى ، فأرسل الأمير عبد الله خان المازندرانى خال عباس إلى هراة لاحضار عباس ميرزا [٣] ولكن ما أن وصـــل إلى هراة حتى اعترض عليقليخان على تسليمه عباس ميرزا واحتج بقوله :

« إن ملك هراة يصل إلى حدود خراسان وما وراء النهر والتركستان ، وكلما كان ولى العهد أو أحد الأمراء الكبار مقيما بهراة ؛ كلما كان ذلك مدعاة

(١) زندگانى شاه عباس أول ، جـ ١ ، ص : ٤٢

(٢) سلسله هاى اسلامى ، ص : ٢٥٥

(٣) ملحقات تاريخ روضة الصفا ناصرى ، جـ ٨ ، ص : ١٩٥

لاستقرار الأمور فى تلك المناطق ، وهذا أفضل لمصلحة الدولة كلها ..[١]

وقد أيده فى ذلك جمع أمراء خراسان ، وقالوا لرسول الشاه وزوجته : إن هراة منذ بداية الدولة الصفوية يوجد بها أحد الأمراء الكبار، وإن وجوده يوجب الاتفاق التام بين حكام مناطق خراسان المختلفة ، وبأوامره يمكن فض المنازعات والخلافات التى قد تنشأ بينهم ، فإذا رحل عباس إلى قزوين ؛ فستظهر على السطح من جديد الخلافات العديدة التى كانت قائمة قبل ذلك فى خراسان بين طوائف القزلباش ، وسيشغلون بها ، مما يجعل المسرح مهيأ لهجوم الأوزبك على مناطق خراسان ... »[٢] .

لاشك أن كلا الحجتين بعيدتان عن الصواب ، والحقيقة أن هدف عليقليخان كان يتمثل فى الاحتفاظ بعباس فى هراة كرهينة فى يده يضغط بها على الشاه محمد خدابنده ، وعلى طوائف القزلباش الموجودة فى العاصمة قزوين ولكى يصل عليقليخان إلى تحقيق هذا الهدف نجده يحاول جمع أمراء خراسان حوله ، فانضم إليه جميع أمراء وقواد طائفته شاملو ، وكذلك أمراء وقواد طائفة استاجلو برئاسة مرشد قليخان حاكم خواف وباخرز [٣] ، وعقد هؤلاء جميعا اجتماعا اتفقوا فيه على الاتحاد فيما بينهم ضد طوائف القزلباش المسيطرة على مجرى الأحداث فى العاصمة قزوين ، كما اختاروا عليقليخان زعيما لهم ، وأطلقوا عليه لقب « خانلرخانى » أى رئيس الخانات[٤] .

واعترض على هذا التجمع مرتضى قليخان حاكم مشهد ، لأنه كان على

---

(١) المرجع السابق ونفس الصفحة
(٢) زندگانى شاه عباس أول ، ج ١ ، ص : ٤٣
(٣) المرجع السابق ونفس الصفحة
(٤) المرجع السابق . ص : ٤٦

عداء سابق مع عليقليخان شاملو ، فشعر بأن بقاء عباس فى هراة تحت وصاية عليقليخان مدعاة لافتخاره ، وربما يكون نواة لاستقلال خراسان عن العاصمة قزوين متى سنحت الظروف لذلك .[1] أضف إلى ذلك أن مرتضى قليخان كان من قبائل التركمان المتمركزة فى قزوين ، ويهمه ألا يكون للقزلباش من طائفتى شاملو واستاجلو أى سيطرة ، أو أن تكون فى أيديهم ورقة رابحة يلوحان بها فى الصراع الدائر بينهم وبين طائفته فى العاصمة قزوين .

وأمام هذا التعنت من عليقليخان ومرشد قليخان زادت مخاوف محمد خدابنده وزوجته مهد عليا على مصير طفلهما عباس ميرزا ، وصمما على استرجاعه بأى طريقة ، وكلفا رسولا آخر بالتوجه فورا إلى هراة واحضار عباس ، وتهديد عليقليخان ومؤيديه ، ولكن عليقليخان ومرشد قليخان رفضا الانصياع لأوامر الشاه وزوجته ، وصمما على احتجاز عباس فى خراسان مهما كانت العواقب ، فكانت النتيجة أن أصدرت مهد عليا — صاحبة الكلمة الأولى فى الدولة ـ أمرا بعزل عليقليخان ، وإسناد هراة إلى مرتضى قليخان حاكم مشهد والمؤيد لعودة عباس إلى والديه[2]؛ ولكن هذا الأمر لم ينفذ ! .

وأخيرا استدعى الشاه محمد خدابنده وزوجته مهد عليا سلطان حسين خان والد عليقليخان وأحد كبار رجال البلاط الصفوى بقزوين ، ووبخاه على احتجاز ابنه للأمير عباس ، وطالباه بضرورة العمل على إحضاره إلى العاصمة . فطلب سلطان حسين خان مهلة ثلاثة أشهر يتوجه فيها صوب هراة ويحضر عباس ، ولكنه قال : « إذا كان جميع أمراء خراسان يجمعون على

---

(١) ملحقات تاريخ روضة الصفاناصرى ، ج ٨ ، ص : ١٩٥

(٢) زندگانى شاه عباس أول ، ، ج ١ ، ص : ٤٥

عدم الموافقة على رحيل الأمير عباس إلى قزوين ، فماذا يرجى منه ومن ابنه عليقليخان أن يفعلا ؟ » [١] .

سافر سلطـــــان حسين خان كمبعوث ثالث إلى هراة ، وطالب ابنه عليقليخان بتسليمه عباس ميرزا لكى يعود به إلى قزوين ، ولـكن عليقليخان جمع أمراء خراسان المتآمرين معه ، وعقدوا مؤتمرا ناقشوا فيه مطلب سلطان حسين خان ، واتفقوا على عدم السماح لعباس ميرزا بالتوجه صوب قزوين مهما كانت العواقب [٢]

تملكت الحيرة سلطان حسين خان بعد هذا الرفض ، إذ كيف يعود إلى العاصمة قزوين دون عباس ميرزا ؟ وبخاصة بعد أن قالت له مهد عليا قبل سفره : إن فشلت فى اقناع ابنك عليقليخان فى الإفراج عن عباس وإعادته إلى قزوين ، فلاداعى لعودتك أنت الآخر ، ولتبق فى خراسان كذلك ! [٣] وأمام هذا التحذير بقى سلطان حسين خان فى هراة فترة يحاول إقناع ابنه ، ولـكن دون جدوى ، فانتظر هناك لعل الأحداث تنفرج عن حل يخلصه من هذا المأزق ! .

لم يطل انتظاره وترقبه ، فقد جاءته الأنباء بأن أمراء القزلباش فى قزوين قد فتكوا بمهد عليا زوجة الشاه محمد خدابنده ، وقتلوا معها والدتها وجمعاً من أقاربها وأهل قبيلتها وذلك فى يوم الأحد الموافق الأول من جمادى الآخرة عام ٩٨٧ هـ (١٥٨٠ م) ، حيث أقلقهم نفوذها وتدخلها فى كل شىء ،

---

(١) ملحقات تاريخ روضه الصفاناصرى . ج ٨ ، ص : ١٩٥ .
(٢) المرجع السابق ونفس الصفحة .
(٣) زندگانى شاه عباس اول ، ج : ١ ، ص : ٤٥

وتسلطها على زوجها عـــديم الإرادة[1]

وبوصول هذه الأنباء إلى هراة ، توقف سلطان حسين خان عن مطالبة ابنه عليقليخان بتسليمه عباس ميرزا ، وعاد بمفرده إلى قزوين دون خشية من الشاه محمد خدابنده الذى كان فى درجة من الضعف لا تسمح له بمحاسبة أحـد .

ونلاحظ من سرد أحداث هذه القصة كيف كانت إيران تحـكم قبل عصر عباس : سلطان ضعيف لا يقوى على تصريف أى أمر من أمور دولته ، بل ومن أمور أسرته ، فى مقابل ذلك سطوة لا حدود لها لأمراء القزلباش ، ومحاولة كل طائفة منهم الاستقلال إن أمـكن بالإقليم الذى يتمركزون فيه ، ومن المسلم به أن هـذا الوضع سيؤدى إلى تطاحن وحروب بين طوائف القزلباش المختلفة ، سواء فى داخل الإقليم الواحد ، وسواء بين طوائف القزلباش فى الأقاليم المختلفة ، وهذا ماسنراه واضحاً خلال سرد الأحداث بعد ذلك .

— ٥ —

تنصيب عباس ملـكا فى هراة :

سبق أن ذكرنا أثنـاء سرد وقائع قصة احتجاز عباس فى هراة أن خلافا تفجر بين عليقليخان حاكم هراة ، ومرتضى قليخان حاكم مشهد ، وقد أدى هذا الخلاف إلى وجود معسكرين فى خراسان : أحدهما معسكر عليقليخان ويؤازره مرشد قليخان وجميع أمراء القزلباش من طائفتى شاملو واستاجلو ، وثانيهما معسكر مرتضى قليخان ويؤازره بعض الأمراء المحيطين بمشهد ، وقد

(١) تاريخ ادبيات إيران از آغاز عهد صفويه تازمان حاضر ، ص : ٩٨

احتدم النزاع بين المعسكرين حتى وصل إلى الحرب المسلحة ، فتقدمت جيوش عليقليخان ومرشد قليخان صوب مشهد والتقت بجيش مرتضى قليخان على مشارفها ، وكان النصر حليف الجيوش المتقدمة ، مما اضطر مرتضى قليخان إلى التراجع والاحتماء بمشهد نفسها . فتقدمت الجيوش المنتصرة وحاصرت مشهد مدة أربعة أشهر دون أن تنجح فى اقتحامها[1].

وأمام منعة مشهد اضطرت جيوش عليقليخان ومرشد قليخان إلى فك الحصار ، والتوجه صوب نيسابور المتحدة مع مشهد ، بغية الاستيلاء عليها ، ولكن حاكمها استطاع أن يحميها من هجومهم ، فارتدوا عنها دون الظفر باحتلالها .[2]

هذه الأحداث كانت ذات صدى فى العاصمة قزوين ، حيث شعر أمراء القزلباش هناك بأن عليقليخان قد تجاوز كل حـــدوده ، وأنه يهدد كل أعوانهم فى خراسان ، فصمموا على الانتقام منه فى شخص والديه ، وألقوا القبض على سلطان حسين خان وزوجته ، ونفذوا فيهما حكم الإعدام[3]، مما زاد الموقف سوءاً فى خراسان ، حيث جاهر عليقليخان بعدائه السافر للبلاط وأمراء القزلباش بالعاصمة ، وأقدم على تنفيذ خطوة جريئة وهى : إعلان تنصيب عباس ملكا على خراسان كلها ، وذلك فى عام ٩٨٩ هـ ، (١٥٨٢ م) وأطلق عليه اسم الشاه عباس ، وقرأ باسمه الخطبة[4].

لاشك أن إقدام عليقليخان على إعلان عباس ملكا فى خراسان لم يكن

---

(١) ملحقات تاريخ روضة الصفا ناصرى ج ٨ ، ص : ٢٠٢

(٢) نفس المرجع ونفس الصفحة .

(٣) زندگانى شاه عباس أول ، ج ١ ، ص : ٦٢

(٤) تاريخ ايران از مغول تاافشاريه ، ص : ٣٠٨

نتيجة لمقتل والديه فقط ، بل كانت هناك عوامل أخرى شجعت على اتخاذ هذا القرار ، وأهمها .

١ ـ ضعف الشاه محمد خدابنده ، وبخاصة بعد مقتل زوجته مهد عليا .

٢ ـ انغماس ولى العهد حمزة ميرزا فى لهوه وعبثه ، وعدم اكتراثه بأمور الدولة ، وعدم حرصه على مساعدة أبيه ضد الأخطار المحيطة به فى الداخل والخارج[1] .

٣ ـ انشغال الجيش الصفوى بصد هجوم عثمانى متقدم فى آذربايجان ، مما يجعل الفرصة سانحة لعليقليخان ليتخذ قراره دون خوف أو وجل .

٤ ـ كان هدف عليقليخان منذ وصوله إلى هراة يتمثل فى محاولة التسلط وفرض نفوذه على المنطقة كلها ، وجمع الأعوان حوله ، وقد وضح هدفه هذا من احتجازه لعباس ميرزا فى هراة ، ومن تجميعه أمراء القزلباش من طائفتى شاملو واستاجلو حوله ، وانتخابهم له ليكون رئيساً عاما لهم .

بإعلان عباس ملكا ، أصبح للدولة الصفوية ـ ولأول مرة فى تاريخها ـ ملكان ، أحدهما الشاه محمد خدابنده الحاكم الشرعى للدولة كلها ومقره قزوين ، وثانيهما ابنه عباس الذى نصبه عليقليخان مليكا على خراسان ، ومقره هراة ، والنتيجة المتوقعة أن يندلع الصراع الحربى بينهما ، ويكون الصراع فرصة لأعداء الدولة الصفوية فى الداخل والخارج للتطاول على سيادتها وأملاكها ، مما يزيد الأحوال سوءاً ، ويهدد الدولة كلها بالزوال والاندثار .

وما أن وصلت أنباء هراة إلى الشاه محمد خدابنده وهو مشغول بمحاربة

---

(١) نفس المرجع السابق ، ونفس الصفحة

العثمانيين ، حتى آثر عقد صلح مع العدو الخارجى لكى يتفرغ لهذا الخطر الداخلى ، وأعد جيشه عدته للتوجه إلى خراسان لقمع الفتنة قبل أن يستفحل خطرها، كما أخذ عليقليخان ومرشد قليخان ومؤيدوهما يستعدون للقاء جيش قزوين. وفعلا تقدمت جيوش خراسان للقاء جيش قزوين فى سبزوار،ولكن ما أن اقترب الشاه محمد خدابنده بجيشه حتى شعرت جيوش خراسان بأنه لاقبل لها بمحاربة الجيش المتقدم الذى يفوقها عدداً وعدة ، وتراجع كل جيش من جيوش خراسان إلى مقر حكمه ، فرجع مرشد قليخان وعسكر فى قلعة « تربة » ، وعاد عليقليخان أدراجه وعسكر فى قلعة هراة . فتقدم جيش الشاه محمد خدابنده أولا إلى قلعة تربة وحاصرها مدة ستة أشهر دون أن يتمكن من الإستيلاء عليها ، فتوسط بعض الأمراء بين الشاه وبين مرشد قليخان حتى تم الصلح بينهما، بشرط أن يسحب مرشد قليخان اعترافه بعباس ويعلن خضوعه للشاه محمدخدابنده ، ثم مثل أمامه ، فأمنه الشاه على نفسه وعلى مركزه وأعاده إلى حكم منطقته مرة أخرى[1].

بعد ذلك تقدم جيش قزوين صوب هراة ، فالتقى بمقدمات جيش عليقليخان وانتصر عليها فى بعض المعارك الصغرى ، ثم واصل تقدمه حتى حاصر قلعة هراة حيث يوجد عليقليخان وعباس ، واستمر الحصار مدةشهرين وقد فكر ميرزا سليمان وزير الشاه محمد خدابنده فى خطة مؤداها أن يصعد الجنود ذات ليلة السلالم، ليفاجئوا جنود عليقليخان وعباس بالداخل، ولكن أعداء هذا الوزير أبلغوا عليقليخان بالخطة عن طريق رسالة أرسلت بسهم إلى داخل القلعة ؛[2] مما أدى إلى فشل الخطة .

(١) ملحقات تاريخ روضة الصفا ناصرى ، جـ ٨ ، ص : ٢١٦

(٢) زندگانى شاه عباس أول ، حـ ١ ، ص : ٧٦

ثم حدث أثناء الحصار أن تقدمت الجيوش العثمانية صوب آذربايجان واستولت على أجزاء منها ، مما كان يتحتم معه على الشاه محمد خدابنده وجيشه العودة لصد هذا الهجوم العثمانى ، لذا بدت فى الأفق بوادر صلح بين الجانبين ، فأرسل عليقليخان ابنه إلى معسكر الشاه محمد خدابنده ليقدم فروض الطاعة والمعاذير ، ويطالبه بفك الحصار عن قلعة هراة ، فأحسن الشاه استقباله وقبل اعتذار أبيه[1] ، ثم أصدر الشـــاه أوامره بتثبيت ابنه عباس على حكم خراسان كلها من قبله ، وأن يظل عليقليخان واصيا عليه[2] ، كما أمر بعزل مرتضى قليخان عن حكم مشهد[3] حتى لا تتجدد الاضطرابات فى منطقة خراسان ، فى مقابل أن يعيد عليقليخان اسم الشاه محمد خدابنده إلى الخطبة فى خراسان ، وتسك النقود باسمه ، وأن يعترف عليقليخان وعباس ميرزا بولاية العهد لحمزة ميرزا[4] .

بعد أن اطمأن الشاه محمد خدابنده على إخماد فتنة عليقليخان ، وابنه عباس ميرزا ؛ سارع بالعودة إلى العاصمة استعدادا لصد الهجوم العثمانى على آذربايجان ، وقد وصل إلى العاصمة فى جمادى الأولى عام ٩٩١ هـ .

هدأت الاحوال فى خراسان بعض الوقت بعد عودة الشاه إلى قزوين ، وانتصاره على فتنة ابنه عباس والمتآمرين معه ، ولكن على الرغم من هذا الانتصار فإننا نلاحظ أن عباس بقى فى خراسان وباعتراف من الشاه نفسه ، بعد أن حاول فى حياة زوجته مهد عليا استعادته إلى قزوين وفشل فى ذلك ،

---

[١] ملحقات تاريخ روضة الصفا ناصرى ج ٨ ، ص : ٢٠٢

[٢] تاريخ ايران از مغول تاافشاريه . ص: ٣٠٨

[٣] زندگانى شاه عباس أول ، ج ١ ، ص : ٧٧

[٤] المرجع السابق ، ونفس الصفحة

وبقاؤه فى خراسان معناه احتمال معاودة التآمر ضد الشاه ، وهذا ماحدث وسنعرفه بعد ذلك ، كما أحرز عليقليخان بعض المكاسب ، حيث عينه الشاه بأمر شرعى منه وصيا على ابنه عباس ميرزا ، ومعنى ذلك أنه كوصى على عباس قد اكتسب شرعية فى أن يكون صاحب الكلمة الأولى فى خراسان كلها لافى هراة وحدها ، وبخاصة أنه نجح فى دفع الشاه محمد خدابنده لعزل مرتضى قليخان عن حكم مشهد ، وبذلك خلت خراسان من أى قوة مناوئة له ، ولكن على الرغم من ذلك لم يواته الحظ كما كان يأمل ، بل سار الحظ فى ركاب رفيقه مرشد قليخان ، فما أسباب هذا التحول ؟

— ٦ —

عباس ميرزا فى مشهد :

ما أن عاد الشاه محمد خدابنده إلى قزوين ، حتى عاد مرشد قليخان إلى شق عصا الطاعة ، فتقدم صوب مشهد وطرد منها (سلمانخان) حاكمها من قبل الشاه محمد خدابنده وذلك عام ٩٩٢ هـ ، كما سيطر على بعض المناطق المجاورة لمنطقة نفوذه الأصلية فى خواف وباخرز ، ووزعها على أقاربه من أمراء طائفة استاجلو[١]

وبعد أن شعر باتساع نفوذه ، بدأ يخطط لنقل عباس ميرزا من هراة إلى مشهد لتكون له الوصاية عليه ، وتكون الكلمة الأولى فى خراسان كلها له ، لذا نراه يحاول أن يدعو عباس ميرزا إلى زيارة الأعتاب المقدسة فى مشهد ، حتى يروح عن نفسه[٢] ، فبدأت الشكوك تساور عليقليخان فى

[١] زندگانى شاه عباس أول ، ص : ١١٦

[٢] تاريخ ايران از مغول تاافشاريه ، ص : ٣٠٩

نوايا مرشد قليخان ، وماذا يبغيه من وراء دعواته المتكررة لعباس ميرزاً لزيارة مشهد ، وزادت شكوكه عندما وصلته رسالة من مرشدقليخان يدعوه ومعه عباس ميرزا للحضور إلى مشهد للتشاور معاً في تسخير أجزاء خراسان الغربية حتى حدود دامغان وبسطام واسترا باد ، فتملك الضيق عليقليخان من هذه الدعوة ، إذ كيف يجرؤ مرشد قليخان على دعوته وعباس المثول لديه في مشهد ، والمفروض أنه يأتمر بأمره ، ويمثل هو في هراة ويقدم له ولعباس ميرزا فروض الطاعة ، لذا سارع عليقليخان بتوجيه رسالة إليه يدعوه فيها للحضور إلى هراة لكي يقدم فروض الطاعة .

كتم مرشدقليخان حقده ونواياه وسافر إلى هراة ، وهناك جرت محاولة لاغتياله مما جعله يطلب العودة فورا إلى مشهد على الرغم من اعتذار عليقليخان بأن ماحدث لم يكن على علم به [1]، وأخيراً عاد إلى مشهد واحتدم الصراع بين الطرفين ، ثم تطور النزاع إلى حد الاستعداد للحرب ، وأخيراً التقى جيش هراة وجيش مشهد في معركة وقعت على الطريق بين المدينتين عند بلدة تسمى (سوسفيد) .

وأثناء احتدام القتال بينهما ، حدث حادث مفاجيء غير سير الأحداث في خراسان وإيران كلها بعد ذلك . فقد ذكر البعض بأن عباس ميرزا كان موجودا مع عليقليخان في هذه الحرب ، فأوصى مرشد قليخان بعض جنوده بمحاولة اختطاف عباس ميرزا ، وقد واتتهم الفرصة عندما طعن فرس عباس في المعركة ، وترجل عنه وضل طريق عودته صوب عليقليخان ، فألقى جنود مرشد قليخان القبض عليه وأسروه ، وأخذوه صوب مرشد قليخان الذى

---

[١] زندگانى شاه عباس أول ، ص : ١١٧

سارع بإرساله إلى مشهد ليكون تحت وصايته بعد ذلك.[1] وقد حاول عليقليخان استمادته أو قتله ولكن دون جدوى .

وبعد أن ظفر مرشد قليخان بوجود عباس ميرزا فى مشهد حاول أن يعيد الوئام بينه وبين عليقليخان ، فراسله يدعوه للحضور إلى مشهد للتصالح والتعاهد على الود مرة أخرى ، كما أفرج عن الأسرى من طائفة شاملو ؛ وقلد من رغب منهم البقاء فى مشهد مناصب هامة فى بلاط خراسان بمشهد، ونصب بعضهم مناصب قيادية فى جيش عباس ، وعلى الرغم من كل ذلك رفض عليقليخان دعوته ، فأقدم مرشد قليخان على عقـــد مؤتمر كبير فى « كوه سنكين » أحد متنزهات مشهد وذلك فى بداية عام ٩٤٤ هـ ، حيث أعاد فيه تنصيب عباس ملكا على خراسان وخطب له وسك النقود باسمه ، وأطلق على نفسه نائب السلطنة، وقد ساعده فى ذلك انشغال محمد خدابنده وحمزة ميرزا فى محاربة العثمانيين بآذربايجان.[2]

وهكذا انتقل عباس ميرزا للعيش فى مشهد بعد أن قضى فى هراة مده أربعة عشر عاما ، إذ ولد بها عام ٩٧٨ هـ ولم يغادرها إلا بعد أسره فى معركة سوسفيد عام ٩٩٢ هـ ، وبانتقاله إلى مشهد يكون قد انتقل إلى وصاية مرشد قليخان ، الذى أصبح بوصايته على عباس ميرزا أكبر أمراء خراسان نفوذا وقوة ، مما أوجد سوء تفاهم دائم بينه وبين عليقليخان ، ولم ينقض سوء التفاهم هذا إلا بمقتلهما بعد ذلك ، كما أن انتقال عباس إلى مشهد ، نقل مركز الأحداث فى خراسان من هراة إلى مشهد، وضاعت معه آمال عليقليخان فى استخدام عباس كورقة رابحة قد تصل بينه وبين الحكومة المركزية

(1) Sir Percy Syikes: A History of Persia, Vol II, London 1951, p. 173.

[٢] زندگانى شاه عباس أول ج ١ ، ص ١٢٠

إذا نجح فى فرض عباس ملكا على الدولة الصفوية كلها ، وانتقلت تلك الآمال إلى الوصى الجديد مرشد قليخان الذى نجح فيما لم ينجح فيه عليقليخان ، كما سنعرف من تطور الأحداث بعد ذلك .

— ٧ —

النزاع حول ولاية العهد .

كانت الأحوال فى العاصمة قزوين إبان حكم الشاه محمد خدابنده تقسم بعدم الاستقرار والاضطراب ، مما أدى إلى وجود مزيد من الاغتيالات فكلما شعر قواد القزلباش بوجود شخصية قوية من بين أفراد أسرة الشاة ، يمكن أن تقف فى طريقهم وتحد من تسلطهم ،سارعوا باغتيالها، وهذا ماحدث لكل من پريخان خانم أخت الشاه ، ثم زوجته مهد عليا ، وأخيرا تم اغتيال ولى العهد حمزة ميرزا فى ٢٢ من ذى الحجة عام ٩٩٤ هـ[١] .

وما أن اغتيل ولى العهد حتى عمت الاضطرابات جميع مدن إيران ، وزاد الجدل حول من سيكون ولى العهد الجديد من بين أبناء محمد خدابنده الباقين على قيد الحياة ، وهم حسب ترتيب أعمارهم عباس ميرزا ، وأبوطالب ميرزا ، وطهماسب ميرزا ، وكان الشاه يتطلع إلى أن يباشر الحكم بنفسه ، وألا يولى أحد أولاده ولاية العهد ، لأنه لو أسند ولاية العهد إلى ابنه عباس فسيجعل الكلمة بعد ذلك لقواد طائفتى استاجلو وشاملو ، وسيغضب الطوائف المتمركزة فى العاصمة قزوين ، وإذا أسند ولاية العهد إلى أبى طالب أو إلى طهماسب ،فإنه سيغضب ابنه عباس والطوائف المؤيدة له ، وبالتالى فإن إقدامه على تعيين أى ولى للعهد سيثير الفتن والاضطرابات من جديد ، وقد خاطب

[١] تاريخ أدبيات إيران أز آغاز عهد صفوية تازمان حاضر ، ص ٩٧

قواده فى ذلك ، فلم يوافقوه رأيه ، وقالوا له ، لا بد من تعيين ولى للعهد لأنه ضرير لا يستطيع سياسة أمور الدولة .[1]

وقد انقسم الأمراء والقواد إلى مجموعتين ، مجموعة ترى أن تسند ولاية العهد إلى الابن الأكبر عباس ميرزا الموجود فى خراسان ، ومجموعة أخرى ترى أن يسند المنصب إلى أبى طالب المقيم فى قزوين ، ثم برزت جماعة ثالثة رأت عدم الإضرار بأيهما ، على أن تقسم ولاية العهد بينهما ، فتقسم أراضى الدولة الصفوية إلى قسمين ، وتعهد ولاية عهد كل قسم منهما إلى أمير من هذين الأميرين[2] . ولكن الرأى الأخير كان خافتاً ولم يتردد كثيرا .

أما عن الجماعة التى رأت أن تسند ولاية العهد إلى أبى طالب فتتمثل فى بعض طوائف القزلباش المتمركزة فى قزوين ، وكان هدفها من ذلك فرض نفوذها على مجرى الأحداث فى الدولة كلها ، وذلك لضعف الشاه محمـــد خدابنده ، ولحداثة سن أبى طالب المرشح لولاية العهد ، كما أنها رأت أن تبعد عباس عن ولاية العهد حتى لا تعطى الفرصة لأمراء القزلباش من طائفتى استاجلو وشاملو للوصول إلى العاصمة فى حالة تولى عباس العرش ، مما يقضى على مكاسبها وسطوتها ، وقد تزعم هذا الاتجاه إمامقليخان فى قزوين[3] .

واحتج أصحاب هذا الرأى ببعض الحجج الواهية ، ومنها أن حمزة ميرزا كان قد أوصى قبل وفاته ، بأن تعهد ولاية العهد من بعده لأخيه أبى طالب ، وعلى هذا يجب أن تنفذ وصيته ، ويستبعد عباس من ولاية

---

[١] زندگانى شاه عباس أول ج ١ ، ص : ١١٤

[٢] تاريخ ايران ازمغول تاافشاريه ، ص : ٣٠٩

[٣] أحمد تاج بخش [دكتور] : ايران در زمان صفويه ، تبريز ١٣٤٠ ش ، ص : ٥١ .

العهد[1] . كما احتجوا أيضاً بأن عباس قد عاش طيلة حياته فى خراسان ، ومن الأفضل له وللدولة أن يظل هناك ، ولا داعى لمزيد من المشاكل وإسناد ولاية العهد له ، وإنما الأجـــدر بها من عاش بقزوين طيلة حياته وهو أبو طالب[2] .

أما الجناح المضاد الذى رأى ضرورة إسناد هذا المنصب للابن الأكبر عباس ميرزا ، فقد كان يتمثل أولا فى أمراء القزلباش من طائفتى استاجلو وشاملو المتواجدين فى خراسان ، وانضم إليهم بعض أمراء طائفتى التركمان وتكلو فى قزوين وما جاورها ، وكذلك مرتضى قليخان وأبناؤه فى دامغان ، على الرغم من عدائهم السابق لكل من مرشد قليخان استاجلو ، وعليقليخان شاملو[3] ، وانضم إلى مؤيدى عباس حكام كاشان وكرمان ويزد وأصفهان[4] .

ولكن على الرغم من كثرة المؤيدين لعباس ميرزا ، فقد استطاع الجناح الآخر إجبار الشاه محمد خدابنده ، على إصدار أوامره بأن يتولى ولاية العهد ابنه أبو طالب ، متخطيا بذلك حق الابن الأكبر عباس ميرزا ، وكان لهذا القرار أثره الكبير فى زيادة الاضطراب فى الدولة ، بل إنه أدى إلى عزل الشاه محمد خدابنده نفسه بعد ذلك .

---

[١] زندگانى شاه عباس أول ، جـ ١ ، ص ١١٤٠

[٢] ايران در زمان صفويه ؛ ص ٥١

[٣] نفس المرجع ونفس الصفحة

[٤] زندگانى شاه عباس اول ، جـ ١ ، ص : ١٢١

تحرك عباس صوب قزوين :

سبق أن ذكرت أنه بعد موت حمزة ميرزا ، اضطربت الأحوال في إيران ، واختلف أمراء القزلباش حول شخصية ولى العهد ، ففكر مرشد قليخان في استطلاع أحوال قزوين ، لذا أرسل رسولا من قبل عباس ميرزا إلى العاصمة ليقدم مراسم العزاء إلى أبيه الشاه محمد خدا بنده في وفاة حمزة ميرزا ، وقد حمّل مرشد قليخان هذا الرسول عدة رسائل موجهة إلى رؤساء طوائف القزلباش في قزوين يدعوهم إلى الألفة والمحبة ، ونبذ الخلافات وضرورة الاتفاق على المناداة بعباس وليا للعهد . (١)

ومن المؤكد أن الغرض الرئيسى الذى كان يهدف إليه مرشد قليخان من سفر هذا المبعوث إلى قزوين ، يتلخص في استطلاع أحوال العاصمة ، وكيف تساس الأمور هناك ، حتى يستطيع أن يتصرف على بينة ، ويرسم خططه على أساس الإفادة من مواطن الضعف في العاصمة .

وأخيرا عاد رسول عباس ، ومرشد قليخان من العاصمة يحمل نبأ رفض أمراء القزلباش اختيار عباس وليا للعهد ، وإعطائهم المنصب لأبى طالب ميرزا ، ولكن أهم ماعاد به هو اطلاعه على أحوال قزوين وما يكتنفها من اضطرابات وضعف . وأمام هذه الأنباء أدرك مرشد قليخان أن الفرصة سانحة للتقدم صوب قزوين والإطاحة بالشاه محمد خدا بنده ، وتنصيب عباس مكانه. وقد شجع مرشد قليخان على التوجه صوب العاصمة ـ إلى جانب سوء الاضطراب هناك ـ عدة عوامل منها انشغال محمد خدا بنده خارج العاصمة ،

---

[١] ايران در زمان صفويه ، ٥١

حيث كان موجودا باصفهان [1]، وكذلك الهجوم المفاجىء الذى يشنه الأوزبك على المناطق الشرقية من خراسان، وتقدمهم صوب هراة، فكان مرشدقليخان يخشى تقدمهم صوب مشهد، لذا آثر سرعة الحركة للابتعاد عن خراسان، ومع ذلك فقد أفاد من هجومهم هذا عند بداية تحركه حيث أعلن أنه خارج ومعه عباس ميرزا وجيشهما لصد الهجوم الأوزبكى ودفعه خارج خراسان [2]، ولكنه بعد ذلك توجه صوب قزوين لا صوب هراة، كما سبق أن أعلن.

بدأت رحلة عباس ومرشد قليخان فى بداية عام ٩٩٦ هـ [3] (١٥٨٧م) وقد بلغ عدد الجيش المرافق لهما خمسمائة وستين جندى [4] وسلكت الرحلة طريق دامغان وسمنان، وعند وصولهم إلى دامغان انضم إليهم أبناء مرتضى قليخان، كما أحسن حاكم سمنان استقبالهم، وفى كل مدينة كانوا يمرون بها كان عدد من الجنود ينضمون إلى جند عباس، مما كان يزيدهم قوة وتفاؤلا بتحقيق النصر والاستيلاء على قزوين، وقد ذكر البعض أن عدد جيش عباس وصل وهو على مشارف قزوين إلى ألفى فارس وجندى [5]، أى مايعادل أربعة أضعاف من خرجوا معه من مشهد.

وبعد استقبالهم الحافل فى سمنان، واصلوا السير حتى بسطام، وهناك كتب مرشد قليخان وعباس رسالة إلى حاكم قزوين يطالبانه فيها بالاستعداد لاستقبال عباس وتسليمه المدينة، فإذا بحاكم قزوين يلجأ إلى ممالأة كل من الابن والأب معا، إذ أرسل رسالة إلى الشاه محمد خدابنده

---

[١] إيران در زمان صفوية، ص: ٥٢

[٢] تاريخ إيران از مغول تا افشاريه، ص: ٣٠٩

[٣] زندگانى شاه عباس أول ج ١، ص. ١٢٨

[٤] ملحقات تاريخ روضه الصفا، ج ٨، ص: ٢٣٢

[٥] زندگانى شاه عباس أول، ج ١، ص: ١٢٩

فى أصفهان يدعوه إلى العودة بسرعة إلى قزوين قبل أن يصلها عباس ، كما أرسل ـ فى نفس الوقت ـ رسالة إلى عباس ومرشد قليخان يرحب فيها بمقدمهما ، واستعداده لتقديم فروض الطاعة والولاء لعباس [1] وقد اتخذ حاكم قزوين هذا الإجراء لكى يضمن بقاءه فى منصبه إذا نجح الوالد أو الابن فى الوصول أولا إلى قزوين ، والتغلب على الجناح المضاد له .

وما أن وصلت رسالة حاكم قزوين إلى عباس حتى سارع بالتوجه صوب العاصمة ودخلها قبل أبيه فى عشرة من ذى القعدة عام ٩٩٦ هـ (١٥٨٨ م) دون مشقة أو قتال [2] وبمجرد دخولهم المدينة أعلن مرشد قليخان تنصيب عباس كشاه جديد للدولة الصفوية ، كما أعلن تعيين نفسه نائبا للسلطنة وو كيلا للشاه عباس [3] .

وهكذا كللت رحلة عباس ومرشد قليخان بالنجاح ، فظفر عباس بالسلطنة وظفر مرشد قليخان بمنصب نائب السلطنة ، مما جعل موقف الشاه محمد خدابنده صعبا ؛ فإما أن يحاول اقتحام العاصمة والدخول فى حرب مع ابنه ومؤيديه ، وإما أن يسلم بالأمر الواقع ، ويتنازل عن العرش للشاه عباس ، ويتوارى هو عن الظهور على مسرح الأحداث ، فإلام انتهى الموقف بينهما ؟ .

— ٩ —

تتويج الشاه عباس الأول :

بعد أن نجح مرشد قليخان فى تنصيب الشاه عباس ، كان لزاما عليه أن

---

[١] المرجع السابق ونفس الصفحة

[٢] إيران در زمان صفويه ، ص : ٥٢

[٣] ملحقات تاريخ روضة الصفا ، ج ٨ ، ص : ٢٣٢

يستعد للقاء قواد القزلباش المناصرين للشاه محمد خدابنده ، إذا فكروا فى مهاجمة قزوين والإطاحة بالشاه عباس ومؤيديه ، ولذا نجده يكلف أحد قواده ويدعى « پيرغيب استاجلو » بالتوجه على رأس قوة كبيرة من الجند صوب الطريق الموصل بين قزوين وأصفهان - حيث كان يوجد الشاه محمد خدا بنده - لكى يتصدى لأى هجوم محتمل من جيش العراق [1] المناصر للشاه المخلوع [2].

أما عن الشاه محمد خدا بنده ، فبمجرد أن وصلته — وهو فى اصفهان — أنباء تقدم عباس ومرشد قليخان صوب العاصمة قزوين ، وذلك من خلال الرسالة التى بعث بها حاكم قزوين إليه ، يدعوه فيها إلى العودة إلى العاصمة قبل وصول عباس إليها ، فإنه سارع بالعودة ومعه ولى عهده أبو طالب ميرزا [3] وعندما اقترب من مدينة قم أرسل يستدعى حاكمها ليقدم فروض الطاعة والولاء ، ولكن هذا الحاكم المؤيد لمعسكر الشاه عباس ومرشد قليخان ، رد على استدعاء محمد خدا بنده بإغلاق أبواب المدينة فى وجهه، ورفض السماح لجيش العراق دخول مدينته [4] .

وعندما أدرك الشاه محمد خدا بنده وقواده أن عودتهم إلى قزوين لن تكون بالأمر الهين ، وأن الشاه عباس قد سبقهم إليها وتم تنصيبه ، أخذوا يتشاورون فى الأمر، وانقسمت الآراء حول الخطوة التالية بعد منعهم من

---

[1] يقصد بجيش العراق ، الجيش المكون من طوائف القزلباش المتركزة فى مناطق قزوين وأصفها ن وهمدان وأجزاء إيران الغربية ، وذلك تمييزا له عن جيش خراسان المكون من طوائف القزلباش المتمركزة فى هراة ومشهد وغيرهما من مدن خراسان المختلفة

[2] زندگانى شاه عباس أول ، ج ١ ، صـ: ١٢٩

[3] تاريخ إيران از مغول تا افشارية ، ص : ٣١٠

[4] ملحقات تاريخ روضة الصفا ، ج ٨ ، ص : ٢٣٢

دخول قم ، فرأى بعض قواده العدول عن التوجه صوب قزوين ، وتغيير مسارهم نحو همدان ، واتخاذها عاصمة جديدة للدولة الصفوية تحت حكم الشاه محمد خدا بنده ، وحجتهم فى ذلك أن خزانة الدولة معهم ، وبدون الأموال لن يستطيع مرشد قليخان وعباس تصريف الأمور فى قزوين ، وسيضطرهم ماهم فيه من فقر إلى الرضوخ والإذعان ، مما سيقضى على فتنتهم دون حرب أوعراك [1] .

أما الرأى الآخر ، فقد صمم أصحابه على ضرورة التوجه صوب قزوين والتصدى لمرشد قليخان وعباس والقضاء عليهما وعلى أعوانهما ، لأن ترك العاصمة لسيطرة مرشد قليخان قد يقضى على نفوذهم وسيطرتهم نهائيا .

وأخيراً تغلب أصحاب الرأى الثانى ، وأخذ جيش الشاه محمد خدابنده يستعد للهجوم على قزوين ، ولكن حدث أثناء استعدادهم ما أدى إلى فشل كل خططهم ، حيث وصل إلى مسامع جنده تحذير مرشدقليخان الذى قال فيه : من لم يعد من هؤلاء الجنود بسرعة إلى العاصمة قزوين وقد تخلى عن سلاحه ، وأعلن موافقته على اعتلاء عباس عرش الصفويين ، فإن جند الشاه سيستولون على ممتلكاته وأمتعته ودياره وزوجته [2] .

وأمام هذا التحذير بدأ جنود الشاه محمد خدابنده يتخلون عن مناصرته ، ويحاولون الإسراع الى قزوين ليطمئنوا على ذويهم وديارهم ، وبخاصة أنهم تركوهم منذ فترة ليست بالقصيرة ، ولم تمض فترة وجيزة حتى انخفض عدد جنود الشاه المعزول من ثلاثين ألف جندى إلى عشرة آلاف جندى فقط. [3]

---

[۱] زندگانى شاه عباس، جـ ۱ ص ۱۳۰ .

(۲) A History of Persia Vol II, p.173.

[۳] زندگانى شاه عباس أول ، جـ۱ ، ص ۱۳۱ .

وبعد أن أدرك أمراء القزلباش المحيطون بالشاه محمد خدابنده صعوبة الموقف بالنسبة لهم، وللشاه، وبعد انسحاب معظم جنودهم، بدأوا يبحثون عن حيلة يمكن أن تحفظ لهم بعض نفوذهم وسيطرتهم فى قزوين، فاقترحوا على الشاه محمد خدا بنده التوجه صوب العاصمة وإعلان تنازله عن الحكم لابنه الشاه عباس الأول، عملا بالمبدأ القائل «من الأفضل للشيخ أن يسلم النوبة إلى الشاب» (١)، كما أن أعداء إيران من الأوزبك والعثمانيين قد استباحوا أرضها واحتلوا أجزاء كثيرة منها، فإذا استمر النزاع بين الابن والأب حول العرش فإن الفرصة مواتية لهؤلاء الأعداء لزيادة المساحات التى يسيطرون عليها، وعلى هذا فصوت العقل يدعو إلى أن يتولى زمام الأمور الأقوى وهو الشاه عباس حتى تستطيع إيران أن تقف أمام هؤلاء الغزاة فى الشرق والغرب (٢).

ولعل صوت العقل هذا لم يكن إلا محاولة من أمراء القزلباش المحيطين بالسلطان محمد خدا بنده للتظاهر بتأييدهم للشاه الجديد عباس الأول، حتى يضمنوا الانضمام إلى كفته الراجحة، انتظارا لما تسفر عنه الأحداث، لعلهم يجدون الفرصة للإطاحة بمرشد قليخان، وبعدها يحيطون بالشاه عباس، ويسيطرون على مجرى الأمور كما كان الحال مع الشاه المعزول محمد خدابنده.

وهكذا وجد السلطان محمد خدا بنده نفسه مضطرا لقبول الأمر الواقع والتقدم صوب قزوين لا لكى يسترد عرشا ضاع، ولكن ليعلن تنازله الرسمى عن الحكم لابنه الشاه عباس الأول، وعندما وصل إلى مشارف العاصمة ومعه ابنه أبو طالب ميرزا، كان الشاه عباس فى استقبالهما، فرحب بمقدمهما،

---

(١) تاريخ إيران از مغول تاافشاريه، ص: ٣١٠

(٢) إيران در زمان صفويه، ص ٥٢، زندگانى شاه عباس أول ج ١ ص ١٣١٠

وأقبل على والده مقبلا يده ، وربت على كتف أخيه أبى طالب (1) .

وفى هذه الأثناء كان مرشد قليخان قد جمع رؤساء القزلباش والأمراء فى عمارة « چهل ستون » مقر الحكم فى قزوين ، وأعد العدة لتتويج الشاه عباس رسميا ، بعد أن تم تنصيبه فعليا منذ فترة ، فتقدم الشاه عباس وهو يمسك بيد والده السلطان محمد خدا بنده . وعندما وصلا إلى كرسى العرش جلس الشاه عباس وخلع السلطان محمد خدا بنده التاج عن رأسه ووضعه على رأس ابنه (2) كما قام بتسليمه ودائع الأسرة الصفوية ونفائسها كما تنص على ذلك قوانين الوراثة ونظام انتقال السلطة في الدولة الصفوية من حاكم إلى من يليه . (3)

وهكذا أصبح الشاه عباس ملكا متوجا بطريقة شرعية منذ ذلك اليوم ، بعد أن كان يعرف قبل ذلك بشاه خراسان ، عندما نصبه مرشد قليخان فى عام ٩٩٤ هـ فى مدينة مشهد . ولكن متى تم هذا التتويج الشرعى ؟

اختلف المؤرخون حول تحديد التاريخ الحقيقى لتتويج الشاه عباس الأول إذ ذكر البعض بأنه توج فى أوائل شهر ذى القعدة من عام ٩٩٥هـ (١٥٨٧م)(4) وقال آخرون إنه توج فى شهر ذى الحجة من عام ٩٩٦ هـ (١٥٨٨ م) (5) إلى غير ذلك من التواريخ المتأرجحة بين شهور هذين العامين ، وقد أشار الأستاذ نصر الله فلسفى إلى هذا التضارب فى قوله :

---

(١) ملحقات تاريخ روضة الصفا ناصرى ، حـ ٨ ، ص : ٢٣٤

(٢) إيران در زمان صفويه ، ٥٢

(٣) ملحقات تاريخ روضة الصفا جـ ٨ ص : ٢٣٤

(٤) انظر تاريخ إيران از مغول تا افشاريه ، ص : ٣١١ ، دائرة معارف البستان حـ ١١ ، ص ٤٨٥

History of Persia Vol II, p. 174

(٥) تاريخ ادبيات از آغاز ايام عهد صفويه تا زمان حاضر ، ص: ٩٧ ، مجله يادگار ، سال سوم ، شمارهٔ درم مهرماه : ١٣٢٥ ، ص ١٣

«إن التاريخ الصحيح لتتويج الشاه عباس فى قزوين لم يحدد فى أى مرجع تناول الدولة الصفوية حتى الآن ، فقد ذكر المؤرخ الألمانى « زامبور » أن ذلك كان فى أول المحرم عام ٩٩٦ هـ وذلك بأصفهان ، ومن المسلم به خطأ التاريخ والمكان ، وكتب المؤرخ الفرنسى لوسى بن لوى بلان فى كتابه (الشاه عباس الأول ، حياته وتاريخه) أن تاريخ جلوس الشاه عباس كان فى آخر شهر مايو عام ١٨٥٧ م المطابق للثالث والعشرين من شهر جمادى الآخرة عام ٩٩٥ هـ ، وهذا التاريخ بالقطع غير صحيح لأن الشاه عباس حتى ذلك الوقت كان فى خراسان ، وأنه ورد إلى قزوين فى العاشر من ذى القعدة عام ٩٩٦ هـ . ولكن لما كان معظم المؤرخين قد ذكروا أن تاريخ جلوس عباس كان وله من العمر ثمانية عشر عاما وشهران ونصف ، فإن تاريخ جلوسه يكون فى منتصف شهر ذى القعدة من عام ٩٩٦ هـ . حيث أن ولادته كانت فى أول رمضان ٩٧٨ هـ [١] .

وفى رأيى أن التاريخ المقبول لتتويج الشاه عباس الأول يقع فى أواخر عام ٩٩٦ هـ (١٥٨٨ م) وسواء أكان ذلك فى شهر ذى القعدة أو فى شهر ذى الحجة من ذلك العام فهو لا يمثل أى مشكلة فى تحديد التاريخ القريب إلى الصحة لأن الشهرين متعاقبان وليس الفرق بينهما كبيرا .

---

(١) زندگانى شاه عباس أول جـ ١ ، ص : ١٣٣ (حاشية)

الفصل الثاني

سياسة الشاه عباس الداخلية

الفصل الثاني

سياسة الشاه عباس الداخلية

— ١ —

الانفراد بالحكم :

منذ مقدم الشاه عباس إلى الوجود وأحوال الدولة الصفوية تسير من سيء إلى أسوأ ، فالاضطرابات مستمرة ، والتطاحن بين أبناء البيت الصفوى على أشده ، والاغتيالات السياسية قد أودت بحياة عدد من أفراد البيت الحاكم ، ومنهم على سبيل المثال لا الحصر ، الشاه اسماعيل الثانى وأخته پريخان خانم ، ومهد عليا زوجة السلطان محمد خدابنده وحمزة ميرزا الأخ الأكبر للشاه عباس . وقد أدى هذا الوضع المضطرب إلى تسلط أمراء وقواد القزلباش على كل شيء فى الدولة ، وأخذوا يصرفون الأمور وفق مصالحهم الشخصية بل ويتحكمون فى الشاه نفسه . وقد عانى الشاه عبـــاس شخصيا من نفوذهم وتسلطهم ، حيث احتجزوه قهراً فى خراسان ، حينما رفض عليقليخان السماح له بالسفر من هراة إلى قزوين ليعيش مع والديه ، كما احتجزه مرشد قليخان فى مشهد بعد أن نقله إليها قهرا بعد انتصاره على عليقليخان فى عام ٩٩٢ هـ .

لذا ما أن تولى الشاه عباس حكم الدولة الصفوية بصفة شرعية ، حتى وضع نصب عينيه ضرورة العودة بالبلاد إلى سابق مجدها واستقرارها إبان حكم الشاه اسماعيل الأول والشاه طهماسب ، ولكنه أدرك أنه لن يستطيع

تحقيق ذلك إلا إذا أصبح مرهوب الجانب من الجميع ، وأن تكون الكلمة في الدولة في يده ، وأن يكون حاكما مطلقا ، ولكي يحقق ذلك عمل على أن يتخلص من كل وصاية ، وأن يقضي على كل من يحتمل أن ينافسه في المطالبة بالعرش من أبناء البيت الصفوى ، ولهذا رأيناه يقدم على اغتيال وصيه مرشد قليخان ، كما تخلص من معظم أفراد أسرته فكيف تم له ذلك ؟

أولا : التخلص من مرشد قليخان :

بعد أن تم تتويج الشاه عباس ، اعتبر مرشد قليخان نفسه وصيا على الشاه الجديد على الرغم من بلوغه الثامنة عشرة من عمره ، وبدأ يصرف الدولة وكأنه صاحب الكلمة العليا ، فأخذ يوزع المناصب على قواده وأتباعه ، كما حرص على ألا يتيح للشاه عباس أن يتدخل في أى أمر من أمور الدولة[1] ، ووصل الأمر به إلى حد مساءلة الشاه إذا أقدم على إتيان أى عمل ، حتى ولو كان هذا العمل يتمثل في إنعام أعطاه لأحد رعاياه ، وإذا رغب الشاه في الخروج للصيد أو التجول ، منعه من فعل هذا وذاك ، وإذا أبدى الشاه رأيا ذات مرة في أى أمر مهم سارع مرشد قليخان بتعنيفه والاستخفاف برأيه على مسمع من الجميع[2] .

وهكذا بدأ نفور الشاه عباس من مرشد قليخان يزداد يوما بعد يوم ، ولكن الشاه ـ على الرغم من ذلك ـ لم يكن حريصاً على التخلص منه بسرعة وذلك لأنه لم يكن على خبرة كاملة بتصريف أمور الدولة ، فحرص على الإبقاء

---

(١) اسكندربيك تركمان منشى : تاريخ عالم آراى عباس جـ ٢ ص ٤٠٠ تهران ١٣٣٤ ش .

(٢) تاريخ زندگانى شاه عباس أول جـ ١ ص ١٤٣

عليه حتى يتمرس أساليب الحكم ، ويستطيع الاستقلال بتصريف الأمور ، كما أبقى عليه حتى يتخلص عن طريقه من عدد كبير من قواد القزلباش فى العاصمة قزوين ومنطقة العراق العجمى ، لذا نراه يدافع عنه عندما ثار هؤلاء ضد القرار الذى اتخذه مرشد قليخان بأن عين نفسه حاكما على منطقة أصفهان وضم إلى حوزته الأملاك السلطانية هناك ، والتى كانت قد منحت لحمزة ميرزا ثم لأبى طالب ميرزا بعد مقتل حمزة ميرزا ، ولكن بدلا من أن يستجيب الشاه عباس لمطالب هؤلاء القواد الثائرين أصدر أوامره بخلع تاج القزلباش عن رءوسهم ، وأن تضرب رقابهم ، وتسحب جثثهم على الأرض ، ثم توثق أقدامهم بالحبال ، وبعد ذلك تدلى جثثهم من فوق قصر السلطنة(١) .

وعلى الرغم من وقوف الشاه عباس بجانب مرشد قليخان ، وقضائه على مناوئيه ، فقد أقدم مرشد قليخان على ارتكاب حماقات كثيرة زادت الشاه نفوراً منه ، وعزما على الخلاص من وصايته ، ومن هذه الحماقات أنه أراد مصاهرة الأسرة الصفوية تثبيتا لمكانته وسطوته، فطلب من الشاه الموافقة على زواجه من إحدى أميرات البيت الصفوى ، فرفض الشاه هذا الطلب(٢) ، ولعل هذا الرفض كان بداية للصدام المعلن بين الطرفين .

ونتيجة لهذا الصدام أقدم مرشد قليخان بتحريض من أتباعه على ارتكاب حماقة أخرى ، فقد قال له بعض مؤيديه من طائفته (استاجلو) إن الشاه يفكر فى نهاية سيئة لك ؛ وعما قريب سيقضى عليك ، وسيصبح زعيم طائفة استاجلو فى منزلة التراب الأسود(٣) . فأرسل مرشد قليخان من أحضر

---

(١) ملحقات روضة الصفا جـ ٨ ص ٢٣٧

(٣) عالم آراى عباسى جـ ٢ ، ص : ٤٠٠

(٤) المرجع السابق ، ونفس الصفحة

الشاه المعزول محمد خدابنده وأبناءه من قلعة ألموت حيث كانوا مسجونين بها بعد تتويج الشاه عباس ، وكانت حجته فى ذلك أن القلعة قريبة من جيلان الثائرة ، ومن المحتمل أن ينتهز البعض فرصة انشغال الشاه بصد الأوزبك عن خراسان ، ويفرج عن المسجونين ، ويولى أحـــدهم عرش الدولة الصفوية ، ولـكن الشاه عباس أدرك أنه يريد بذلك التلويح بأن فى استطاعته عزله وتولية أى فرد من الأسرة الصفوية مكانه ، وأمام هذه الحماقة صمم الشاه على ضرورة الإطاحة بمرشد قليخان قبل أن يطيح هو به .

أما الحماقة الأخيرة التى قصمت ظهر البعير فقد تمثلت فى تقصير مرشد قليخان فى تقديم العون لقوات القزلباش فى هراة ، عندما تمـكن الأوزبك من محاصرتهم داخل قلعة المدينة ، وقد أمره الشاه عباس بالإسراع فى إرسال التعزيزات العسكرية لنصرة عليقليخان والمحاصرين معه داخل القلعة ولـكن مرشد قليخان تباطأ فى إرسال العون أملا فى الخلاص من عليقليخان غريمه الأول ، وخوفه من أن يجد طريقه مرة أخرى إلى بلاط الشاه عباس إذا نجا من هجمة الأوزبك على قلعته ، وبخاصة أن الشاه عباس كان يتوق دائمـاً للقائه ، ولم ينس معاملته الطيبة له أثناء وجوده معه فى مدينة هراة . فـكان مرشد قليخان يدعى فى كل يوم أن العون العسكرى سيرسل فـــوراً إلى خراسان ، وظل يماطل ويسوف حتى وصلت إلى قزوين الأنباء باقتحام الأوزبك لقلعة هراة وقتلهم عليقليخان وعـــــدداً كبيراً من جنود القزلباش[1].

وعند ذلك شعر مرشد قليخان بالراحة والاطمئنان ، ودق طبول (أنا

---

(١) تاريخ ادبيات ايران از آغاز عهد صفويه تازمان حاضر ، ص : ٩٩، وتاريخ إيران أز مغول تا افشاريه ، ص : ٣١٢

ولا غيرى)[1]، وخلال فترة وجيزة — بعد أن اطمأن قلبه — جهز الجيوش وأعد العدة للتحرك صوب خراسان . فشعر الشاه عباس بأن مرشد قليخان بمماطلته وتسويفه قد تسبب فى مقتل مربيه عليقليخان ، فصمم على الفتك به ، وبأقصى سرعة ممكنة قبل أن يستفحل خطره أكثر من ذلك .

وواتت الفرصة الشاه عباس عندما تحرك الجيش الصفوى فى ربيع عام ٩٩٧ ﻫ (حوالى أبريل ١٥٨٩ م) قاصدا خراسان لدفع الأوزبك وطردهم ، وعندما وصل إلى بسطام عسكر الجيش فى معسكر شاهرود[2] ، وهناك اتفق الشاه عباس مع أربعة من قواده المخلصين على اغتيال مرشد قليخان وهو نائم فى خيمة الشاه ، حيث غلبه النعاس وهو يتحدث مع الشاه فى خيمته ، فتقدم هؤلاء الأربعة وشاركوا فى قتله والإجهاز عليه ، والشاه يرقب كل ذلك ويشجعهم ويحثهم على الإسراع من مهمتهم ، وبعد أن أنهوا المهمة أمر الشاه فى نفس الليلة بقتل عدد كبير من مؤيدى مرشد قليخان ، كما أمر بعزل أخيه ابراهيم خان عن مشهد ، وقتله كذلك .

أما عن الأربعة الذين تولوا تنفيذ مهمة اغتيال مرشد قليخان فهم أمت بيك ، قراحسن قورچى ، الله وردى بيك ، ومحمد بيك ساروقچى ، وقد كافأهم الشاه عباس بأن أعطاهم أموالا ومناصب هامة فى دولته بعد ذلك[3] .

وبتخلص الشاه عباس من مرشد قليخان ، يكون قد تخلص لأول مرة

---

(١) ملحقات تاريخ روضه الصفا ، ج ، ٨ ، ص : ٢٥٢

(٢) تاريخ أدبيات إيران از آغاز عهد صفويه تازمان حاضر ، ص: ٩٩ ، وعبد الله رازى هندانى : تاريخ إيران ، ص طهران : ١٣١٧ ﻫ . ش

(٣) عالم آراى عباسى ، ج : ٢ ، ص ، ٤٠١ ، وزندگانى شاه عباس أول ج ١ ، ص : ١٤٦

فى حياته من ضغط الوصاية عليه ، فأصبح بذلك الملك المطلق اسما وفعلا[1] ، فحكم حكما مطلقا ، وبطش بكل من خالف له أمراً ، سواء صرح برأيه المخالف ، أو ظن به عباس ذلك ، ولم يعد أمام رجال الدولة إلا تنفيذ أوامره دون جدال ، حتى ولو أمر أباً بقتل ابنه فليس من حقه التكاسل عن تنفيذ الأمر ، وإلا أمر الابن بقتل ذلك الأب[2] . وبسبب هذه السلطة المطلقة اتهمه المستشرقون بأنه وصل الى درجة جعلت مواطنيه يقدسونه ويؤلهونه خوفا من بطشه وتجنبا لشره[3] .

ومن الملاحظ أن بطشه وجبروته لم يقتصر على قواده وأفراد حاشيته ، بل تعداهم إلى أفراد أسرته وأقرب الناس إليه ، رغبة منه فى التخلص من أى خطر قد يهدد سلطنته ، فكان هذا هو المسلك الثانى الذى أمّن به طريق انفراده بالحكم .

ثانياً : التخلص من أفراد أسرته :

عندما دخل الشاه عباس العاصمة قزوين عام ٩٩٦ هـ ، لم يكن هناك من أبناء البيت الصفوى من هم على قيد الحياة غير والده السلطان محمد خدا بنده ، وأخويه أبى طالب وطهما سب ، وابنى أخيه القتيل حمزة ميرزا وهما اسماعيل وحيدر ، حيث مات جميع أبناء البيت الصفوى عدا هؤلاء أثناء حكم الشاه اسماعيل الثانى . وما أن استتبت الأمور لعباس ومرشد قليخان فى العاصمة ، حتى أمرا بإلقاء القبض عليهم جميعا وإيداعهم قلعة ألموت ،[4] وظلوا هناك

(١) تاريخ أدبيات إيران ، جـ ٤ (براون) ص : ٩٩
(٢) زندگانى شاه عباس أول ، جـ ٢ ، ص : ٧٨ — ٧٩
(٣) إيران در زمان صفويه . ص . ٣٧٤
(٤) تاريخ ادبيات ايران جـ ٤ [براون] ص : ٩٧

حتى بدأ عباس يستعد للتوجه صوب خراسان وطرد الأوزبك من هراة وما جاورها،فإذا بمرشد قليخان يعيدهم إلى العاصمة بحجة أن قلعة الموت قريبة من جيلان،ومن الحكمة عدم تركهم هناك والشاه خارج العاصمة،حتى لا يتقدم حكام جيلان إلى القلعة ويتم الإفراج عن المسجونين، وربما يتم تنصيب أحدهم. ولكن عباس أدرك أن مرشد قليخان يهدده بمقدمهم ، لذا أمر بعض قواده المخلصين بنقلهم إلى قلعة ورامين وتشديد الحراسة عليهم (١).

وبعد أن عاد الشاه إلى العاصمة قزوين، أمر بفك أسر أبيه وإعادته إلى قزوين ليعيش تحت رقابته في القصر ، ومنعه من الخروج أو الاختلاط بقواد القزلباش، كما كان يأخذه معه إذا سافر خارج قزوين ، وظل الحال كذلك إلى أن توفى السلطان محمد خدا بنده عام ١٠٠٤ هـ ، وهكذا استراح عباس من أحد منافسيه ، كما كان يتخيل ذلك .

أما عن أخويه أبي طالب ميرزا وطهما سب ميرزا وابن أخيه اسماعيل ميرزا ؛فقد أمر الشاه عباس عام ٩٩٩ هـ بسمل عيونهم حتى لا يصلح أحدهم بعد ذلك لتولى العرش ، وأعادهم إلى قلعة ألموت حيث بقوا فيها إلى أن توفوا ، فمات أبو طالب عام ١٠٢٩ هـ ، ومات طهما سب واسماعيل ميرزا في ذات القلعة بعد وفاة عباس نفسه (٢).

وأما حيدر ميرزا ابن حمزة ميرزا ، فقد أرسله الشاه عباس إلى البلاط العثماني ليكون رهينة لديهم وذلك في عام ٩٩٨ هـ (٣)، وظل هناك حتى أصيب

---

(١) زندگانى شاه عباس أول ، ج : ٢ ص : ١٦٤
(٢) المرجع السابق ، ص : ١٦٩
[٣] إيران در زمان صفويه ، ص : ٥٢

بالطاعون ومات عام ١٠٠٥ هـ ، فكان خبر وفاتـــه مبعث سرور فى البلاط الإيرانى .

وهكذا كان الشاه عباس قاسيا مع أبيه وأخوته ، وذلك خوفا على عرشه وسلطانه ، ولم يقتصر بطشه على هؤلاء بل تعداهم إلى أبنائه كذلك .

كان للشاه عباس خمسة أبناء هم على التوالى : محمد باقر ميرزا (وعرف باسم صفى ميرزا)، وحسين ميرزا، وخدا بنده ميرزا، واسماعيل ميرزا ، وأخيرا إما مقلى ميرزا وقد توفى كل من حسين واسماعيل فى صغرهما ،(١) فأراحهما الله من بطش أبيهما ، أما ابنه الأكبر صفى ميرزا فكان الجميع ينظرون إليه على أنه ولى العهد والوريث الشرعى لأبيه ، وقد أحرز شعبية وحبا من الجميع مما أوغر صدر أبيه ضده ، وخشى أن يقوم بالدور الذى قام به هو ضد أبيه السلطان محمد خدا بنده ، فأخذ يتلمس الفرص للخلاص منه ، حتى اختار أحد أعوانه من الشراكسة للقيام بمهمة اغتيال صفى ميرزا ، فنفذ جريمته فى الثالث من المحرم عام ١٠٢٤ هـ(٢)، وبدلا من أن يتظاهر الشاه عباس بمعاقبة القاتل، فإنه أنعم عليه بمنصب أكبر مما كان يشغله قبل تنفيذ الجريمة (٣) ويقال إن الشاه عباس شعر بعد ذلك بتأنيب الضمير وظل يبكى الفقيد طوال عام كامل ؛ وإن كنت أشك فى صحة هذا الخبر ، لأنه لو بكى هذا الابن ، وندم على فعلته ، لما أقدم على تعذيب ابنيه الآخرين بعد ذلك .

وابنه الثالث المدعو خدا بنده ميرزا حاز هو الآخر مكانة كبيرة فى البلاط

---

(١) لغت نامه ؛ شماره : ٧٦ ، ص : ٤١

(٢) زندگانى شاه عباس أول ، ج : ٢ ، ص : ١٧٨

(٣) History of Persia, Vol II.p. 175.

وخارجه لتمتعه بمزايا عديدة منها الكرم والشجاعة والإخلاص وبشاشة الوجه، حتى أن الجميع نادوا به كحاكم موعود بالعرش بعد أبيه ، فكانت النتيجة أن تملك الغيظ أباه ، وعبر عن استيائه من حب الجميع له باغتيال مربيه ، مما أغضب خدا بنده ، وجعله يسرع صوب البلاط معلنا احتجاجه ، ووصلت ثورة غضبه إلى حد إشهاره السيف فى وجه أبيه ، فأمر الشاه عباس بسمل عينيه ، مما أصاب هذا الابن بما يشبه الجنون ؛ فأقدم على الانتحار بتناول السم [1] .

ولم يكن حظ الابن الخامس إمام قلى ميرزا أفضل من حظ أخويه السابقين حيث أمر الشاه عباس بسمل عينيه فى عام ١٠٣٦ هـ ، حتى يحرمه من ولاية العهد وحتى لا يلتف حوله رجال البلاط والقواد مثلما فعلوا مع أخويه صفى ميرزا وخدا بنده ميرزا .

وبإقدام الشاه عباس على الخلاص من أبنائه واجه فى أواخر عمره مشكلة اختيار ولى عهده ، فلم يجد إلا سام ميرزا ابن صفى ميرزا القتيل والذى أنقذته أمه من القتل بأن أبعدته دائما عن مجلس الشاه عباس وعن رجال بلاطه ، فعاش فى الحريم حتى توفى الشاه عباس عام ١٠٣٨ هـ (١٦٢٩ م) فتولى الحكم باسم الشاه صفى .

ونلاحظ إلى جانب بطش الشاه عباس بأبنائه وأفراد أسرته ، أنه استن سنة جديدة فى تربية ولى العهد ، فبعد أن كانت السنة المتبعة منذ عهد الشاه اسماعيل الأول هى إرسال ولى العهد إلى إحدى الولايات الكبيرة ليشرف على تصريف أمورها ، ويتمرس الحكم فيها ، قبل أن يتولى زمام الدولة

---

[١] المرجع السابق ، ص ١٨٣

بأسرها ، فان الشاه عباس أمر بأن يلزم ولى العهد الحريم ولا يسمح له بالاختلاط بالقواد ، ولا يحادث إلا الخدم والجوارى ومربيه الخصوصى . وقد دافع الشاه عباس عن موقفه هذا بأنه يجنب الدولة الفرقة والانقسام[1] ولعله لجأ إلى ذلك حتى لا يرتكب أحد ولاة العهد معه مثلما ارتكبه هو مع والده السلطان محمد خدا بنده ، ولكن هذا القرار كان ذا آثار مدمرة على الدولة الصفوية إذ تولى أمورها ملوك عديمو الخبرة بالحكم والسياسة .

وهكذا كان الشاه عباس حاكما مستبدا منفردا بالسلطة، ولا يسمح لأحد بأن يشاركه الرأى والحكم ، كما كان يسارع باغتيال كل من يظن فيهم خيانة، حتى ولو كانوا أقرب الناس إليه . ولكى ينجح النجاح المطلق فى الانفراد بالحكم خطط للقضاء على كل نفوذ لقواد القزلباش ، كما صمم على تكوين جيش مركزى يأتمر بأمره ، ويقضى على كل فتنة تثار ضده ؛ فما مدى نجاحه فى تنفيذ هذين المخططين ؟

— ٢ —

التخلص من نفوذ رؤساء طوائف القزلباش :

انتهز رؤساء الطوائف فرصة اضطراب الحياة السياسية خلال عصر الشاه اسماعيل الثانى ، وكذلك ضعف شخصية السلطان محمد خدا بنده الكفيف البصر ، وبدأوا فى بسط نفوذهم وسيطرتهم على كل شىء فى الدولة، وسلكوا فى تحقيق هذه السيطرة كل مسلك حتى ولو أدى ذلك إلى اغتيال أفراد الأسرة الصفوية نفسها ، وكان ممن اغتالوهم والدة الشاه عباس مهد عليا وأخوه حمزة

---

(١) إيران در زمان صفويه ، ص : ٣٧٥ - ٣٧٦

ميرزا[1] وقد ترك هذا الأمر آثارا قائمة على شعور عباس تجاههم ، مما جعله يضمر لهم السوء ، ويعقد العزم على التخلص من شرورهم والقضاء عليهم متى واتته الفرصة .

وكان عدد طوائف القزلباش قبل تولى الشاه عباس الحكم اثنتين وثلاثين طائفة ، وهذه الطوائف كانت منتشرة فى كل مكان من الدولة الصفوية ، وكانوا يملكون الكثير من الأراضى فى كل ربوع إيران،ويعتبرون أنفسهم أعلى مكانة وأكثر أصالة من بقية أفراد الشعب الإيرانى ، على الرغم من أن عمر تواجدهم قد بدأ منذ عصر حيدر والد الشاه اسماعيل الأول فقط[2] . وكان عدد أفراد هذه الطوائف جميعها ستين ألف فرد وتدفع رواتبهم من خزانة الدولة .[3]

وقد لوحظ كذلك أن جميع حكام الأقاليم قبل عصر الشاه عباس كانوا من بين رؤساء طوائف القزلباش فقط[4] .

ونتيجة لإشراف طوائف القزلباش الكامل على الشئون العسكرية والإدارية ، فإن تسلط رؤسائهم قد فاق كل حد، ولكى يستطيع الشاه عباس أن ينفرد بالحكم كان لزاما عليه أن يصفى نفوذهم ، ويحطم شوكتهم،وهذا ماأقدم عليه ، فما أن تم تتويجه حتى أصدر أوامره بإلقاء القبض على قواد القزلباش الذين شاركوا فى اغتيال أخيه حمزة ميرزا ومنهم عليقليخان قيبج

(١) لغت نامه ، شماره ٧٦ ، ص : ٤٢
(٢) زندگانى شاه عباس أول ، جـ : ٢١ ص : ١٧٣
(٣) أنظر لغت نامه شماره ٧٦ ص : ٤٢ ، إيران در زمان صفويه ، ص ٥٣ ، وغيرها من المراجع
(٤) زندگانى شاه عباس أول ، جـ ١ ، ص : ١٧٤

أغلى ، واسماعيل قليخان وكثيرون غيرهما ، ونفذ فيهم جميعاً حكم الإعدام ، وقد اتخذ هذا القرار بالمشاركة مع مرشد قليخان .[1]

وإلى جانب اقتصاصه من قتلة أخيه ، فإنه أقدم على قتل من اشتركوا في اغتيال والدته ، فقد ورد في الأخبار بأنه ألقى القبض على قور خمس خان أحد مدبرى جريمة اغتيال والدته ، وقام الشاه عباس بقتله بيده ، وكأن في هذا العمل ترضية نفسيه له حيث انتقم لوالدته بقتل من اشتركوا في اغتيالها[2] .

ثم انتهز الشاه عباس فرصة ثورة بعض رؤساء القزلباش ضد مرشد قليخان عندما اختص نفسه بمنطقة أصفهان ، فأصدر الشاه أوامره بتجريدهم من قلنسوة القزلباش وقطع رقابهم جميعاً ، كما صادر ممتلكاتهم وممتلكات أسرهم ، ووزعها على عدد من أنصاره ومؤيديه .

ولم تمض فترة طويلة بعد تتويج الشاه عباس حتى تخلص من مرشد قليخان كما أمر بقتل عدد كبير من الملتفين حول مرشد قليخان ، حتى ولو كانوا من طوائف أخرى غير طائفة استاجلو .

وهكذا كان الشاه عباس ينتهز أى فرصة سانحة ليفتك بعدد من رؤساء طوائف القزلباش وقوادهم ، انتقاما لمقتل أفراد أسرته ، ودرءاً لأى خطر قد يهدد سلطنته إذا ماتوانى في تعقبهم والخلاص من شرورهم ، وإلى جانب قتله الكثيرين منهم ، لجأ إلى أساليب أخرى للقضاء على نفوذهم ، وبخاصة في مجال الجيش ، فبعد أن كان الجيش يعتمد اعتماداً كليا على أفراد طوائف القزلباش ، أصدر الشاه أوامره بتكوين جيشين جديدين ، أحدهما من الأرمن

---

(١) ملحقات تاريخ روضة الصفا ، جـ ٨ ، ص : ٢٣٤

(٢) المرجع السابق ، جـ ٨ ص : ٢٥٩

والشركس والكرجيين التابعين لسلطانه ، والآخر من خاصة محبيه من مواطنيه بغض النظر عن الطوائف التي ينتسبون إليها ، وأطلق على الجيش الثانى اسم « شاهسون » أى محبى الملك ، وكان الجيشان يتلقيان أوامرهما من الشاه مباشرة ، وبذلك تخلص من إشراف رؤساء القزلباش على النشاط العسكرى ، مما أعطاه حرية أكبر فى البطش بهم ، والقضاء عليهم[1].

كما أصدر الشاه أوامره بتجريد رؤساء طوائف القزلباش من مناصبهم الإدارية الهامة فى الدولة ، وأسندها لقيادات شابة جديدة[2] ، فكان يقرب إليه بعض الشبان الذين يتوسم فيهم الإخلاص والتفانى فى خدمته ، وينعم عليهم بأرفع الأوسمة والألقاب ، ويوليهم حكم الولايات المختلفة ، والمناصب الهامة فى البلاط ، ولكن إذا ظن بأحدهم سوءاً أو رغبة فى التسلط والظهور سارع بالفتك به والخلاص منه ، وهكذا جعل كبار رجال الدولة وحكام الولايات يخافونه ويرهبون سطوته .

ولجأ الشاه عباس إلى وسيلة أخرى لإحكام سيطرته وقبضته على كل مقاليد الحكم فى الدولة الصفوية ، فبعد أن كان نظام الحكم منذ عصر الشاه اسماعيل الأول لامركزيا، حيث أُعطى حكام الولايات حق الحكم المطلق فى ولاياتهم ، وليس الحاكم مطالبا إلا بإرسال قدر معين من المال والغلال كهدية للشاه فقط[3] ، وجدنا الشاه عباس يحكم قبضته على حكام الأقاليم ويحيلهم إلى مجرد مرءوسين يأتمرون بأمره ، وليس من حق أحدهم الامتناع عن تنفيذ أى أمر يصدر إليه من الشاه[4] ، بل أصبح من حقه أن يعزل أى

---

(١) History of Persia, Vol II. p. 175.

(٢) إيران در زمان صفويه ، ص : ٥٤

(٣) زندگانى شاه عباس أول ، جـ ١ ص : ١٧٦

(٤) تاريخ إيران از مغول تا افشاريه ، ص : ٣٣٩

حاكم لايروق له ، ويعين آخر مكانه ، وهكذا شعر حكام الأقاليم بأن بقاءهم فى مناصبهم أمر متعلق برضاء الشاه عنهم أو غضبه عليهم ، بعد أن كان منصب حكام الأقاليم حكرا لرئيس طائفة القزلباش المتمركزة فى كل إقليم .

ونتيجة لهذه السياسة المتشددة استطاع الشاه عباس أن يقضى على سطوة طوائف القزلباش وتدخل رؤسائهم فى كل صغيرة وكبيرة من أمور الدولة، وأن يعيد للدولة هيبتها ووحدتها ، بل يجبر رجال القزلباش على الالتفاف حوله رهبة منه وخوفا من بطشه ، بعد أن كانت تلتف حول الشاه اسماعيل والشاه طهماسب حبا وودا . وبقضائه على نفوذهم زاد من فرص تمتعه بحكم مطلق وبصوت مسموع لدى الجميع فى كل ربوع إيران .

— ٣ —

الاهتمام بالجيش الصفوى :

كان الجيش الصفوى قبل عصر الشاه عباس يعتمد على رجال القزلباش البالغ عددهم ستون ألف جندى ، وكانوا يتلقون أوامرهم من رؤساء الطوائف التابعين لهم ، إذ لم يكن من حق الشاه الصفوى إصدار الأوامر مباشرة لجنده ، بل عليه أن يصدر الأمر لرؤساء الطوائف ثم يقوم كل رئيس طائفة بإبلاغ الأمر لتابعيه من الجنود (١)، ونتيجة لهذا النظام العسكرى أصبحت قبضة الشاه على رجال القزلباش ضعيفة ، لأن رؤساء الطوائف إذا لم يرق لهم أمر الشاه امتنعوا عن إبلاغه للجنود ، بل أصبح فى استطاعة هؤلاء

(١) لغت نامه ، شماره ٧٦ ص ٤٢

الرؤساء بعد ذلك تأليب أتباعهم ضد الشاه ، وشق عصا الطاعة ضده ، وسرعان ما كان يستجيب الأعوان لهم ، ومافعله عليقليخان ومرشدقليخان فى خراسان أيام أن كان عباس موجودا هناك خير شاهد على سطوة رؤساء القزلباش وتحديهم لأوامر الشاه الصفوى .

وما أن تولى الشاه عباس الحكم حتى أدرك أن القضاء على نفود رؤساء طوائف القزلباش يعتمد بالدرجة الأولى على إضعاف القوات التابعة لهم ، فأقدم على تخفيض عدد جنود القزلباش إلى النصف بحيث أصبح عددهم ثلاثين ألف فقط .(١)

وإلى جانب هذه الخطوة ، وجدنا الشاه عباس يجابه جماعة أخرى كان لها نفوذها قبل عصره ، ونعنى بها جماعة الصوفيين وهى جماعة تكونت منذ قيام الدولة ، وزعم أفرادها أنهم أنصار البيت الصفوى والمدافعون عنه ، حيث انتهز هؤلاء فرصة ضعف الدوله أيام حكم السلطان محمد خدابنده وزادوا من نفوذهم وسطوتهم ، كما حاولوا إثارة القلاقل فى بداية حكم عباس على أمل إعادة السلطان محمد خدابنده إلى الحكم ، فما كان من الشاه عباس إلا أن شل حركتهم وأضعف نفوذهم ، وأبعدهم كلية عن المشاركة فى الدفاع عن الدولة وأفراد البيت المالك ، ولم يسند إليهم إلا أحقر الأعمال ، كتنظيف قصور الدولة ، ومنصب الجلاد وغير ذلك من الوظائف الدنيا(٢) .

وبعد أن أضعف الشاه عباس قوة رجال القزلباش وكذلك سطوة جماعة الصوفيين شعر بأنه فى حاجة ماسة إلى تجديد الروح العسكرية فى

---

(١) History of Persia, Vol II, p. 175.

(٢) زندگانى شاه عباس أول ، جـ ١ ، ص ، ١٨٥ — ١٨٦

إيران وتنشيطها ، وبخاصة أن البلاد تتهددها أخطار من الشرق ممثلة في الهجمة الأوزبكية ، ومن الغرب ماثلة في احتلال الدولة العثمانية لكثير من أراضي إيران الغربية ، وأمام هذه الحاجة الملحة أقدم الشاه عباس الأول على اتخاذ خطوات عملية في سبيل تدعيم قواته العسكرية ؛ ومن هذه الخطوات إنشاء جيشين جديدين ؛ أحدهما يتكون من رعايا الدولة الصفوية من غير المسلمين ويضم أبناء طوائف الكرجيين والأرمن والشركس[1]، وهو جيش خاضع للسلطان مباشرة ، ويأتمر بأوامره ، ويتقاضى أفراده رواتبهم من خزانة الشاه وهذا الجيش شبيه في تكوينه بأي جيش انكشاري[2] في ذلك الوقت إذ كان يتولى الدفاع عن الشاه وحراسة قصوره في مقابل مايدفع لأفراده من رواتب ومخصصات . أما الجيش الثاني فيتكون من رعايا إيرانيين ينتسبون إلى طوائف الشعب المختلفة سواء أكانوا من أفراد القزلباش السابقين أو ممن لم ينضموا تحت لواء أي طائفة من طوائف القزلباش ، الشيء الوحيد الذي يربط بينهم هو الالتفاف حول الشاه عباس ، والتفاني في تنفيذ أهدافه ، والدفاع عن أرض إيران ضد أعدائها وأعداء الشاه عباس وقد أطلق على هذا الجيش الثاني اسم « شاهسون » أي محبي الملك[3].

وبتكوين الشاه عباس لهذين الجيشين اللذين يأتمران بأوامره المباشرة استطاع أن يحكم قبضته في الداخل ، كما استطاع أن يوجههم لمحاربة أعدائه في الخارج ، فأحرز بفضل إخلاصهم له انتصارات في الشرق والغرب .

ومن العوامل التي ساعدت على تطوير القوة العسكرية الصفوية في عصر

---

(١) إيران در زمان صفوية ، ص : ٥٣

(٢) History of Persia, Vol II, p.182

(٣) إيران در زمان صفوية ، ص ، ٥٤

الشاه عباس الأول إقدامه على تسليح بعض فرق جيشه بالبنادق والمدافع ، فقد أدرك أن الجيش العثمانى ينتصر دائماً على الجيش الصفوى لا بفضل كثرته العددية ، ولكن لأنه مزود بالبنادق والمدافع . وقد ذكر المؤرخون أنه زود جيشه بخمسمائة عربة مدفع وستين ألف بندقية[1] ، وقد صنعت هذه الأسلحة النارية داخل إيران، حيث أنشأ الشاه عباس مصنعاً لإنتاج السلاح والذخيرة[2] وقد ساعده فى إقامة هذه الصناعة أفراد البعثة البريطانية التى وفدت إلى إيران عام ١٠٠٧ هـ (١٥٩٧ م) بقيادة الأخوين شرلى ، كما ساعده أفراد البعثة فى رسم الخطط العسكرية وشارك بعضهم فى الحروب التى دارت بين الجيشين الصفوى والعثمانى، فقد ورد فى الأخبار أن روبرت شرلى أسندت إليه رئاسة إحدى الفرق العسكرية الصفوية فى الحرب التى دارت بين الجانبين الصفوى والعثمانى خلال عامى ١٠١٣ ، ١٠١٤ هـ[3].

وعلى الرغم من مجهودات الشاه عباس لتطوير قوته المسلحة البرية ، فإنه لم ينتبه إلى إنشاء قوة عسكرية بحرية تستطيع مجابهة خطر القوات البرتغالية فى جزيرة هرمز وبعض موانى إيران فى منطقة الخليج العربى ، وعندما فكر فى طرد البرتغاليين وجدناه يستعين بقوات شركة الهند الشرقية الإنجليزية ، التى سارعت بتقديم العون لا أملا فى مساعدة إيران ، ولكن تطلعاً إلى إخراج البرتغال من ميدان التنافس التجارى فى منطقة الشرق عامة والهند خاصة . وقد حاول البعض الدفاع عن هذا القصور من جانب الشاه عباس بقولهم ، إن جو السواحل الإيرانية فى منطقة الخليج العربى لا يساعد على

(١) تاريخ إيران آز مغول تا افشاريه ، ص ٣٢١.
(٢) لغت نامه ، شماره : ٧٦ ، ص : ٤٢
(٣) زندگانى شاه عباس أول ، جـ ٣ ، ص ٢٤١

المعيشة المستقرة[١] . ولكن يمكن الرد عليهم بأن هذه السواحل نفسها قد عاش فيها الأوربيون الوافدون من البرتغال وأسبانيا ، وتحملوا ارتفاع الحرارة بها ، فكيف يهرب منها الإيرانيون وهم أصحاب البلاد والمطالبون بالدفاع عنها ؟ وقد أدى قصوره هذا إلى أن حلت القوات الإنجليزية محل القوات البرتغالية ، وبسطت نفـــوذها على جميع موانىء الخليج العربى بعد ذلك .

* * *

ولكن إذا تجاوزنا القصور فى إنشاء قوة بحرية إيرانية ، فإننا يجب أن نعترف بأن سياسة عباس العسكرية قد نجحت نجاحا ملحوظا فى الداخل والخارج ، حيث أعادت للدولة هيبتها ، وللشاه سلطانه ، وقد بدا ذلك واضحا فى صده لحملات الأوزبك والعثمانيين ، وفى قضائه على جميع الفتن الداخلية التى أثارها حكام الأقاليم فى وجهه بعد أن أفقدهم سلطانهم ، وأضعف رجال القزلباش التابعين لهم . فما أهم هذه الفتن الداخلية ؟ وكيف جابهها الشاه عباس الأول ؟

— ٤ —

إخماد الشاه عباس للفتن الداخلية :

بعد أن تم تتويج الشاه عباس ، بدأ يتطلع إلى الانفراد بالحكم ، والقضاء على سلطة القواد والحكام ، وإعادة الحكم المركزى إلى ما كان عليه أيام الشاه اسماعيل الأول والشاه طهماسب ، ولكن أهدافه هذه اصطدمت

(٢) إيران در زمان صفويه ، ص : ٤١٥ — ٤١٦

بأطماع بعض حكام الأقاليم المتطلعين إلى بسط نفوذهم على الأماكن التى يتولون حكمها ، فكان لزاما على الشاه عباس أن يجابه خطرهم قبل أن يستفحل، ودخل فى حروب كثيرة مع هؤلاء الثائرين وانتصر عليهم ، وفرض هيبته على الجميع ، ومن أهم هذه الفتن الداخلية التى أخمدها الشاه عباس هذه الفتن الأربع :

١ — فتنة يعقوبخان ذى القدر فى فارس :

بعد أن توج الشاه عباس أصدر أوامره بأن يتولى أمر فارس يعقوبخان ذو القدر ، ولكن هذا الحاكم سرعان ماعمل على زيادة رقعة نفوذه ، فضم إلى حكمه مناطق يزد وكرمان ، وبدأ يتصرف فيما تحت حكمه من بلاد دون الرجوع إلى الشاه عباس ، وبدأ يتصرف وكأنه حاكم مستقل لدرجة أنه كون جيشا وسلحه بأسلحة كثيرة تمكنه من مناوءة جيش الشاه عباس إذا ماحاول الشاه التعرض لسلطانه .

وأمام هذا الخطر تقدم الشاه عباس بجيشه صوب أصفهان ، ووصلها فى عام ٩٩٨ هـ (١٥٩٠ م)، وأرسل يدعو يعقوبخان للتصالح فيما بينهما والصفح عنه ، مقابل خضوعه للشاه عباس ، فلم يقبل يعقوبخان إلقاء السلاح إلا بعد أن أقسم الشاه بأنه سيصفح عنه ، وأخيرا دخل الشاه عباس فارس ، وحافظ على قسمه مدة ثلاثة أيام ، حتى اطمأن يعقوبخان ، وفى صبيحة اليوم الرابع دخل يعقوبخان على الشاه عباس فى البلاط ، فإذا برجال الشاه يقيدونه ويفتكون به ، كما أمر عباس بمثول جميع أفراد أسرة يعقوبخان وأعوانه إلى البلاط وتقبيل قدميه لكى يصفح عنهم ، وقد فعلوا ذلك ، ولكن الشاه فتك بهم بعد ذلك (١) .

(١) زندگانى شاه عباس أول ، جـ ٢ ، ص ١٢٥ — ١٣٠ .

٢ — فتنة خان أحمد خان حاكم جيلان :

كان خان أحمد خان يتولى حكم جيلان من قبل الشاه طهماسب الأول ، ولكنه حاول الاستقلال بها ، فألقى الشاه طهماسب القبض عليه وسجنه فى قلعة اصطخر ، وظل فى السجن مدة عشر سنوات إلى أن تولى الحكم السلطان محمد خدا بنده ، فأفرج عنه وأعاده إلى حكم جيلان ، وزوجه أخته مريم سلطان بيكم (١) ، على أمل أن تكون العلاقة الأسرية دافعا له للحفاظ على مكانة الأسرة الصفوية وعدم الخروج عليها ، ولكن خان أحمد انتهز فرصة ضعف السلطان محمد خدا بنده ، وبدأ يوسع دائرة نفوذه ، ويفرض سلطانه المستقل ، وظل الحال كذلك إلى أن تولى الشاه عباس ، فرغب فى إخضاع حاكم جيلان لكلمته ، ولكن خان أحمد رفض كل محاولات عباس ، بل إنه جعل من جيلان مأوى لعدد كبير من قواد القزلباش الفارين من سطوة عباس ، فأرسل الشاه إلى خان أحمد يطلب منه تسليمه هؤلاء الثائرين ، فرفض حاكم جيلان تسليمهم للشاه مما زاد الموقف بينهما تأزما واضطرابا (٢) .

وانتهز خان أحمد اشتداد الصراع بين الدولتين العثمانية والصفوية ، وحاول استثمار ذلك الصراع لصالحه ، فراسل السلطان العثمانى يدعوه لمهاجمة لاهيجان بحرا ، وسيقوم هو بمساعدة القوات العثمانية فى احتلالها ، ثم تتقدم الجيوش العثمانيه بعد ذلك إلى قزوين وتحتلها. ثم تحتل باقى مدن إيران ، وسيكون هو

(١) دكتر عبد الحسين نوائى : شاه طهماسب صفوى ، مجموعهٔ اسناد ومكاتبات تاريخى ، ص ١٣ ، تهران ١٣٥٠ . ش

(٢) زندگانى شاه عباس أول ، جـ ٣ . ص ١٣١ — ١٥٧

فى عون القوات العثمانية فى مقابل تثبيت حكمه المستقل فى منطقة جيلان (١)
وقد عرف الشاه عباس أمر هذه الدعوة بعد أن عقد معاهدة صلح مع الدولة العثمانية ، وأدرك أنه لا بد وأن يقضى عليه ، ولكن انشغال الشاه بإخماد فتنة ذى القدر فى مارس ، ودفع الأوزبك عن خراسان ، جعله كل هذا يهادن خان أحمد مؤقتا . فأرسل إليه يطالبه بإثبات حسن نواياه بإرسال زوجته — عمة الشاه عباس — وابنته لتقدما فروض الطاعة نيابة عنه إلى الشاه ، ولكن خان أحمد رفض هذا الطلب (٢) .

كما ذكر البعض بأن الشاه عباس لجأ إلى رباط المصاهرة للقضاء على هذه الفتنة ، حيث عرض على خان أحمد إعلان خطبة ابنته إلى صفى ميرزا أكبر أبناء عباس ، ولكن خان أحمد رفض ذلك بحجة صغر سن ابنته حيث كان لها من العمر فى ذلك الوقت أربع سنوات (٣) .

وأمام تعنت خان أحمد وتأزم الموقف فيما بينه وبين الشاه عباس ،أصدر الشاه أوامره إلى قائد جيشه فرهاد خان بالتحرك صوب جيلان والقضاء على فتنة خان أحمد خان ، وأخيرا التقى الجيشان فى جيلان ، وعندما أدرك الحاكم أن الهزيمة من نصيبه آثر الفرار بحرا إلى شيروان ، ومنها واصل سيره إلى العاصمة العثمانية ، حيث عاش هناك فترة ، وحاول بعد ذلك الرجوع إلى حكم جيلان مرة أخرى مع تقديم فروض الطاعة ، ولكن الشاه عباس رفض عودته إليها . (٤)

---

(١) ملحقات تاريخ روضة الصفا ، جـ ٨ ص ٢٦١ - ٢٦٢
(٢) زندگانى شاه عباس أول ، جـ ٣ ، ص : ١٣١ - ١٥٧
(٣) شاه طهماسب صفوى . مجموعهٔ اسناد ـ ص : ١٣
(٤) ملحقات تاريخ روضه الصفا جـ ٨ ص ٢٦٣

أما زوجه خان أحمد — وهي عمة الشاه عباس — وابنته فقدتم ترحيلهما إلى العاصمة حيث تعذر على خان أحمد أن يأخذهما معه، فعاشتا في بلاط الشاه عيشة مكرمة إلى أن أدركت الوفاة الزوجة عام ١٠١٧ هـ، وعندما بلغت الابنة سن الزواج طلب الشاه من ابنه صفي ميرزا أن يتزوجها، ولكن الأمير رفض ذلك، مما دفع الشاه عباس نفسه إلى أن يتزوجها [١] .

٣ — فتنة شاهور ديخان في لرستان .

انتهز شاهور ديخان فرصة انشغال الشاه عباس ببعض المهام، وهاجم قلعة « صد مرة »، واحتلها، ودعا جميع أمراء منطقة لرستان للاتحاد معه ضد الشاه. فأمر عباس قائده مهد يقلى خان شاملو بالتوجه صوب قلعة صد مرة والقضاء على شاهورديخان، وتقدم جيش الشاه صوب القلعة واحتلها مما دفع شاهور ديخان للهرب إلى بغداد .

وبعد فترة الانتظار والترقب، استغل شاهورديخان انشغال الشاه عباس بأمور خراسان والقضاء على الخطر الأوزبكي، وعاد مهاجمة لرستان واحتلها، فاضطر الشاه لارسال حملة أخرى إلى المنطقة، واستطاعت هذه الحملة القضاء على الفتنة، وألقت القبض على شاهورديخان وقتلته، كما قتلت الكثيرين من أتباعه، وأمر الشاه بإيداع ولدى شاهورديخان قلعة ألموت [٢] .

٤ — فتنة حاكم لار المتمتعة بالحكم الذاتي :

كانت منطقة لار بفارس تتمتع منذ أيام الدولة الساسانية بحكم ذاتي ،

---

(١) شاه طهماسب صفوى، مجموعه اسناد . . ص : ١٣

(٢) ملحقات روضة الصفا، ج ٨، ص ٢٧١، ٢٨٥، ٣٠٢ - ٣٠٥، انظر أيضاً زندگانى شاه عباس أول ج ٣، ص : ١٦٥

وحرص حكامها على مهادنة أى حكومة قوية تجاورهم ، وكانوا يتفقون مع هذه الحكومات على دفع الجزية فى مقابل الإبقاء على الاستقلال الذاتى لحكومة لار ، وظل الحال كذلك حتى حكمت الدولة الصفوية إيران ، فتعهدوا للشاه اسماعيل بدفع الجزية والبقاء مستقلين عن الدولة ، فوافق الشاه اسماعيل واستمر الحال كذلك فى عهد الشاه طهماسب ، ولكن ما أن اضطربت أحوال الدولة الصفوية خلال فترتى حكم الشاه اسماعيل الثانى والسلطان محمد خدابنده ، حتى امتنع حكام لار عن دفع الجزية ، وعندما تولى الشاه عباس الأول الحكم حرص على تأديب حكام لار وإرغامهم على دفع الجزية ، وإلا قوض دعائم حكومتهم وضم لار إلى حكمه المباشر ، وقد واتته الفرصة عندما بلغه أن حاكم لار ويدعى ابراهيم خان يعامل أهالى تلك المنطقة بقسوة وغلظة مما جعل أهالى لار يتطلعون إلى الشاه عباس كى يخلصهم من ابراهيم خان وقسوته[1] .

أخيراً تأزم الموقف بين الشاه عباس وحاكم لار عندما اعتدى هذا الحاكم على أحد التجار الأجانب الوافدين إلى إيران بتشجيع من الشاه عباس وقد استولى على أمواله وأموال زوجته ، فحرص الشاه عباس على استرضاء التاجر الأجنبى ، فأرسل إلى ابراهيم خان يطلب منه الإسراع فى رد أموال التاجر وأموال زوجته ، ولكن ابراهيم خان تباطأ فى تنفيذ مطلب الشاه عباس، مما جعله يصدر أوامره إلى حاكم فارس اللهورديخان لكى يتقدم صوب لار ، ويؤدب ابراهيم خان ويعيد أموال التاجر إليه ، ويقوض بعد ذلك دعائم حكومة لار المستقلة .

وامتثالا لأوامر الشاه عباس تقدم اللهورديخان إلى منطقة لار وقمع فتنة

---

(١) ملحقات تاريخ روضة الصفا جـ ٨ ، ص : ٣٣٤

حاكمها ، وألقى القبض عليه وأرسله مكبلا بالقيود إلى العاصمة أصفهان وذلك عام ١٠١٠ هـ كما فرض ضرائب باهظة على سكان لار تعويضا عن السنوات التى امتنعوا عن الدفع فيها قبل عصر الشاه عباس[١] ، كما استولى القائد الإيرانى على خزائن حكومة لار ، ومن بين ما عثر عليه فى هذه الخزائن تاج مرصع بالدر والياقوت ، قيل إنه تاج كيخسرو الساسانى ، وقد احتفظ حكام لار بهذا التاج منذ العهد الساسانى حتى هذه المعركة إذ كانوا يتوارثونه فيما بينهم ، وقد أرسل اللهورديخان هذا التاج إلى الشاه عباس فى أصفهان[٢]

وهكذا قضى الشاه عباس على فتنة حاكم لار ، كما قضى على حكومة تتمتع بالحكم الذاتى داخل حدود الدولة الصفوية ، مما كان يشعره بالضيق لوجود جزء من إيران لا يخضع لسلطانه المباشر وحكمه المطلق

هذه هى أهم الفتن التى آثارها بعض حكام الأقاليم فى بداية حكم الشاه عباس الأول ، وإلى جانبها نشبت فتن أخرى أقل أهمية استطاع الشاه عباس القضاء عليها قبل أن يستفحل خطرها ، ومن هـــذه الفتن فتنة شاه ملك فى جيلان ، وفتنة الجماعة التى عرفت باسم سيا پوش فى استراباد[٣] .

وقد أدى نجاح الشاه عباس فى إخماد هذه الفتن إلى استتباب الأمن فى الدولة الصفوية ، وتمتع الشاه بالحكم المطلق والسلطة المركزية ، إذ أصبح جميع حكام الأقاليم يخشون سطوته ، ولا يفكرون فى الخروج عليه وإلا واجههم بالقتل والتشريد ؛ ولكن إذا كان الشاه عباس قد حكم الدولة حكما فرديا ،

---

(١) زندگانى شاه عباس أول ، جـ ٣ ص ١٨٣ - ١٨٧

(٢) عالم آراى عباس ص : ٤٢٥ - ٤٢٧

(٣) تاريخ إيران از مغول تاافشاريه ، ص : ٣١٩

فهل معنى هذا أنه لم يستعن بوزير أو رئيس ديوان أو قائد جيش ، وأنه أشرف بنفسه على كل صغيرة أو كبيرة فى الدولة ، أم انه استعان بجهاز إدارى كامل يصرف أمور الدولة ، ولكن من خلال توجيهات الشاه وأوامره ؟ هذا ما سنعرفه من خلال الكلام عن الإدارة فى عصر الشاه عباس .

— ٥ —

الإدارة فى عصر الشاه عباس الأول(١) :

على الرغم من الحكم المطلق للشاه عباس ، فإنه كان يستعين بعدد من المعاونين من وزراء وقواد وكتاب ، وذلك لاتساع رقعة الدولة الصفوية وكثرة المهام التى يزاولها الشاه ، وانشغاله بالحروب الكثيرة ، وأهم هؤلاء المعاونين أولئك الذين كانوا يكونون مجلس البلاط ، وهم سبعة أفراد وترتيبهم حسب أهمية مناصبهم كما يلى :

أولا : اعتماد الدولة (الوزير الأعظم) وهو الشخص الثانى بعد الشاه كما أنه الرئيس الأعلى لأركان الدولة وعامة أمراء البلاط وجميع أمراء الولايات ، وهو المشرف على الأمور المالية والمتصرف فى جميع نفقات الخزانة(٢) ، ويجلس إلى يمين الشاه فى المجلس ، لذا كان يقال له أحيانا وزير

---

(١) للمزيد من التفصيلات يرجع إلى :
Tadhkirat Al-Muluk Trans, by. V.Menorsky London 1943.
وقد نشر مع الترجمة الأصل الفارسى [المجهول المؤلف]
وكذلك : إيران در زمان صفويه ، ص : ٤٠٤ - ٤١٠
وكذلك : زندگانى شاه عباس أول ، جـ ٢ ، ص : ٣٩٧ - ٤٠٧
(٢) تذكرة الملوك ص : ٨ - ٩

الميمنة ، وكان الوزير يوقع القرارات أولا ، ثم ترفع بعد ذلك للشاه لكي يعتمدها[1] .

وقد تولى هذا المنصب سبعة وزراء فى عصر الشاه عباس ، وهؤلاء الوزراء هم :

١ - ميرزا شاهولى : وكان وزيرا لمرشد قليخان قبل مقدم الشاه عباس إلى قزوين ، وعندما تم تتويج عباس فى آخر عام ٩٩٦ هـ اسندت الوزارة إلى هذا الوزير استجابة لطلب مرشد قليخان ، وظل يشغل المنصب حتى اغتيل مرشد ، فأُبعد عن الوزارة[2] .

٢ - ميرزا محمد كرمانى : وقد ساعد الشاه عباس فى القضاء على مرشد قليخان ، لذا كافأه الشاه بمنصب الوزارة ، ولكنه عزل عنه بعد حوالى ستة شهور فقط ، وتم قتله فى عام ٩٩٨ هـ ، إذ حاول تقليد مرشد قليخان فى فرض سيطرته وسلطانه ، والتصرف فى كل أمور الدولة دون الرجوع إلى الشاه عباس[3] ، كما ارتكب ابنه بعض الأعمال المستهجنة والتى أثارت الشاه ضده وضد أبيه ، فصمم على التخلص من هذا الوزير[4] .

٣ - ميرزا لطف الله الشيرازى ، وقد تقلد المنصب مدة عامين إلى أن تم عزله فى عام ١٠٠٠ هـ (١٥٩٢ م) .

٤ - حاتم بيك الأردوبارى : وتولى الوزارة عشرين عاماً ، امتدت مابين عام ١٠٠٠ هـ وعام ١٠١٩ هـ ، وقد تولى قبل الوزارة منصب مستوفى

---

(١) زندگانى شاه عباس أول ، جـ ٢ ص : ٣٩٩
(٢) نفس المرجع ونفس الصفحة
(٣) عالم آراى عباس جـ ٢ ص : ٤٠٤
(٤) ملحقات روضة الصفا ، جـ ٨ ص : ٢٥٨

الممالك وأثبت كفاءة عالية فى عمله ، مما لفت نظر الشاه إليه وعينه وزيراً له ، وقد نجح فى هذا المنصب الجديد والدليل على ذلك أنه ظل يتقلد المنصب حتى توفى ، بل إن نجاحه شجع الشاه عباس على استوزار ابنه من بعده .

٥ — ميرزا أبو طالب خان ابن حاتم بيك ، وشغل المنصب مدة عشر سنوات امتدت حتى عام ١٠٣٠ هـ ، وأخيرا عزله الشاه عباس لسوء خلقه ، وإدمانه الشراب ، وعدم توفيقه فى اختيار أصدقائه وندمائه (١) .

٦ — سلمانخان استاجلو ، وشغل المنصب مدة خمس سنوات ، امتدت بين عامى ١٠٣٠ — ١٠٣٤ هـ حيث توفى فى ذلك العام الأخير بمرض السرطان (٢) .

٧ — سلطان العلماء خليفة سلطان : وتولى الوزارة عام ١٠٣٤ هـ ، وظل يشغلها بعد وفاة الشاه عباس فى عام ١٣٠٨ هـ (١٦٢٩ م) ، حيث استوزره الشاه صفى حتى عام ١٠٤١ هـ (٣) .

* * *

ثانياً : ركن السلطنة وهو الشخص الثانى فى بلاط الشاه بعد اعتماد الدولة ورئاسة جميع طوائف القزلباش معقودة له ، وهو يتولى إدارة الحرس الخاص ويوقع على كشوف المرتبات لهذا الحرس ، ومن بين الذين تولوا هذا المنصب فى عصر الشاه عباس ، عيسى خان الصفوى رئيس طائفة شيخاوند وصهر الشاه عباس (٤) .

---

(١) زندگانى شاه عباس أول ، جـ ٢ ص : ٤٠٠

(٢) المرجع السابق ، ص : ٤٠١

(٣) تاريخ إيران از مغول تاافشاريه ، ص ٣٤١

(٤) زندگانى شاه عباس أول ، جـ ٢ . ص : ٤٠٢

ثالثا : ركن الدولة ، أى رئيس غلمان الشاه ، فقد تولى رئاسة ذلك الجيش الذى كونه الشاه عباس من خاصة غلمانه ، ومعظمهم من الكرجيين والشركس والأرمن ، وقد أنشىء هذا الجيش للقضاء على سلطان القزلباش وسطوتهم [1] وأول من تولى هذا المنصب فى عهد الشاه عباس أمان الله ورديخان .

رابعاً : كبير الياوران : وهو المسئول عن تنظيم مجلس الشاه وتحديد المكان الذى سيجلس فيه كل عضو ، وكذلك تحديد عدد الواقفين ، وكان يرأس أربعين من المشرفين على التشريفات ، ويتناوبون فيما بينهم تنظيم مجالس الشاه .

خامساً : قائد حملة البنادق ، وهو قائد الجيش الذى كونه الشاه عباس من الفلاحين ، ورعايا الولايات وأعراب خوزستان ، وقد سلح الشاه عباس هذا الجيش بالبنادق ، وكانت مهمة هذا القائد الإشراف على تدريب هذه الفرقة وإعدادها الإعـــداد الذى يسمح للشاه باستخدامهم فى إضعاف قوة القزلباش .

سادساً : رئيس الديوان : ويشرف على جميع قصور الشاه وخزائنها ، وكذلك أملاك الشاه الخاصة ، كما يعتمد ميزانية تلك القصور ويرسلها إلى اعتماد الدولة كى يوقعها ، وتصبح سارية المفعول . ومن واجباته أيضا توفير أردية الشاه الخاصة ، وكذلك الخلع التى سينعم بها الشاه طوال عام قادم على من يريد .

سابعاً : كاتب مجلس الشاه ، وهو أكثر الناس احتراما فى البلاط بعد شخص الوزير الأعظم ، لذا كان يسمى (عاليجاه مقرب الخاقان) ، وهو

---

(١) تذكرة الملوك ، ص : ١٢

يجلس إلى جوار الشاه فى المجالس الخاصة والعامة ، ويحاول الجميع كسب وده لمعرفته التامة بجميع أسرار الدولة ، ولأنه يخط بيده كل أوامر الشاه ، ومن مهام هذا الكاتب إعداد جميع أوامر الشاه وتبليغها للجميع ، وإعداد ردود الشاه على مراسلات الملوك الأجانب ، كما يتولى عرض رسائل حكام الولايات على الشاه ، وفى المجلس يجلس إلى يسار الشاه دائمـــا ، لذا كان يقال له أحيانا (وزير الميسرة) .

هذه مناصب كبار رجال الدولة فى عصر الشاه عباس ، ومنهم يتكون مجلس البلاط الذى يرأسه الشاه ، وفى بعض الأوقات كان المجلس يضم إلى جوار هؤلاء بعض شاغلى المناصب الأخرى إذا كان المجلس فى احتياج إليهم ، وأحيانا يضم المجلس بعض من يثق الشاه عباس فى رأيهم حتى ولو كانوا من غير شاغلى المناصب الإدارية فى الدولة ، فقد ورد فى الأخبار بأن عمة الشاه عباس وتدعى زينب بيـكم كانت تحضر بعض المجالس الرسمية للشاه ، وكانت المرأة الوحيدة التى يسمح لها بالحضور وإبداء الرأى . حيث كان الشاه يأخذ برأيها أحيانا (١) .

ويجدر بنا أن نشير إلى حقيقة هامة جدا تتعلق بتصريف الأمور فى عصر الشاه عباس ، وهذه الحقيقة تتمثل فى تسلط الشاه وفرديته ، فعلى الرغم من أن مجلس البلاط كان يضم كبار رجال الدولة ، فإن رأى جميع المشتركين فيه استشارى فقط وغير ملزم للشاه ، بل إن رأى الشاه هو الملزم للجميع ، ولا يجرؤ أحدهم على مناقشته ورده إذا رأى رأيا غير مايراه أعضاء المجلس ، وعلى هذا فإن جميع هؤلاء الأعضاء ماهم الا مستخدمون فى بلاط الشاه ، ومن

---

(١) شاه طهماسب صفوى ، مجموعه اسناد . . . ص ١٦

حقه أن يبقيهم ومن حقه كذلك أن يطرد أى واحد منهم ، بل ويقتله ، وقد وضح ذلك عندما ذكرت أسماء الوزراء الذين عملوا مع الشاه عباس.

وإلى جانب هذه المناصب الرسمية ، فإن الشاه عباس كان يلجأ فى تسيير أمور الدولة إلى الاعتماد على نظام التخابر والتجسس ، حيث بث عيونه ومخبريه وجواسيسه فى كل مكان لكى يخبروه بكل مايدور من أحداث فى جميع أركان إيران ، كما كان يكلف بعضهم بالتصنت على أحوال الناس وسماع شكاياتهم من الأمراء والحكام ، وقد وصل فى جمعه المعلومات إلى درجة متقدمة جدا حتى أن أحدا من الإيرانيين لم يكن يجرؤ على التحدث عن عيوب الشاه عباس مع أخلص أصدقائه ، أو حتى داخل بيته (1)

ولكن على الرغم من قسوة الشاه عباس وجبروته ، يجب علينا الاعتراف بأنه كان ناجحا فى إدارته للدولة الصفوية ، وخير دليل على هذا النجاح، مقارنة وضع الدولة الصفوية قبل عصر عباس وما كان يكتنفها من اضطراب وفوضى وفتن داخلية ؛ بوضعها تحت حكم الشاه عباس ، وما اتسمت به من تقدم وازدهار حضارى ، ووحدة بين جميع أقاليمها ، وقوة عسكرية مكنته من التصدى لجميع أعداء إيران فى الشرق والغرب وانتصاره عليهم .

— ٦ —

النشاط الاقتصادى فى عصر الشاه عباس :

كانت النقود المتداولة فى عصر الشاه عباس بعضها ذهبى ، وتسك فى المناسبات الخاصة كعيد النيروز ، أو الاحتفال بعيد ميلاد الشاه ، وكانت

(1) زندكانى شاه عباس أول ، ج ٣ ، ص ١٧٦ - ١٧٧

هذه العملة الذهبية تحفظ لدى أصحابها كتذكار ، حيث لم تكن تستعمل عادة في التعامل التجارى ، أما العملة المتداولة فكانت فضية وأشهر وحداتها ، تلك العملة المعروفة باسم « عباسى » وهى تساوى مائتى دينار ، وتوجد بعد ذلك أجزاء هذه العملة ، ومثل « نيم عباسى » أى نصف عباسى وهو يساوى مائة دينار ، ثم « شاهى » ويساوى خمسين دينارا ، وكذلك « بيستى » أى (عشرين) وهو يساوى عشرين دينارا (١)

وفى عصر الشاه عباس لم يكن هناك حدود تفصل بين الميزانية العامة وميزانية الشاه الخاصة ، بل كلاهما ميزانية واحدة ، والشاه عباس هو المتصرف والمتحكم فى توجيه مواردها النقدية والعينية وفق ما يرى ، ومصادر تمويل هذه الميزانية متعددة ، منها . (٢)

(١) العوائد التى تحصلها الدولة على الأراضى الزراعية ، وتعرف هذه العوائد باسم « الرسوم » ، وإلى جانبها فَرَضَ الشاه عباس على حكام الولايات المختلفة إمداد الشاه والخزانة العامة بنصيب من إنتاجها الزراعى أو الحيوانى ، بل البشرى كذلك ، فكانت كردستان ملزمة بتوريد جزء من زيوتها إلى العاصمة أصفهان ، وبلاد الكرج فرض عليها توريد بعض الغلمان والجوارى ، فى حين تُقدم خوزستان عددا معينا من الخيول العربية الأصيلة ، أما جيلان فلاشتهارها بجودة حريرها ، فقد فرض عليها الشاه عباس أن تقدم له جزءا من هذا الانتاج الجيد .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٥٩ .

(٢) للمزيد من التفصيلات راجع زندگانى شاه عباس أول ، ج ٣ ، ص : ٢٦٢-٢٦٦ .

(ب) العوائد التى تحصل على الأملاك الخاصة للشاه نفسه .

(ج) الضرائب على ذوى الدخول المرتفعة والملاك ، كأصحاب قطعان الماشية ، والحرفيين ، ومنها العوائد المفروضة على منتجى الحرير ، وقد فرض عليهم تقديم ثلث إنتاجهم للدولة .

(د) الجزية المفروضـــة على غير المسلمين من الشركس والأرمن ، والكرجيين وغيرهم ممن يدينون بالمسيحية أو اليهودية أو الزردشتية .

(هـ) حصيلة الجمارك التى تُحصل فى الموانى الإيرانية المطلة على الخليج العربى ، حيث كان الشاه عباس يُحصل جمارك تعادل عشرة فى المائة من أثمان الواردات إلى إيران .

(و) ضريبة التبغ ، وكانت تدر مبلغا كبيرا على الخزانة العامة ، حيث كان استعمال التبغ منتشرا بدرجة كبيرة ، أدت إلى أن الشاه أصدر فى عام ١٠٢٧ هـ أمرا بتحريمه خوفا على صحة مواطنيه . ولكنه عاد وسمح باستعماله بعد ذلك .

وذكر المؤرخون بأن الدخل اليومى للخزانة كان حوالى ألف ومائتى تومان ، فى حين كان الانفاق اليومى حوالى ألف تومان [١] ، ومعنى هذا أن الميزانية كانت تنعم بوجود فائض كبير سمح للشاه عباس بإحداث نهضة عمرانية فى أصفهان وغيرها من مدن دولته ، وأتاح له القيام بحروب متصلة فى الشرق والغرب ، كما سمح له بتبادل الهدايا والتحف مع ملوك أوربا والهند .

أما عن الأنشطة الاقتصادية فى عصر الشاه عباس، فكانت تتمثل أهمها فى ثلاثة أنشطة، هى النشاط التجارى والنشاط الزراعى والنشاط الصناعى ، ويجدر

---

(١) المرجع السابق ، ص : ٢٦٨

بنا أن نتناول كل نشاط باختصار ، لنتعرف على مجهودات الشاه عباس في كل منها .

أولا : النشاط التجارى .

حرص الشاه عباس على تحقيق الانفتاح التجارى لبلاده على العالم شرقه وغربه، كما حرص على أن يجعل من أصفهان العاصمة مركزا تجاريا هاما فى الشرق يفد إليه التجار من جميع أنحاء العالم(١) ، لذا نجده يدخل فى صفقات تجارية مع الجميع ، حيث وصل النشاط التجارى الخارجى حتى الصين والهند شرقا ، وممالك أوربا المختلفة غربا(٢) ، ولكى تفلح مساعيه فى تحقيق انفتاح تجارى أخذ يدعو تجار العالم إلى زيارة إيران ، ويبذل كل مساعيه لتشجيع هؤلاء التجار على التبادل التجارى مع التجار الإيرانيين ، ولكى يطمئن تجار أوربا المسيحيين إلى نواياه الصادقة قدم لهم الضمانات الكافية والمشجعة ، ومن هذه الضمانات(٣) :

(ا) أصدر أوامره المشددة إلى جميع حكام الأقاليم بعدم التعرض للتجار الأجانب متى وفدوا إلى إيران ، والسماح لهم بالتجول بحرية فى جميع أرجاء إيران ، وقد ذكرت أن من أسباب قضائه على حكومة لار المستقلة ذاتياً ، اعتداء حاكمها ابراهيم خان على أحد التجار الأجانب وسلبه أمواله .

(ب) السماح لهؤلاء التجار الأجانب بالسلوك حسب عاداتهم وتقاليدهم الخاصة ، دون إلزامهم بمراعاة العادات والتقاليد الإيرانية .

---

(١) إيران در زمان صفويه ، ص : ٥٥

(٢) تاريخ إيران از مغول تا افشاريه ، ص : ٣٤٠

.History of Persia Vol II p.177 (3)

(ج) إصدار الأوامر المشددة لرجال الدين الشيعى بعدم التعرض لهؤلاء التجار الأجانب وكلهم ـ تقريبا ـ مسيحيون ، وأن يسمح لهم بإقامة شعائر ديانتهم ، وكان متشددا فى ذلك الأمر ، حتى أن رجال الدين الشيعى أحسنوا معاملة هؤلاء المسيحيين بطريقة تفضل بكثير معاملتهم للرعايا الايرانيين الذين يتبعون المذهب السنى .

ومن الوسائل التى لجـأ إليها الشاه عباس لتشجيع التبادل التجارى كذلك حرصه على أن تكون مفاوضات جميع رسله إلى أوربا تشمل الى جانب التعاون السياسى والعسكرى ، التباحث فى التعاون التجارى وتبادل البضائع بين إيران وبين الدول التى يزورها هولاء المبعوثون ، فعندما سافر أنتونى شرلى وحسينعلى بيك بيات الى أوربا ، عقدا معاهدات تجارية لبيع الحرير الإيرانى إلى الدول التى زاراها[1] .

وتشجيعا للنشاط التجارى وتسهيله وتأمينه ، اهتم الشاه عباس بإنشاء الطرق وتعبيدها ، ومنها طريق مازندران الساحلى ليربط مناطق بحر الخزر شرقيها بغربيها ،[2] كما أنشأ النزل لتقديم جميع احتياجات التجار والمسافرين من طعام وجياد وأماكن للمبيت ، كما زودت هذه النزل والأربطة بالقوات الخاصة بحراستها وحراسة الطرق وتأمينها ضد قطاع الطرق .

ونظراً للمكانة العظيمة التى حظيت بها التجارة فى عصر الشاه عباس الأول ، ونتيجة لازدهار التبادل التجارى بين إيران ودول العالم الخارجى ،

---

(١) نصر الله فلسفى . تاريخ روابط إيران وأوربا در دوره صفويه ، قسمت أول. طهران ١٣١٦ ش ص : ٢١
(٢) لغت نامه ، شمارة ٧٦ ، ص : ٤٣ .

نجد الشاه عباس يهتم بموانى إيران المطلة على الخليج العربى ، ويقوم ببناء ميناء (بندر عباس) ليحل محل ميناء كمبرون الذى فقد مكانته بعد طرد القوات البرتغالية منه ، (١) وقد ازدهرت موانى الخليج فى فترة حكم الشاه عباس ، حيث حرصت الشركات التجارية الأجنبية على إقامة دور تجارية لها فى هذه الموانى وفى غيرها من مدن إيران المختلفة ، فقد أنشأت كل من شركة الهند الشرقية الإنجليزية وشركة الهند الشرقية الهولندية دورا تجارية لها فى بندر عباس وأصفهان وشيراز . ولاشك أن اهتمام الشركات الاحتكارية بمنطقة الخليج جلب الكثير من الكوارث بعد ذلك إلى جميع البلاد المطلة على هذا الخليج العربى ، حيث فتح الشاه عباس لبعض هذه الشركات الباب للتواجد فى المنطقة ، ومن بعده لم يوجد فى إيران ولا فى البلاد العربية المطلة على الخليج الشخصية السياسية التى توقف هذه الشركات عند حد التعامل التجارى ، فانقلب وجودها الى استعمار أوربى سيطر على معظم البلاد المطلة على الخليج من جهتيه العربية والإيرانية .

وتجارة إيران الخارجية كانت تعتمد بالدرجة الأولى على بيع الحرير الإيرانى ذى الشهرة العريضة فى أوربا ، ونظراً لأهمية الاتجار فى الحرير بالنسبة لإيران وجدنا الشاه عباس يحتكر هذه التجارة لنفسه ، فكان يشرف على جميع عمليات تسويقه ويحقق لنفسه الأرباح الطائلة من وراء هذه التجارة (٢)

وكانت قوافل تجارة الحرير تتخذ أكثر من طريق إلى أوربا ، منها الطريق البرى عبر العراق والشام (وكلاهما خاضع للدولة العثمانية) ، ومن الشام

---

(١) لورانس ليكهارت : انقراض سلسلهٔ صفويه وأيام استيلاء افاغنة در ايران ، ترجمهٔ مصطفى قلى عماد ، طهران ١٣٤٣ ش ، ض : ٤١٤

(٢) Hisrory of Persia, Vol II P- 189

تنقل بحرا إلى موانى أوربا ، وكانت الدولة العثمانية تحصّل من هذه القوافل رسوم عبور للمرور عبر أراضيها ، وهناك طريق آخر بحرى ؛ حيث يرسل الحرير إلى ميناء هرمز فى جنوب الخليج ، وتأتى السفن الأوربية فتحمله ، وتتوجه به إما صوب الهند ، وإما صوب أوربا عن طريق رأس الرجاء الصالح . وكان هناك طريق ثالث ، حيث تسلك القوافل طريقا بريا عبر الأراضى الروسية ومنها إلى عواصم أوربا . (١)

والملاحظ أن الشاه عباس كان حريصا على تصدير الحرير عن طريق موانى الخليج وذلك لكثرة الحروب بينه وبين الدولة العثمانية ، وعدم رغبته فى دفع رسوم عبورٍ لهذه الدولة المعادية ، (٢) ولكن هذه الرغبة اصطدمت بمشكلة أخرى تمثلت فى جشع البرتغاليين المسيطرين على حركة الملاحة فى الخليج العربى باحتلالهم لجزيرة هرمز وأجزاء أخرى من سواحل الخليج ، فقد حرص هؤلاء البرتغاليون منذ مجيئهم إلى هذه المنطقة أيام حكم الشاه اساعيل الأول على احتكار التجارة فى المنطقة ، وعدم السماح بتصدير الحرير الإيرانى إلى الهند أو أوربا إلا عن طريقهم (٣) وقد أدى مسلكهم هذا الى ضيق الشاه بهم ومحاولته التخلص منهم عن طريق التآمر مع مندوبى شركة الهند الشرقية الإنجليزية لطردهم من المنطقة ، وبخاصة أن الشاه عباس كان حريصا على إيجاد منافسة بين تجار عديدين فى كل البلاد الأوربية ، وستؤدى هذه المنافسة الى رفع قيمة الحرير الإيرانى . وقد نجح الشاه عباس فى تحرير تجارة الحرير من احتكار البرتغاليين وبيعه لأى مشتر يدفع السعر الذى يحدده الشاه عباس .

---

(١) إيران درزمان صفويه ، ص ١١٧

(2) History of Persia, Vol II P. 189

(٣) إيران درزمان صفويه ، ص : ١١٧

وهكذا نلاحظ أن الانفتاح التجارى فى عصر الشاه عباس ، كان نافذة أطلت منها إيران على العالم ، وجعل أصفهان تعج بالتجار الأجانب فى كل بلاد العالم ، وقد وفر لها هذا الانفتاح ازدهارا اقتصاديا وعمرانيا لم تشهد له مثيل فى أى عصر آخر من عصور وجودها سواء قبل عصر الشاه عباس أوسواء بعدعصره ، ونتيجة لهذا الازدهار أطلق البعض عليها عباره(أصفهان نصف الدنيا) .

ثانيا : النشاط الزراعى :

كانت الأراضى الزراعية فى عصر الشاه عباس مقسمة الى أربعة أقسام[1]

ا — أراضى الإيالات والولايات ، ويشرف عليها حكام الأقاليم ، ويقومون بتوزيعها على من يرعبون من رعيتهم وأتباعهم ، وهذه الأراضى تمثل أكبر نسبة بين أراضى إيران الصالحة للزراعة .

ب — الأملاك الخاصة بالشاه عباس ، ودخل هذه الأراضى يؤول الى خزانة الشاه الخاصة ، وإن كان الشاه يقدم بعضا منها لأفراد حاشيته وكبار قواده .

ج — أراضى الأوقاف الخيرية ، وهى الأراضى التى أوقفها أصحابها على المؤسسات الدينية والأماكن المقدسة ، وقد يكون الواقف لهذه الأراضى الشاه نفسه ، أو أحد أفراد الرعية .

د — أراضى عامة الشعب ، وهى نسبة ضئيلة لاتكاد تذكر بالنسبة للأراضى الأخرى وهى التى كان الشاه عباس يمنحها للمواطنين فى صورة

(١) زندگانى شاه عباس أول ، جـ ٣ ، ص : ٢٧٠ .

إيجار رمزى مدته تسع وتسعون سنة ، وبعد انقضاء المدة تعود الأرض إلى حاكم الإقليم الذى يعيد توزيعها من جديد إما على مستغلها الأول ، أو على منتفع جديد .

ومما لاشك فيه أن عدد العاملين بالزراعة كان يفوق عدد العاملين فى أى مهنة أخرى : وذكر بعض السائحين الأوربيين - ومنهم شاردن الفرنسى أن الفلاحين الإيرانيين على الرغم من حرمانهم التقريبى من ملكية الأراضى التى يزرعونها ، إلا أنهم كانوا فى عصر الشاه عباس وعصر من خلفوه من حكام الدولة الصفوية ، يعيشون حياة رغدة تفوق معيشة أقرانهم فى أوربا . (١)

ونلاحظ من خلال هذا التقسيم للأراضى فى عصر الشاه عباس ، أن الشاه كان يملك مساحات كبيرة من الأراضى الزراعية ، كما أن سلطانه فى هذا الأمر لايعرف الحدود والقيود ، حيث كان فى مقدوره ضم أى أراض إلى ملكيته الخاصة وقد حدث هذا على سبيل المثال ، عندما كان يأمر بضم أملاك قواد القزلباش الذين فتك بهم ، ومنهم مرشد قليخان ، إلى ملكيته الخاصه(٢) كما أصدر أوامره بامتلاك جميع أراضى الشاه طهماسب الأول فى منطقه أصفهان ، التى كانت فى حوزة أخيه حمزة ميرزا ، ومن بعده أخوه أبو طالب ميرزا (٣)

---

(١) ايران در زمان صفويه ، ص : ٣٨٢ .
(٢) ملحقات تاريخ روضه الصفا جـ ٨ ، ص٢٥٢ .
(٣) زندگانى شاه عباس أول ، جـ ٣ ، ص : ٢٧٩

ثالثاً : النشاط الصناعى .

من أهم الصناعات الحديثة الظهور فى عصر الشاه عباس ، صناعة الأسلحة النارية [1] فقد انتهز الشاه عباس فرصة مقدم البعثة الإنجليزية بقيادة الأخوين شرلى ، وتباحث معهم على تطوير قواته المسلحة ، فأشاروا عليه بإنشاء مصنع لإنتاج الأسلحة، وأنهم على دراية بهذا الأمر ومستعدون للمساعدة فى إنجاح هذه الصناعة فى إيران ، فرحب الشاه عباس بهذا الرأى، وأنشأ المصانع التى أمدت جيشه بستين ألف بنــــدقية ، وخمسمائة عربة مدفع [2] ، وقد ساعدته هذه المعدات فى التصدى للدولة العثمانية ومحاولة الانتصار عليها .

ومن الصناعات الهامة التى ازدهرت فى عصر الشاه عباس كذلك ، صناعة النسيج وبخاصة فى مدينة أصفهان ، حيث اختص الشاه مصانع العاصمة بإنتاج المنسوجات التى يهديها إلى ملوك أوربا وعظماء دولته ، وأدى هذا الأمر إلى خلق المنافسة بين مصانع العاصمة لتقديم الأجود [3] .

كما اهتم الشاه عباس بصناعة السجاد ، حيث أنشأ مكتباً خاصا يتولى إدخال الخيوط الذهبية والفضية والحريرية فى صناعة السجاد ، كما أن أمر بصناعة سجاجيد حريرية تستعمل فى قصوره الخاصة ، أو ليقدمها هدايا لملوك أوربا ، وقد أحرز هذا السجاد المصنوع من الحرير شهرة فائقة ، أدت إلى أن أحد ملوك بولندا المعاصرين للشاه عباس أرسل بعض التجار ليشتروا له عدة سجاجيد حريرية ليزين بها قصره [4] .

---

(١) لغت نامه ، شماره ٧٦ ص : ٤٣

(٢) تاريخ أيران از مغول تا افشاريه ، ص : ٣٢١ .

(٣) إيران در زمان صفويه ، ص : ٢٨٥ .

(٤) المرجع السابق ، ص : ٢٩٦ .

ومن الصناعات التي يرجع الفضل في انتشارها في العصر الصفوى إلى الشاه عباس ، صناعة الزجاج والأوانى الفخارية ، فقد استدعى إلى ايران العمال المهرة فى صناعة الزجاج ، وأشرفوا على إقامة مصانع لإنتاجه فى شيراز ، وأصفهان وغيرهما من المدن الإيرانية ، كما أحضر بعض الصينيين المهرة فى صناعة الفخار وتطويره وعهد إليهم بمهمة الارتقاء بهذه الصناعة فى إيران .

وهكذا وجدنا الشاه عباس مهتما بالصناعة ، وأفاد من الانفتاح الاقتصادى لكى يطور الصناعة القائمة ، أو ليقيم صناعات جديدة لم تكن معروفة فى إيران قبل عصره . مما أدى إلى رواج فى حياة الصناع ، وارتقاء لمستواهم الفنى نتيجة اختلاطهم بالفنيين القادمين من أوربا والهند والصين ، وظهر أثر ذلك فيما خلفوه لنا من صناعات وآثار مازال بعضها باقيا فى العاصمة أصفهان ، وفى متاحف إيران والعالم .

* * *

وهكذا استطاع الشاه عباس بعد أن أعاد الاستقرار السياسى ، تحقيق الرواج الاقتصادى فى الدولة الصفوية بعد فترة سادها الاضطراب والانحطاط أيام حكم أبيه السلطان محمد خدابنده ، وقد أفاد خلفاء عباس من هذا الرواج وإن لم يستطعوا الوصول إلى درجة الازدهار التى وصل إليها الشاه عباس ، حيث كان عصره شبيها بواحة من الازدهار وسط صحراء من الاضطرابات والانحطاط السياسى والاقتصادى .

سياسة الشاه عباس مع عامة الشعب ، ورجال القبائل :

أولا : مع عامة الشعب :

يقول الإيرانيون إنه على الرغم من اتسام سياسة الشاه عباس بالقسوة والغلظة مع رؤساء طوائف القزلباش وحكام الولايات والقواد ، فإنه كان براً عطوفا فى علاقاته بعامة الناس وكادحيهم ، وحريصا على الأخذ بأيديهم والتخفيف عن كواهلهم ، ومساندتهم ومناصرتهم ضد أى حاكم إقليم يريد فرض سلطانه عليهم ، بل إنه كان فى سفرياته يسأل سكان الأقاليم التى يمر بها عن مسلك حكامهم معهم ، فإن أشتكى أهل إقليم من مسلك حاكمهم ، عزله على الفور وأمر بمحاكمته[1] . ولهذا حرص الحكام على تنفيذ جميع المهام التى كان الشاه عباس يكلفهم للقيام بها لخدمة جماهير ولاياتهم، وإلا تعرض للعقاب من جانب الشاه .

كما أن حالة الاستقرار السياسى التى نعمت بها إيران خلال عصر الشاه عباس أتاحت الفرصة لوجود مرحلة من التقدم والازدهار فى جميع المجالات ، فأفادت العامة من هذا الازدهار ، وكان أكثر المستفيدين العاملون فى مجال التجارة ، حيث كانت إيران فى عصره تتاجر مع الشرق والغرب . وكانت أصفهان تعج بالتجار الأجانب الوافدين من كل مكان ، كل هذا أدى الى تمتع طبقة التجار بحياة رغدة ، ودخول مرتفعة لم تتحقق لهم قبل هذا العصر وساعدهم على ذلك تشجيع الشاه عباس لهم وتقديم المساعدات لمن يحتاجها

---

(١) زندگانى شاه عباس أول جـ٣ ، ص : ٢٤٣ .

منهم ، لدرجة أنه كان يقدم رأسمال جديد لكل تاجر انتكست تجارته ، وأتاح للتاجر المقترض أن يسدد ديونه على أقساط ميسرة ، وإن كان الشاه عباس يتنازل فى حالات كثيرة عن هذه الأقساط[1] .

كما أن اهتمام الشاه عباس بالتصنيع وإنشاء مصانع جديدة ، وتدريب العمال على هذه الصناعات ، ساعد على الارتقاء بطبقة الصناع والحرفيين ، وزاد من دخولهم ، وقد أدى رواج حالهم إلى تكوينهم نقابات وتشكيلات تتولى الحفاظ على حقوقهم والدفاع عن مصالحهم[2] .

وشارك الفلاحون فى جنى ثمار ذلك الرواج والازدهار السياسى والاقتصادى الذى ساد البلاد فى عصر الشاه عباس ، حيث كان الشاه حريصا على حمايتهم من كل طغيان ، وكان يجود بالماشية والأرض على من جار عليه الزمن منهم ، كما كان الشاه يوقف بعض أراضيه لصالحهم ، وقد حدث هذا بعد انتصاره على العثمانيين فى معركة شماخى فى عام ١٠١٦هـ[3] .

وتعاطفا من الشاه عباس مع عامة الشعب ، نجده يصدر أوامره بأن تتحمل الميزانية العامة كل ما ينجم عن الحرب من خسائر[4] ، بمعنى أن تقوم الدولة بتعويض الناس عما أصابهم فى ممتلكاتهم من ويلات الحروب العديدة التى تمت بين الشاه عباس وبين أعداء دولته فى المشرق والمغرب . ولاشك أن هذا القرار سيشجع عامة الناس على خوض المعارك وتأييد الشاه عباس فى سياسته الحربية ، مادامت الخزانة العامة ستتكفل بتعويضهم ، ولن يضاروا

---

(١) المرجع السابق جـ٢ ، ٣٦٧ .
(٢) ايران در زمان صفويه ص : ٣٨١ .
(٣) ملحقات تاريخ روضة الصفا ، جـ٨ ، ص : ٣٩٠ .
(٤) زندگانى شاه عباس أول ، جـ٢ ص : ٣٦٩ .

هم فى أرزاقهم وممتلكاتهم وهذا التشجيع له أثره على مواصلة الشاه عباس لخوض المعارك دون تبرم من شعب أو ضجر مهما تعددت الحروب وكثرت ويلاتها .

ومن الأعمال التى كان الشاه عباس يتقرب بها من العامة ، حرصه على إطعام زوار الأماكن المقدسة والمزارات الشيعية ، وبخاصة زوار العتبة الرضية فى مشهد ، وزوار قبر الشيخ صفى الدين جد الأسرة الصفوية فى أردبيل ، فكان يأمر بتقديم الطعام لهؤلاء الزوار طوال العام لا فى شهر رمضان المبارك فقط ، كما كان يصرف لبعضهم نقوداً كذلك[1] .

وهكذا كان الشاه عباس عطوفا مع طبقات الشعب الكادحة ، حريصاً على الأخذ بأيديهم ضد الفاقة ، ومصائب الزمان . وهذا العطف دفع البعض للقول بأن الشاه عباس فى عطفه هذا وعدله يعد أنوشيروان الثانى[2] .

وفى رأيى أن الشاه عباس كان يلجأ إلى هذا التعاطف خدمة لأهدافه ومصالحه؛فحرصه على التخلص من رؤساء طوائف القزلباش والقواد والحكام كان يُلزمه بالبحث عن جبهة أخرى يستند إليها وتؤازره . فكانت هذه

---

(١) المرجع السابق ص : ٣٧٠ .

(٢) تاريخ ايران از مغول تا افشاريه ، ص ٣٤٠ ، وأنو شيروان هو : كسرى أنو شيروان الملقب بالعادل ، الحاكم العشرون من حكام الدولة الساسانية التى حكمت إيران قبل الإسلام ، وقد تولى بعد أبيه قباد الذى شجع ديانة مزدك مماسبب اضطراب الأحوال السياسية والاجتماعية فى إيران ، وماأن تولى أنو شيروان حتى قضى على المزدكية وقتل الكثيرين من أتباعها ، وأعاد لإيران الأمن والطمأنينة وحكم بين الناس بالعدل ، فأحبه الجميع وأطلقوا عليه لقب « العادل » ، وكان مولد محمد عليه السلام فى أواخر سنى حكمـــه . انظر : الكرديزى : زين الأخبار ، ص ٣١ - ٣٣ ، تهران ١٣٤٧ ش .

الجبهة عامة الشعب والجماهير الكادحة ؛ وهم الذين اعتمد عليهم فى تكوين جيوشه الجديدة التى مكنته من التخلص من سيطرة القزلباش ؛ وهم الذين التفوا حوله نتيجة عطفه عليهم ؛ وواصلوا الحروب فى الشرق والغرب وحققوا جميع الانتصارات التى مجدت الشاه عباس فى تاريخ إيران بعد ذلك .

. . .

ثانياً : مع القبائل والطوائف المختلفة :

أما معاملته للقبائل والطوائف القاطنة أرض إيران والخاضعة للحكم الصفوى فكانت خاضعة لظروف كل قبيلة وطائفة ، ومدى حرصها على التبعية للتاج الصفوى ، ومدى خضوعها للشاه عباس وامتثالها لأوامره ونواهيه ، ولكى نتفهم هذه المعاملة يجمل بنا أن نتحدث عن مسلكه مع مجموعتين من هذه القبائل والطوائف ؛ إحداها قبائل الأكراد السنية ، وثانيهما جماعات الأرمن المسيحية

القبائل الكردية تقطن المناطق الشمالية الغربية من آذربايجان ومنطقة كردستان لذا فهم يجاورون الحدود العثمانية ، ويتبعون مذهبها السنى ، مما أوجد نوعا من التعاطف بينهم وبين العثمانيين . وقد كانوا يعلنون تبعيتهم للدولة الصفوية أيام حكم الشاه اسماعيل الأول والشاه طهماسب ، ولكن عندما اجتاحت الاضطرابات الدولة الصفوية أيام حكم الشاه اسماعيل الثانى والسلطان محمد خدابنده ، واستطاعت الدولة العثمانية احتلال أجزاء كبيرة من آذربايجان ، أعلن هؤلاء الأكراد تعاطفهم مع العثمانيين رفقاء المذهب السنى ، وعندما تولى الشاه عباس الحكم واستطاع طرد العثمانيين من مناطق

آذربايجان ، صمم على الانتقام من هؤلاء الأكراد السنيين وتشريدهم متى سنحت الفرصة لذلك .

وفى عام ١٠١٣ هـ حدثت فتنة كردية ضد حكامهم الصفويين . أدت إلى استيلاء الأكراد من قبيلة مكرى على بعض القلاع الحصينة فى منطقتهم ، ومنها قلعتا پسك وماكو[١] ، فأمر الشاه عباس جنوده بالتحرك صوب المنطقة الثائرة والاستيلاء على القلاع الحصينة بها ، والتى يحتمى بها الثائرون ، والبطش بضراوة وقسوة بهؤلاء الأكراد ، فتقدم الجيش الصفوى وحطم قلاع الأكراد وأشاع فيهم القتل والتشريد حتى أصبح الرجال طعمة للسيوف ووقعت النسوة والصبية فى ذل الأسر[٢] .

وقد حاول الأكراد المكريون استعطاف الشاه عباس بعد أن أمّنهم على حياتهم ، وتقدم زعيمهم قباد خان ومعه مائة وخمسون فارس إلى الشاه عباس الموجود فى مراغة فى ذاك الوقت . وذلك لإظهار خضوعهم وتقديم فروض الطاعة للشاه ، ولكن ما أن وصلوا إلى بلاطه حتى فتك بهم جميعاً[٣] .

ولم يكتف الشاه عباس بالتنكيل بهم فى ديارهم ، وإنما أقدم على اتخاذ خطوة أشد قسوة ، وهى تهجير عدد كبير منهم بالقوة إلى مناطق أخرى ، ليفقدوا الحماس للأرض التى يعيشون عليها ، فتخبو نار ثورتهم ، ويعيشون فى

---

(١) ملحقات تاريخ روضة الصفا ، جـ٨ ، ص : ٣٧٢ - ٣٧٣ .
(٢) عالم آراى عباس ص ٥٧٥ .
(٣) محمد أمين زكى خلاصة تاريخ الكرد وكردستان من أقدم العصور التاريخية حتى الآن ، ترجمة : محمد علـى عونى . القاهرة ١٩٣٦ م ، ص : ٢٠٧ ، ٢٠٨ :

ذل الغربة والاستكانة ، فقد أمر بنقل خمسة عشر ألف أسرة كردية ، ومعهم كل أمتعتهم ووسائل معيشتهم وقطعان ماشيتهم من كردستان إلى شرق خراسان ، ليكونوا فاصلا بشريا بين الإيرانيين وبين الأوزبك فيما وراء النهر[1] ؛ ولعله أراد بهذا الإجراء أن يجعل من هؤلاء الأكراد السنيين أول من يتلقون ضربات الأوزبك السنيين ، وبذا يتخلص من كليهما معا ويستريح من فتن الأكراد فى إيران ومن أى هجوم أوزبكى مفاجىء على حدوده الشرقية

ولم يكتف الشاه عباس بما فعله معهم حتى الآن بل فرض عليهم ضرائب باهظة ، ووضعهم تحت رقابة صارمة ، وحكم حديدى ، كى لا يتيح لهم أى فرصة للخروج عليه ومعاودة الثورة ضده .

هكذا عامل الشاه عباس الأكراد السنيين بقسوة بالغة وعنف شديد ، وعلى النقيض من ذلك كانت معاملته للأرمن المسيحيين ، حيث كان بهم براعطوفا ، وحرص على التقرب منهم والتودد إليهم ، حتى أنه كون جيشا جديدا عماده أبناء الطوائف المسيحية القاطنة إيران ومنهم الأرمن والشركس والكرجيين . كما أن الشاه عباس لجأ إلى تهجيرهم ، ولكن بغرض حمايتهم لا بهدف تشريدهم كما فعل مع الأكراد ، فعندما عاودت الدولة العثمانية هجومها على آذربايجان فى عام ١٠١٣ هـ ، أصدر الشاه عباس أوامره بتهجير سكان أرمينيا من ديارهم وإحراق كل المزروعات ، فعل ذلك حتى يؤمن الأرمن من أخطار الحرب ، وحتى لا يجد العثمانيون ما يقتاتون به إذا دخلوا تلك الديار ، وقيل إن عدد الأرمن الذين هُجِّروا كان حوالى ستين ألف شخص ، ووزعهم الشاه عباس على ولايات إيران المختلفة . وأنزل بعضهم ضاحية جديدة بنيت

---

(١) History. of Persia Vol II, p·174.

والمرجع السابق ص : ٢١١ .

من أجلهم بجوار العاصمة أصفهان ، وعرفت باسم « جلفا » وهو نفس اسم عاصمتهم التى هجروها فى آذربايجان . وقد زود الشاه عباس الضاحية الجديدة بكل مايلزم المهاجرون الجدد ، وبنى لهم فيها كنيسة كبيرة (١) .

ولاشك أن الشاه عباس أحسن معاملة الأرمن أملا فى خطب ود الدول المسيحية الأوربية ، ورغبة فى التحالف معها ضد العدو المشترك وهو الدولة العثمانية ، كما أراد الإفادة من هؤلاء الأرمن المهجرين إلى أصفهان فى تنشيط التجارة الإيرانية وبخاصة الحرير (٢) ، حيث كانوا ذوى مهارة فى التجارة فرغب فى أن يستشيرهم فى مشروعاته التجارية وأن يعهد إليهم بتسويق الحرير الإيرانى الذى يمتلك بمفرده حق بيعه خارج إيران .

والحديث عن سوء معاملة الشاه عباس للأكراد السنيين وحسن معاملته للأرمن المسيحيين يقودنا إلى الحديث عن سياسته المذهبية وتعامله مع أصحاب المذاهب الأخرى والديانات المختلفة .

—٨—

٨ — سياسة الشاه عباس المذهبية

أولا : تدعيمه للمذهب الشيعي :

كان الشاه عباس شديد التعلق بالمذهب الشيعي . حريصا على إرساء دعائمه ، وقد بذل قصارى جهده فى ترويج المذهب الإثنى عشرى الشيعى ، ومن مظاهر هذا الاهتمام الزائد حرصه على الاحتفال بكل المناسبات الشيعية مثل أعياد ميلاد جميع أئمة الشيعة ، وكذلك إقامة العزاء فى ذكرى وفاتهم

---

(١) زندگانى شاه عباس أول ، جـ٣ . ص : ١٨٨ .

(٢) إنقراض سلسلة صفويه ، ص : ٥٣٩ .

أو استشهادهم، فقد كان يقيم فى كل عام مراسم العزاء فى اليوم التاسع عشر حتى السابع والعشرين من شهر رمضان بمناسبة استشهاد أمير المؤمنين على بن أبى طالب، كما كان يقيم مراسم العزاء فى الأيام العشرة الأولى من محرم وفى ليلة عاشوراء.[1]

ومن مظاهر اهتمامه كذلك إبقاؤه على صيغة الآذان التى استنها جده الشاه اسماعيل الأول، وهذه الصيغه تضيف إلى الصيغه الإسلامية المألوفة فى البلاد السنية المذهب، عبارتى: أشهد أن عليا ولى الله، وحى على خير العمل[2].

وكان الشاه عباس حريصا كذلك على الإكثار من زيارة أضرحة مشايخ الشيعة وأئمتهم، والقيام بخدمتها، فكان يزور ضريح جده الشيخ صفى الدين فى أردبيل، كما أكثر من زيارة ضريح الإمام الرضا فى مشهد، وقد زار هذا الضريح ذات مرة سيرا على الأقدام من اصفهان إلى مشهد (١٣٣٣ كم) وذلك وفاء لنذر غير معروف، وقد بدأ الرحلة يوم الخميس الخامس عشر من جمادى الأولى عام ١٠١٠ هـ، ووصل إلى مشهد فى الرابع عشر من جمادى الأخرة من نفس العام، وقضى هناك ثلاثة أشهر يقوم بالخدمة، ويعلق رضا قليخان هدايت على هذه الرحلة بقوله:

يدرك علماء التاريخ أنه لا يوجد حاكم سلك مثل هذا الطريق الذى سلكه الشاه عباس، وإذا كان هرقل قد سار من القسطنطينية إلى بيت المقدس فقد فرشوا له أرض الطريق بالورود والرياحين. فى حين سلك الشاه عباس

---

(١) زندگانى شاه عباس أول، جـ٣، ص: ٦.

(٢) لغت نامه، شماره: ٧٦ ص: ٤٢.

الطريق على الحصى والرمال دون أن يعبد أو يمهد . وقد آثر أن يسير حافى القدمين : [1]

وبعد أن تمكن من فتح بغداد عام ١٠٣٢ هـ . واستولى على العتبات المقدسة لدى الشيعة والموجودة فى كل من كربلاء والنجف والكوفة ، نجده يسارع بزيارتها [2] . بعد أن كان يتوق لذلك منذ تولى الحكم . ولكنه لم يتمكن من القيام بمثل تلك الزيارة لخضوع تلك المزارات تحت حكم الدولة العثمانية . وقد ذكر البعض بأنه قضى عشرة أيام فى ضريح على بن أبى طالب فى النجف ، حيث قام بخدمة زواره وبكنس أرض المقبرة [3] .

وإمعانا فى إعلان تبعيته لآل على بن أبى طالب،وتمسكه بالمذهب الشيعى لقب نفسه بـ (كلب عتبة على) أو(كلب عتبة الولاية). ونقش هذا اللقب على خاتمه لكى يستعمله فى المراسلات الرسمية [4]

ولكن على الرغم من شدة تعصبه المذهبي فقد حرص على التقليل من نفوذ رجال الدين وكف أيديهم عن التدخل في شئون الدولة الصفوية السياسة والحربية والقضاء على تظاهر بعضهم[5] . لدرجة أنه أعلن مراراً كراهيته للحية واتخاذها وسيلة للخداع والنفاق ولعله حرص على التصدي لنفوذ رجال الدين نتيجة للفوضى التي اجتاحت النواحي المذهبية خلال حكم أبيه السلطان محمد خدابنده حيث أهمل بعضهم الاهتمام بالأمور الدينية

---

(١) ملحقات تاريخ روضة الصفا ، حـ٨ ، ص : ٣٣١ .

(٢) تاريخ ايران از مغول تا افشاريه ، ص : ٣٣٦ .

(٣) زندگانى شاه عباس أول ، حـ٣ ، ص : ١٩ .

(٤) المرجع السابق ص : ١٧ .

(٥) انقراض صفويه (لكهارت) ، ص : ٢٦ .

وحرصوا على التسلط والمكسب المادى والتدخل فى كل صغيرة وكبيرة فى الدولة ؛ مستغلين فى ذلك ضعف السلطان خدابنده ، وعدم قدرته على إيقافهم عند حد الإشراف على مسائل الدين ، وترك أمور الدولة للوزراء والقواد وغيرهم ممن يشغلون المناصب الإدارية، وقد نجح الشاه عباس فى كف أيدى الأئمة ورجال الدين عن التدخل فيما لا يعنيهم من أمور الدولة. إذ أن حرصه على الانفراد بالحكم لن يجعله يعطى لرجال الدين الفرصة للتدخل والحكم . كما لا يعقل أن يقضى على نفوذ رجال القزلباش ، ويترك لرجال الدين الفرصة لمناوأته أو حتى مشاركته الحكم .

ثانيا : موقفه من الفتن المذهبية . . . .

إن حرص الشاه عباس الشديد على نصرة المذهب الشيعى ، دفعه للبطاش بجميع المذاهب الباطلة ، والفتن الدينية التى ظهرت فى عصره ، وتُمثل فى انتشارها خطرا على المذهب الإثنى عشرى . ومن هذه الفتن، فتنة النقطويين .

ينسب المذهب النقطوى إلى أحد سكان جيلان ويدعى « محمود نامى » — يبدو أنه بدأ يدعو إلى مذهبه فى عام ٨٠٠ هـ — وتدور دعوته المذهبية على أساس أن ظهور وخلق كل شيء كان من التراب ، والتراب ليس إلا نقطة ، ولذا عرفت دعوته باسم (النقطوية)[(١)] .

وقد تعرضت هذه الدعوة للتنكيل من قبل الشاه طهماسب الأول (٩٣٠ — ٩٨٤ هـ = ١٥٢٣ — ١٥٧٦ م) ولكن اضطراب الأحوال خلال سنى حكم الشاه اسماعيل الثانى ، والسلطان محمد خدا بنده (٩٨٤ — ٩٩٦هـ

(١) لمعرفة المزيد عن هذا المذهب يمكن الرجوع إلى ملحقات روضة الصفا جـ٨ ، ص٢٧٣ ومابعدها ، وزندكانى شاه عباس أول جـ٣ ، ص : ٤٠ وما بعدها .

= ١٥٧٦ — ١٥٨٨ م) ساعد على ازدهار تلك الدعوة من جديد . ولذا ما أن تولى الشاه عباس الحكم ، واطلع على تفشى خطر النقطويين ، حتى صمم على التخلص منهم ، وتخليص البلاد من شرورهم ، فأسرع على الفور إلى مقر هذا المذهب للاطلاع عليه ، ولمعرفة أسباب إقبال العامة على مبادئهم ، ولكى يعرف السراديب السرية فى دارهم . فوجدها مليئة بالخمر المعتقة ومعدات اللهو واللعب ، فأمر بإلقاء القبض على رؤسائهم ، والفتك بكل من تبع هذا المذهب الهدام ، ومن بين الذين ألقى القبض عليهم درويش خسرو ويوسف تركش دوز [١] ، وقد نفذ الشاه فيهما حكم الإعدام [٢] .

وعندما أدرك أتباع المذهب النقطوى بأنه لا بقاء لمذهبهم فى إيران ، طالما كان عباس يتعقبهم ويقضى عليهم ، نجدهم يرحلون إلى الهند ويعيشون

---

(١) ترتبط نهاية يوسف تركش بقصة طريفة ، فالشاه عباس من المؤمنين بالطالع وحركة الكواكب ، وقد رأى فى ذلك الوقت أن الكواكب تشير إلى أن عظيما فى إيران سيموت قريباً فظن الشاه عباس بأنه المقصود بذلك العظيم ، فاستشار منجمه الذى رأى أن يتنازل الشاه عباس عن العرش والتاج مدة ثلاثة أيام ، ويسند هذا المنصب إلى يوسف تركش لكى ينفذ فيه حكم الإعدام بعد ذلك ، وهكذا يتحقق الطالع ويموت العظيم الذى أخبرت عنه الكواكب ، وبعد انقضاء الثلاثة أيام ، يعود الشاه عباس إلى مزاولة الحكم ولبس التاج ، وفعلا تم تنصيب يوسف تركش وأحيط بالخدم والحشم ، وقضى الشاه عباس تلك الأيام الثلاثة فى الصيد واللعب ، وأخيراً تم اغتيال يوسف هذا ، وتخلصت إيران من خطر المذهب النقطوى . وكان تنازل عباس عن الحكم فى الفترة من ٧ إلى ١٠ من ذى القعدة عام ١٠٠١ هـ .

لمعرفة المزيد عن هذه القصة ، يرجع إلى : ملحقات روضة الصفا جـ ٨ ، ص ٢٧٦ ، ٢٧٧ . زندگانى شاه عباس أول جـ٢ ص ٢٤٠ - ٢٤٣ ،

(٢) ملحقات تاريخ روضة الصفا . جـ٨ ، ص : ٢٧٣ - ٢٧٧ .

فى كنف حاكمها جلال الدين محمد أكبر ، الذى أتسم عهده بالتسامح الدينى والمساواة بين جميع أبناء آدم دون النظر إلى مذهبهم أو جنسهم (١).

ومن الفتن الدينية التى قضى عليها الشاه عباس ، تلك الفتنة التى حدثت فى جيلان وترأسها شخص يدعى (سيد محمد) الذى ادعى بأنه نائب إمام الزمان وأنه المهدى المنتظر ، ونتيجة لسوء العلاقة بين أهل جيلان وبين الشاه عباس ، التف معظم أهالى جيلان حول صاحب هذه الفتنة ، كما ساعد مرض الشاه عباس فى مازندران (عام ١٠٢٩ هـ) على زيادة نفوذ سيد محمد ، وعلى انتشار دعوته وظل الحال كذلك إلى أن برأ الشاه عباس من علته ، وصمم على البطش بنائب إمام الزمان والملتفين حوله ، ولكنه لجأ إلى الحيلة والخديعة، حيث أظهر استعداده للدخول فى طاعة هذا المدعى ، ولكن يلزمه أن يلتقى به ويتعرف على أفكاره وتعاليمه ، لذا أرسل الشاه عباس فى طلبه إلى مازندران حيث كان يقيم فى ذلك الوقت ، وبعد مثوله إلى هناك ألقى القبض عليه ، وعلى أعوانه ، وتم اغتيالهم جميعا والقضاء على هذه الدعوة الباطلة (٢).

وهكذا كان الشاه عباس حريصا على تدعيم المذهب الشيعى والقضاء على أى مذهب هدام يسىء إلى الإسلام، ويقلل من شأن المذهب الشيعى ، ولكنه لم يكتف فى هذا المجال بمعاداة للمذاهب الهدامة فقط ، بل تعدى ذلك إلى معاداة المذهب السنى ، وإلحاق الأذى والضرر بأتباعه ..

---

(١) زندگانى شاه عباس أول ، جـ٣ ، ص : ٤٨ .
(٢) المرجع السابق ص : ٥٢ - ٥٣ .

ثالثاً : معاملة الشاه عباس لأهل السنة ...

كانت الخلافة العثمانية تعتبر نفسها حامية حمى المذهب السنى فى العالم الإسلامى فى حين ظهرت الدولة الصفوية معلنة نفسها المدافعة عن المذهب الشيعى ، المتصدية لـكل مخالفيه ، وقد أدى هذه الاختلاف المذهبى بين العثمانيين والصفويين إلى حدوث نزاع مسلح متواصل بين هذين المعسكرين ، ولـكن كفة العثمانيين كانت هى الراجحة منذ ظهور الصفويين وحتى السنوات الأولى من حكم الشاه عباس الأول ، ولـكن بعد أن تمـكن عباس من التخلص من الخطر الأوزبكى فى الشرق ، وأعاد تنظيم جيوشه وتسليحها بأسلحة نارية ، دخل فى عراك مع العثمانيين ،واستطاع الانتصار فى النهاية وطردهم من الأراضى الإيرانية التى احتلوها أيام حكم أبيه السلطان محمد خدا بنده ، بل واستطاع الاستيلاء على بغداد ومزارات الشيعة فى العراق .

وقد كان لهذه المعارك المستمرة أثر بالغ فى زيادة الخصام المذهبى بين الصفويين والعثمانيين، وفى زيادة تعصب الشاه عباس الأول للمذهب الشيعى وعدائه للمذهب السنى ، ومحاولته الانتقام من أهل السنة متى واتته الفرصة لذلك ، وقد وصل العداء لدرجة أن عباس حاول إقناع الإيرانيين بالتخلى عن الذهاب إلى مكة لأداء فريضة الحج ، والاكتفاء بزيارة قبر الإمام الثامن على بن موسى الرضافى مشهد (١) وذلك لأن الواجب القومى يحتم عدم سفر الإيرانيين إلى مكة عبر أراضى الدولة العثمانية ، حتى لا يدفعوا لهذه الدولة المعادية رسم عبور، ولـكى يرغبهم الشاه عباس فى التوجه إلى مشهد ، كان يكثر من التردد عليها وزيارة قبر الإمام الثامن بها ، كما أن سيره على

(١) History of persia vol II. p.181

الأقدام من أصفهان إلى مشهد كان وسيلة من وسائل ترغيبهم فى تقليده والحج إلى ذلك المزار المشهدى ، بدلا من التوجه إلى الكعبة المشرفة فى مكة .

ولعلنا أدركنا أن المعاملة السيئة التى عامل بها الأكراد الإيرانيين مرجعها بالدرجة الأولى إلى تبعية هؤلاء الأكراد للمذهب السنى ، وعدم قبولهم الدخول فى المذهب الشيعى ، مما جعلهم هدفا لغضبه وحقده . ووصل الأمر فى تعنته معهم إلى درجة التشريد فى البلاد . ونقل عدد كبير منهم من كردستان إلى خراسان بما فى ذلك من ألم نفسى وإحساس دائم بالغربة والتشرد (١) .

ومن مظاهر تعنته مع أهل السنة ، ما فعله مع سكان قلعة (أندخود) بما وراء النهر ، وكان الشاه عباس قد فتح هذه القلعة عام ١٠١١ هـ وأمَّن أهلها من السنة على حياتهم وممتلكاتهم ، وطمأنهم بأنه لن يتعرض لهم بالسوء بسبب اعتناقهم المذهب السنى ، ولكن حدث فى عام ١٠١٢ هـ ، وهو عائد من محاصرة مدينة بلخ أن مر بقلعة أندخود هذه ، وفجأة وبلا سبب واضح أمر جنوده بالإغارة عليها وأسر جميع أكابرها وأعيانها وقاضيها وعظمائها ، وأن يسوق كل جندى صفوى أمامه أسيرا من أهل هذه القلعة حتى يصلوا إلى منطقة العراق (أصفهان) وقد علق اسكندر بيك منشى على هذه الحادثة بقوله :

« فى طرفة عين خربت تلك القصبة ، ووقع العديد من النساء

---

(١) للإطلاع على المزيد من مظاهر القسوة التى عامل بها الشاه عباس وجنده القبائل الكردية السنية يمكن الرجوع إلى « خلاصة تاريخ الكرد وكردستان » .

والصبيان فى ذل الأسر ، وقلة من الجنود هم الذين جاءوا وليس فى معيتهم أسرى من قلعة اندخود »[1].

وكان الشاه عباس غالبــا قاسى القلب خشنا مع الأسرى العثمانيين والأوزبكيين — وهم من أهل السنة — وكان أقل عقاب يوقع عليهم إن لم يقتلوا ، هو سمل عيونهم ، ولم يكن يصفح عن أى أسير منهم إلا إذا أعلن تخليه عن المذهب السنى ودخوله فى المذهب الشيعى ، ومن الذين فعلوا ذلك شريف باشا حاكم قلعة وان بمنطقة آذر بايجان ، فقد أعلن — بعد أسره — تخليه عن خدمة السلطان العثمانى ودخوله فى المذهب الشيعى والبقاء فى إيران فصفح الشاه عباس عنه وأجرى عليه راتبا شهريا من خزانته الخاصة .[2]

وقد ذكر جلال الدين محمد اليزدى المنجم الخاص للشاه عباس فى كتابه (تاريخ عباسى) العديد من مظاهر تعنت عباس مع أهل السنة ، ومما ذكره ما يلى[3] .

نزل الشاه عباس فى عام ١٠٠٨ هـ ببلدة سمنان ، وبسبب تطاول حاكمها عليه وعدم امتثال أهلها لقوانينه ، تم اعتقال عدد كبير من السنين بهـا ، وأمر الشاه بإطعام جهالهم بآذان علمائهم وأنوفهم ، ثم حصّل ثلاثمائة تومان منهم تـكفيرا لجرمهم .

وفى عام ١٠١٨ هـ بلغه أن حاكم مدينة همدان ويدعى محمود الدباغ وهو سنى المذهب يظلم الشيعة هناك ، فأمر بإلقاء القبض عليه والفتك به ، ولـكن

---

(١) عالم آراى عباسى ص ٣٣٤ - ٣٣٥ .
(٢) زندگانى شاه عباس أول ، جـ٣ ، ص : ٣٨ .
(٣) نقلا عن المرجع السابق : ص : ٣٧ ومابعدها .

محمودا اختفى ، فأصدر الشاه أمرا مؤداه : إذا لم يظهر محمود الدباغ في ظرف ثلاثة أيام فسيتم قتل كل أفراد القبائل السنية في المدينة ، ويتم الاستيلاء على أموالهم ونسائهم وأطفالهم ، وأخيرا أُلقى القبض على الدباغ وأُعدم .

وفي عام ١٠٢٠ هـ زار الشاه عباس قبر الشيخ زاهد الجيلاني مرشد جده الشيخ صفي الدين الأردبيلي ، وتصدق بأموال طائلة لكي توزع على خدام القبر وزواره ، بشرط ألا يقدم منها شيء لأي سني ، كما قام بلعنهم .

وعلى الرغم من هذا العداء السافر للمذهب السني وأتباعه ، فإن الشاه عباس كان يتظاهر أحيانا — تبعا لمصلحته الخاصة — بالعطف على السنيين وإكرام وفادة بعضهم ، فقد ذكر البعض بأنه كان يحسن استقبال التجار السنيين الوافدين من بلاد إسلامية أخرى ، وينزلهم لديه منزلا كريما [١] . ولاشك أن الشاه عباس كان يفعل ذلك مع هؤلاء التجار لحرصه على ازدهار تجارة إيران التي يعود النصيب الأكبر من ربحها عليه شخصيا. وبالتالي كان يتنازل مؤقتا عن عدائه المذهبي ، مقابل مايأمله من كسب مادي نتيجة التعامل مع هؤلاء التجار السنيين .

ومما لاشك فيه بأن عداء الشاه عباس للمذهب السني وحماته العثمانيين ، هو الذي دفعه للاتصال بملوك أوربا المسيحيين ، ومحاولته عقد معاهدات للتعاون المشترك بينه وبينهم من أجل تقويض دعائم الدولة العثمانية السنية المذهب ، حتى ولو قدم لهؤلاء الأوربيين العديد من التنازلات ، كما سنعرف ذلك أثناء الحديث عن السياسة الخارجية في الفصل الخامس .

• • •

---

(١) البستاني : دائرة المعارف ، جـ١١ ، ص ٤٨٦ ، طبع مصر : ١٩٠٠ م.

رابعاً : معاملة الشاه عباس للمسيحيين :

وعلى النقيض من معاملته للسنيين ، كانت معاملته للرعايا الإيرانيين الذين يعتنقون الديانه المسيحية ، وكذلك لرعايا الدول المسيحية الذين يفدون إلى ايران بغرض السياحة أو حتى التبشير للدين المسيحى فى إيران .

سبق أن أشرنا إلى كيفية معاملة الشاه عباس للأرمن المسيحيين بعد نقلهم من جلفا فى آذربيجان إلى جلفا الجديدة بجوار أصفهان ، وهى الضاحية التى بناها على نمط المدينة المهجورة وحملت نفس الاسم ، حتى لا يشعر الأرمن بغرابة الجو الجديد الذى يعيشون فيه ، كما أمر بقصر الإقامة فى هذه الضاحية على المسيحيين دون سواهم ، وحرم على المسلمين اتخـــاذ الدور فيها ، حتى لاتثار أى مشاكل مذهبية ، وبعد ذلك بالغ الشاه عباس فى التعاطف معهم ، ومع غيرهم من الطوائف المسيحية القاطنة أرض إيران ؛ كما أحسن وفادة أى مسيحى أوربى وفد إلى قصره لأى غرض .

وقد أصبحت جلفا الجديدة مركزاً مسيحيا نشطا فى إيران ، حيث لعبت دوراً هاماً فى الحفاظ على الديانة المسيحية ، وعملت على نشرها ، والتبشير بتعاليمها . وظل هذا المركز يموج بالحركة الى فترة متأخرة ؛ حيث كان التجار الأوربيون وأعضاء البعثات المسيحية ينزلون دوماً فى هذه الضاحية(١) ولعل ذلك للإعلان عن تعاطفهم مع سكان جلفا وتأييدهم لهم لكى يظلوا متمسكين بديانتهم المسيحية وعدم التحول إلى الإسلام .

وكان مسلك الشاه عباس مع سكان جلفا وغيرهم من مسيحيي أوروبا مشجعا لتجار أوربا على الوفود إلى إيران أملا فى عقد صفقات تجارية معها .

(١) History of Persir, vol II,p. 181.

وكان الشاه عباس يبذل قصارى جهده لتشجيع هؤلاء الأوربيين على زيارة إيران والتعامل معها ، ولكى يطمئنهم على أنهم لن يجدوا فى إيران أى عنت أو مشقة؛ أصدر أوامره فى عام ١٠٠٧ هـ بعدم التعرض لهم ، والسماح لهم بحرية التجوال فى أراضى الدولة الصفوية كلها ، وهذا نص الأمر الملكى :

« . . . من اليوم يسمح لمواطنى الدول المسيحية ومن يدينون بدينهم بالحضور إلى أى بقعة من وطننا ولا يسمح لأى شخص بأى حال من الأحوال إهانتهم ، ونظرا لما بيننا وبين الملوك المسيحيين من علاقات ود ومحبة ، فيسمح للتجار المسيحيين بالتجول فى جميع أجزاء ايران ، ومزاولة نشاطهم التجارى فى أى بقعة من الوطن ، دون أن يتعرض لهم بالإيذاء أى شخص سواء أكان حاكما أو أميرا أو خانا أو موظفا أو تابعاً لدولتى ، كما تعفى جميع أموال تجارتهم التى يحضرونها معهم من ضرائب المال ، وليس لأى شخص مهما بلغت مكانته أن يزاحمهم أو يكلفهم المشاق ، وليس من حق رجال الدين مهما كانت وظائفهم التجرؤ على الإضرار بهم ، أو التحدث معهم بخصوص العقائد المذهبية . . . (١) »

ولم يكتف الشاه عباس بإصدار هذا الأمر وتنفيذه ، بل كان حريصا على التعاطف مع المسيحيين فى كل مناسبة ، والاشتراك معهم فى احتفالاتهم الدينية ففى عام ١٠١٨ هـ أرسل إلى بلاد الكرج فى إحضار عدد من الخنازير ليقدمها هدية لمسيحيي جلفا فى عيدهم ، ثم ذهب بعد ذلك لتهنئتهم بالعيد ، وشاركهم احتساء الخمر ، وأمر جميع مرافقيه من رجال البلاط الصفوى باحتساء الخمر مشاركة للمسيحيين فى هذه المناسبة ، على الرغم من توافق ذلك العيد

(١) إيران در زمان صفويه ، ص : ١٠٣ .

المسيحى مع اليوم الخامس عشر من شهر رمضان ، فاضطر أفراد الحاشية إلى شرب الخمر والإفطار على مضض[1]!

وقد حاول المسيحيون الإفادة من هذا التعاطف ، وعمقوا صلاتهم بالشاه عباس ، وطلبوا منه السماح لهم بالتبشير بالديانة المسيحية فى إيران ، وبناء الكنائس فى أصفهان وغيرها من المدن ، فوافق عباس على ذلك ، وأمر ببناء كنيسة فى جلفا الجديدة على نفقته الخاصة[2].

ومن مظاهر تعاطفه مع المسيحيين ، حرصه على زيارة الكنائس ولقاء القساوسة ، والتباحث معهم فى أمور دينهم ، ومشاهدة مراسمهم الدينية ، وسماع مواعظهم وترانيمهم ، حتى أصبح على دراية كبيرة بتعاليم الدين المسيحى ، مما شجع بعض القساوسة على دعوة الشاه عباس للدخول فى الدين المسيحى ، ولكنه اعتذر برفق ودون ثورة ، وقال : لنترك هذا الكلام إلى وقت آخر[3].

وقد أدى هذا التعاطف إلى اتهام البعض للشاه عباس بأنه كان ضعيف الإيمان بالدين الإسلامى ، وبالمذهب الشيعى ، ولكن يدافع الايرانيون عنه قائلين بأن الشاه عباس كان يلجأ إلى التعاطف مع المسيحيين كضرورة سياسية ، لا عن عقيدة مذهبية[4] ، إذ كان حريصا على خطب ود الدول المسيحية لتسانده فى حروبه ضد الدولة العثمانية الملتزمة إسلاميا ، والمشتركة فى حروب ضد العالم المسيحى فى أوربا .

---

(١) زندگانى شاه عباس أول ، جـ٢ ، ص : ٢٦٤ .

(٢) إيران در زمان صفويه ، ص : ٢٥٤ ، ٢٥٥ .

(٣) زندگانى شاه عباس أول ، جـ٣ ص : ٧٢ .

(٤) عبدالله رازى همدانى : تاريخ إيران از أزمنه باستانى تاسال ١٣١٦ ، طهران ١٣١٧ ش ، ص : ٥٥٧ ، وتاريخ إيران از مغول تا افشاريه ص : ٣٤٠ وزندگانى شاه عباس أول ، جـ٣ ؛ ص : ٦٧ .

ويدلل الإيرانيون على صحة تدينه وحسن إسلامه بما فعله مع الكرجيين — وهم مسيحيون — من تنكيل وتخريب لديارهم ، وتحويل كنائسهم إلى مساجد[1]، كما أن الشاه عباس كان يقرض التجار المسيحيين أموالا ويشترط على من يتعذر فى السداد أن يعفيه مقابل اعتناقه الإسلام ، فلولا حرص الشاه عباس على الإسلام لما حول الكنائس إلى مساجد ، ولما حث بعض التجار المسيحيين على اعتناق الإسلام[2] .

ولكن هذه المعاملة الخشنة مع المسيحيين كانت استثناء ، والقاعدة أنه كان يحسن معاملتهم ولا يمكن الحكم على الاستثناء وترك القاعدة، علما بأنه لم يقدم على تحويل كنائس الكرجيين إلى مساجد إلا لأنهم خرجوا عليه وثاروا ضده، فكان هذا التحويل وسيلة من وسائل العقاب والردع لهؤلاء الثائرين، وعلى هذا يمكن القول بأن الشاه عباس كان مغاليا فى تعاطفه مع المسيحيين ، متماديا فى التقرب منهم، مشجعا لهم على التحرك فى إيران والتبشير للدين المسيحى، معينا لهم على بناء الكنائس فى أصفهان وغيرها من المدن الإيرانية ، وهذا المسلك لم نجد مثيلا له فى عصر أى حاكم صفوى سبقه على الإطلاق ، مما يجعلنا نقول بأن عصر الشاه عباس ، إذا قيس بعصور سابقيه من ملوك الدولة الصفوية ، كان عصرا ذهبيا بالنسبة للمسيحيين فى إيران .

خامسا : مسلك الشاه عباس مع اليهود :

كانت صورة اليهود فى العالم كله وبخاصة فى أوربا خلال عصر الشاه

---

(١) زندگانى شاه عباس أول ج٣ ، ص : ٨٨ .

(٢) تاريخ روابط إيران وأوربا در دوره ٔ صفويه ، قسمت أول ، ص : ٤٣ .

عباس (٩٩٦ — ١٠٣٨هـ = ١٥٨٨ — ١٦٢٩م) صورة بغيضة ، إذ دفعت تصرفاتهم المقسمة بالخسة ملوك أوربا وقساوستها على حرمانهم من ممارسة الزراعة ، وضيقوا عليهم الخناق فى مجال التجارة ، فلم يعد لهم من مجال للكسب إلا فى تجارة الذهب والمجوهرات ، والقيام بإقراض المعوذين بالربا الفاحش ، وذلك من شأنه أن يخلق أحقاداً وعداوات ، وأن يعطى عن اليهود صورة قبيحة شوهاء كتلك التى أبرزها لنا شكسبير فى شخصية (شيلوك) تاجر البندقية ، ونتيجة لهذا المسلك أصبح اليهود معزولين عن الجميع ، ويقطنون أماكن وحارات خاصة بهم عرفت باسم (جيتو) (أى حارة اليهود) ، وبالتدريج أصبح نظام الجيتو يفرض إجباريا على اليهود ، حيث لا يسمح لهم بالإقامة فى غير حاراتهم ، أو التجول ليلا فى غير حيهم[(١)] .

هكذا كان حال اليهود فى العالم عامة ، وفى أوربا بصفة خاصة ، فكيف كان حالهم فى إيران خلال عصر الشاه عباس الأول ؟

لم يكن الشاه عباس يحب اليهود ، بل كان على الدوام ينفر منهم وينظر إليهم بعين السوء ، وكانوا يقيمون فى أماكن خاصة بهم سواء فى أصفهان أو فى سائر المدن الإيرانية ، ولما كانت هذه الجماعة — كما يقول نصر الله فلسفى فى كتابه زندگانى شاه عباس أول ، الجزء الثالث — بعيدة عن طريق الأمانة والصدق كطبيعة تكوينهم وكعاداتهم الفطرية ، فإنهم كانوا هدفا لحقد الناس واحتقارهم وملامتهم ، بل وإيذائهم أحيانا . وعندما رغب الشاه عباس فى تحويل يهود أصفهان إلى الدين الإسلامى ، أمر بأن يصرف لكل

---

(١) دكتور حسن ظاظا : اسرائيل كفصيلة خاصة من فصائل المعسكر الاستعمارى ، القسم الأول من كتاب : الصهيونية العالمية واسرائيل ، القاهرة ١٩٧١ م ، ص ٥٨ ، ٥٩ .

يهودى يعتنق الإسلام أربعة تومانات ، فأخذ جمع كبير من اليهود النقود ، وتظاهروا بقبول الإسلام ، ولكن عندما أدرك الشاه بعد فترة وجيزة أن دخولهم الإسلام كان خشية منه ، لا عن إيمـــان قلبى ، تركهم أحرارا فى دينهم[1] .

وكان تعداد اليهود أيام الشاه عباس قليلا ، ولكنهم على الرغم من ذلك كانوا خلافا لسائر الأقليات الأخرى ، دائمى الانقسام فيما بينهم ، مما جعلهم يتحملون الكثير من الكوارث التى ألحقوها بأنفسهم . فقد ورد فى إحدى التذاكر الأوربية (رحلات بيتر ودلاواله، الجزء الخامس ،صفحة ١٥، ١٦)[2] :

فى الواحد والعشرين من شهر نوفمبر ١٦١٩م (الثالث عشر فى ذى الحجة عام ١٠٢٧) وقع فى أصفهان خلاف بين اليهود ، وتشاكوا إلى الشاه ،وأخذ كل منهم يتهم الآخر ، ووسط ذلك اتهم بعضهم ثلاثة أو أربعة من زعمائهم الدينيين بالسحر وارتكاب جنايات كبرى ، وبعد أن جرت المحاكمة صدرت الأوامر بقتلهم ، وذلك بتركهم للكلاب المتوحشة التى أعدت خصيصا لقتل المذنبين والمحكوم عليهم بالإعدام ، وقبل تنفيذ الحكم خيرهم الشاه عباس بين اعتناق الإسلام أو الإعدام ، فاختار ثلاثة منهم الدين الإسلامى ورفضه واحد اسمه (عبا) ، فنفذ فيه حكم الإعدام ، حيث هجمت عليه الكلاب المتوحشة ، وقطعت جسده إربا إربا .

وهكذا كان مسلك الشاه عباس مع اليهود شبيها بمسلك حكام أوربا معهم ، حيث كانت خستهم دافعا على النفور منهم ، والضيق من تصرفاتهم

* * *

(١) زندگانى شاه عباس أول ، ج ٣ ص: ٩٧ .

(٢) نقلا عن المرجع السابق ، ص : ٩٨ .

بعد أن استعرضنا سياسة الشاه عباس المذهبية يمكن القول بأنه كان في النواحي المذهبية خاضعا للظروف السياسية ، فهو شيعي متعصب ليجمع كلمة الشيعة وهم الغالبية العظمى من سكان إيران ، وليكون جديرا بمنصب الشيخ الكامل والحاكم الشرعي للدولة الصفوية التي قامت على أساس الحفاظ على المذهب الشيعي ونشره ، وهو معاد للمذهب السني نتيجة للعداء السافر بين الصفويين والعثمانيين من جانب ، والصفويين والأوزبك من جانب آخر ، وكلا هذين العدوين من معتنقي المذهب السني . وهو عطوف مع المسيحيين لحاجته السياسية إلى تأييد ومساندة الدول الأوربية المسيحية له في صراعه مع الدولة العثمانية ، أما نفوره من اليهود ، فكان هذا سمة العصر ، إذ كانوا يستحقون هذا النفور والازدراء في كل مكان وجدوا فيه .

وهكذا نجد الناحية المذهبية أيام حكم الشاه عباس الأول خاضعة للناحية السياسية ، بعد أن كانت الناحية المذهبية متحكمة في كل الأمور السياسية خلال عصور كل من سبقوه من ملوك الدولة الصفوية !

• * •

الفصل الثالث

أصفهان في عهد الشاه عباس

ـ منظر عام لمدينة أصفهان في عصر الدولة الصفوية

الفصل الثالث

أصفهان فى عهد الشاه عباس الأول

بعد أن استقر حكم الشاه عباس وتخلص من نفوذ القزلباش وحكام الأقاليم وقضى على الفتن الداخلية ، بدأ يهتم بحركة التعمير والتشييد وشهدت مناطق كثيرة من إيران آثار الاهتمام الذى شمل العمارة الدينية كالمساجد والأضرحة وإدخال التحسينات على المزارات القديمة ، فقد عمر مرقد وقبة الإمام الرضا فى مشهد وذلك فى عام ١٠١٠هـ(١) وأوصل مياه نهر الفرات إلى مسجد الكوفة ، وعمر قبر على بن أبى طالب فى النجف ، وذلك بعد أن فتح بغداد عام ١٠٣٢ هـ ، وغير ذلك من المزارات والمساجد التى شيدت باسمه فى جميع مدن إيران المختلفة .

وشمل اهتمامه كذلك العمارة المدنية ، حيث شيد العديد من القصور والمبانى ، وأنشأ الحدائق العامة وخطط الميادين الفسيحة ، ووصل اهتمامه إلى درجة إنشاء مناطق سكنية جديدة تحولت بعد ذلك إلى مدن مستقلة كمدينة نجف أشرف التى كانت بمثابة مصيف له ثم أخذت تتسع بالتدريج إلى درجة أن أصبحت مدينة كاملة الآن ، ومن المناطق التى شيدها كذلك ، منطقة جلفا الجديدة بجوار أصفهان .

واهتم الشاه عباس بتعبيد الطرق وإصلاحها وتزويدها بالنزل والرباطات

(١) لغت نامة ، شمارہ ٧٦ ، ص ٤١ .

حتى تزدهر التجارة ويعم الأمن ، ومن إصلاحاته كذلك إنشاء عدد من مصانع الأسلحة النارية فى أصفهان وغيرها من المدن الإيرانية [1] :..

وهكذا شملت حركه التشييد والتعمير فى عصر الشاه عباس أماكن عديدة من إيران ، حتى قال جوستاف لوبون : إن معظم العمارات والمبانى الأثرية الهامة فى إيران قد شيدت فى زمان سلطنة الشاه عباس الأول .[2] ولكن القسط الأكبر من الآثار التى خلفها الشاه عباس — ومازال بعضه شاهدا على عظمته ، ومدى اهتمامه بالعمران والبناء — موجود بعاصمته أصفهان ؛ ولكن قبل الحديث عن هذه الآثار يجب أن نعرف لماذا اتخذ الشاه عباس أصفهان عاصمة له ، وتخـــلى عن العاصمة التى تم تتويجه بها ، وهى قزوين .

كانت تبريز أول عاصمة للدولة الصفوية منذ عهد الشاه اسماعيل الأول ، ولكن قرب هذه العاصمة من الدولة العثمانية ، جعل فى مقدور حكامها الاستيلاء عليها أكثر من مرة وهروب الشاه اسماعيل منها ، لذا وجدنا الشاه طهماسب ينقل عاصمته إلى قزوين حتى تكون بعيدة بعض الشيء عن متناول الجيوش العثمانية ، وظلت قزوين عاصمة للصفويين خلال حكم طهماسب الأول والشاه اسماعيل الثانى والسلطان محمد خدابنده ، والسنوات العشر الأول من حكم الشاه عباس الأول (أى من عام ٩٩٦ — ١٠٠٦ هـ) .

وفى عام ١٠٠٦هـ (١٥٩٨م) شعر الشاه عباس بأن منطقة قزوين تضيق به وبأفراد حاشيته الكثيرين ، وبجيوشه الكثيفة العدد ، وحيث تقل المياه فى تلك المنطقة مما جعل فرصة الزراعة بها قليلة ، ومحاصيلها لاتفى باحتياجات

---

(١) راجع سجل أعماله فى المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٢) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

سكانها [١] ، وأخذ يبحث عن مكان أخر يكون أكثر صلاحية من قزوين فوقع اختياره على مدينة أصفهان ، وذلك لأنها تقع على نهر زاينده رود ، مما يجعل فرصة الاستزراع فيها أوسع وأرحب ، وبذلك تتوفر المحاصيل اللازمة لإعاشة الأعداد الكبيرة من الجنود ورجال الحاشية ، كما أن مدينة أصفهان تقع في داخل البلاد ، وبذلك تكون أكثر أمنا من أى هجمة عثمانية شرسة [٢] فقد كان الشاه عباس يستعد للدخول فى صراع مرير لطرد القوات العثمانية المحتلة لآذربايجان كلها ولأجزاء كبيرة من العراق العجمى ، ولهذا آثر أن ينقل العاصمة إلى الداخل حتى لاتكون مهددة بالاحتلال كما كان الحال بالنسبة لتبريز إبان حكم الشاه اسماعيل الأول .

وأخيرا تم نقل العاصمة إلى أصفهان عام ١٠٠٦ هـ ، وحرص الشاه عباس على تزيينها وتشييد العديد من المبانى الفخمة فيها ، وكذلك إنشاء الميادين والحدائق العامة بها ، وقد بذل فى هذا المضمار جهدا كبيرا ، وضح فى الآثار العديدة التى خلفها،ووضح كذلك فى كتابات معاصريه،وفيماسجله المستشرقون فى كتب رحلاتهم ، ونتيجة لما بلغته أصفهان من رقى وتقدم لم تبلغهفى أى عصر من عصورها السابقة ،راج تعبير مشهور وهو (اصفهان نصف جهان) أى (أصفهان نصف العالم) وهذا التعبير لم يكن ليروج إلا إذا كانت أصفهانغاية فى الجمال والأبهة والعظمة ، وتفوق جميع مدن إيران فيما حظيت به من أثار آية فى الإبداع والجمال وحتى أن الزائر لها كان يشعر بلمسات الذوق الرفيع والفن العالى المنزلة فى كل مكان بها،حيث أصبحت المدينة معرضا للفن،ونتيجة لشدة اهتمام الشاه عباس بأصفهان،والعناية بجمالها وزينتها،فقد أصبحت عاصمة تعج

---

(١) ملحقات تاريخ روضة الصفا ، جـ٨ ، ص : ٣٠٤ .

(٢) انقراض سلسلهٔ صفويه ، ص : ٥٣٧ .

بالسكان وبالسائحين ، حتى ذكر البعض بأن تعداد سكانها فى عهد الشاه عباس بلغ حوالى ستمائة ألف نسمة [١] .

وكثير من الآثار التى شيدت فى عصر الشاه عباس قائمة حتى اليوم ، ناطقة بالجمال وتجد من يقبل على زيارتها والتمتع بجمالها الفنى ولكن بعض هذه الأثار قد امتدت إليها يد التخريب أيام حكم الدولة القاجارية ، فجميع الآثار والأبنية التى كانت موجودة على الشاطىء الأيمن من نهر زاينده رود ، والتى أفاض السياح الأجانب فى وصفها لم يعدلها وجود الآن ، كما أن بعض الأبنية التى كانت موجودة بداخل إيران قد امتدت لها يد العبث والتخريب ، فأقدم البعض على محو نقوشها ؛ أونزع نوافذها وأبوابها [٢] ...

وأهم الآثار التى خلفها الشاه عباس فى أصفهان تلك التى شيدها حول ميدان نقش جهان ، وفى أماكن أخرى من المدينة ، ولنبدأ بالحديث عن الميدان ومابنى حوله ، ثم نتبع ذلك بأهم المبانى الأخرى التى خلفها عباس ، وأضفت على أصفهان جمالا مازال أثره باقيا حتى اليوم .

١ — ميدان نقش جهان : (ميدان الشاه)

يقع ميدان نقش جهان ـ الذى وصفه شاردن الفرنسى بأنه أجمل ميدان فى العالم فى ذلك الوقت ـ [٣] وسط مدينة أصفهان تقريبا ، وقد اختلف الرواة

---

(١) مسعود كيهان : جغرافياى مفصل إيران حـ ٢ ، ص ٣١٤ ، تهران ١٣١١ ش .

(٢) عباس اقبال (مقالة) اصفهان وآثار تاريخى آن : مجلة يادگار ، سال دوم . شماره نهم . ارديبهشت ١٣٢٥ ش ، ص : ٢ .

(٣) أبو القاسم رفيعى مهر آبادى . آثار ملى اصفهان ، تهران ١٣٥٣ ش ، ص : ٢٨٧ .

ميدان نقش جهان اصفهان

ــ أ ــ عمارة عالي قابو ب ــ مسجد الشاه ــ جـ ــ مسجد الشيخ لطف الله

حول من بناه ، فقد ذكر البعض بأنه كان موجودا قبل الصفويين ، فى حين أن المشهور عن هذا الميدان أنه بدىء فى بنائه عام ١٠١١ هـ فى زمان الشاه عباس الأول [١] ، أى أن العمل فى بنائه بدأ فى نفس الوقت الذى بدأ فيه بناء كل من عمارة عالى قابو ومسجد الشيخ لطف الله تقريبا وهما من بناء الشاه عباس ، كما أن الشاه عباس أدخل عليه تحسينات كثيرة بعد أن انتهى من بناء هذين المبنيين ومن بناء مسجد الشاه ، إذ أمر بأن تبنى على أطرافه كذلك مجموعة من المبانى ذات الطابقين ، على أن تكون متشابهة فى الفن المعمارى والنقوش [٢] .

وقد اتخذ هذا الميدان منذ بنائه شكلا مستطيلا ، فطوله — كما ذكر المستشرق هيربرت — ٥٦٠ يارة ، فى حين بلغ عرضه ١٧٤ يارة [٣] . وكانت هذه المساحة الكبيرة معدة لإقامة مسابقات الصولجان وركوب الخيل والرمى بالسهام ، وأحيانا حرب الديكة وبعض الحيوانات الأخرى [٤] . وكان الشاه عباس يشاهد هذه المسابقات وهو جالس فى الشرفة الرئيسية بعمارة عالى قابو ، كما يشترك أحيانا فى مسابقات الصولجان التى تقام فى هذه الميدان .

وبعد فترة من الزمن تغير اسم هذا الميدان من نقش جهان إلى (ميدان الشاه) إشارة إلى الشاه عباس ، وظل هذا الاسم الأخير متداولا حتى اليوم ، وفى العصر الحديث أدخل الشاه رضا بهلوى عليه الكثير من التحسينات حيث بنى وسطه حوضا وأوصل إليه الماء . كما أضفت عليه الحكومة الإيرانية

---

(١) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٢) إيران در زمان صفويه ، ص ٢٦٦ .

(3) History of Persia vol. II p. 198

(٤) إيران در زمان صفويه ، ص ٢٦٦ .

تعديلات أخرى كثيرة فى السنوات الأخيرة ، حتى أصبح يبدو فى صورة عصرية جميلة أخاذة .

٢ ــ عالى قابو :

وبعد أن نقل الشاه عباس عاصمته من قزوين إلى أصفهان ، أقام فى قصر قديم هناك ، ولكنه بعد فترة صمم على أن يكمل بناء عمارة صغيرة مطلة على ميدان نقش جهان فى الجهة الغربية ، وكانت قد بقيت عن التيموريين (١) ـ وإن ذكر البعض بأنها بقيت عن السلاجقة (٢) ـ وأن يبنى مجموعة من الأبنية الجديدة فى الجهة المقابلة لها ، ويتخذ العمارة مقرا لحكمه . وقد أطلق على المبنى الجديد اسم « عالى قابو » أى « الباب العالى » ولعله أراد بذلك مضاهاة الباب العالى فى الآستانة ، ولذلك نراه يبالغ فى تزيينه وتعظيمه .

وذكر جابر الأنصارى فى تاريخ أصفهان والرى ، أن من أسباب شهرة عالى قابو أن عتبته أحضرت من النجف ، وقد أدى هذا إلى التفاف الناس حول هذا القصر وتقديس عتبته ، لدرجة أن الشاه عباس نفسه كان يترجل عن فرسه عندما يقترب من هذه العتبة ، ثم يدخل إلى القصر سيرا على الأقدام (٣) .

وهذا القصر يشتمل على ثلاثة طوابق رئيسية ، كل طابق منها ينقسم إلى طابقين أى أنه فى الحقيقة يشتمل على ستة طوابق ، ويبلغ ارتفاع الطوابق كلها ثمانية وأربعين مترا ، فى حين يبلغ إرتفاع المدخل الرئيسى ثمانية وعشرين

---

(١) إيران در زمان صفويه ، ص ٢٦٠ .

(٢) آثار ملى اصفهان ، ص : ٣٦٢ ش .

(٣) نقلا عن : المرجع السابق ، ص : ٢٦٢ ، ٢٦٨ .

(٤) المرجع السابق ، ص : ٣٦٣ .

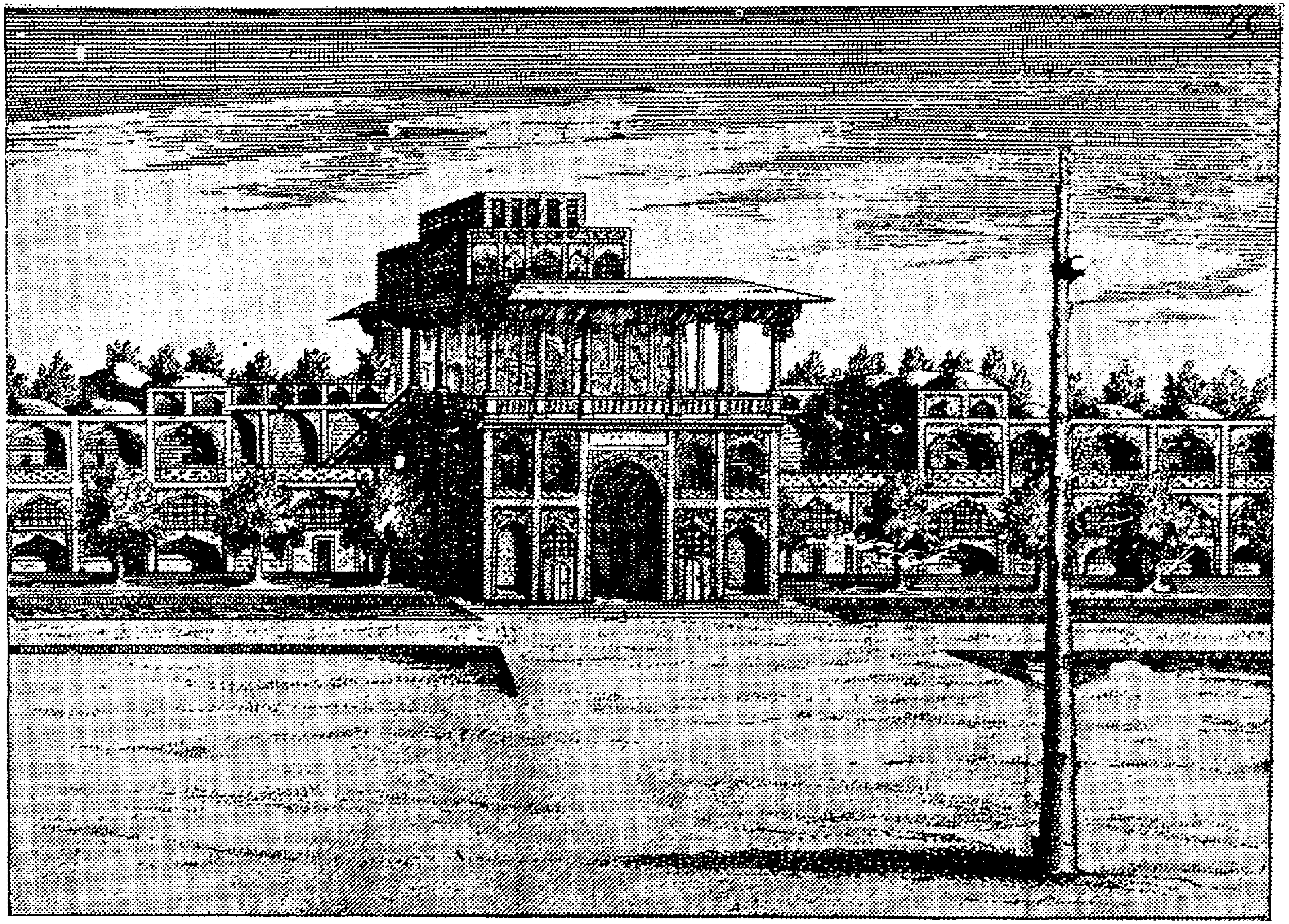

عمارة عالي قابو (في زمن الشاه عباس نقلا عن سفرنامه شاردن)

متراً ، أما عن الطوابق العليا فكانت مخصصة لأعمال الشاه الخصوصية، حيث كان يقضى معظم أيامه بهذا القصر ، حيث يواصل منه تسيير دفة الأمور ، بل كان يتناول فيه معظم طعامه ، وكان كل طابق يضم قاعة رئيسية وعدة حجرات صغيرة ودهاليز مختلفة ، وكانت جدران الحجرات مذهبة بأكملها ، ومزدانة بألوان غاية فى الجمال ، كما كان السقف مذهبا كذلك (١) .

وفى واجهة هذا القصر توجد القاعة الكبرى وهى تقوم على أعمدة خشبية، حيث بنيت على طراز الأبنية الصفوية . وفى القاعة الكبرى كان الشاه عباس يحتفل بعيد النيروز ، ويقابل السفراء الأجانب ، ويستعرض الجيش ، كما كان يشاهد ما يدور بالميدان من مسابقات الصولجان وسباق الخيل وعراك الحيوانات المفترسة (٢) .

وعلى الرغم من أهمية هذه العمارة ، وما كانت تتمتع به من جمال ، فإنه بعد انقضاء عصر الدولة الصفوية أهمل المبنى كغيره من الآثار التى خلفها الصفويون ، وخلال العصر القاجارى أقام بهذه العماره نائب السلطنة فى أصفهان فأزال الرسوم التى نقشت على جدرانه حيث أتم طلاءها بالمصيص (٣) .

٣ — مسجد الشيخ لطف الله (٤) :

يقع هذا المسجد فى الضلع الشرقى من ميدان نقش جهان ، أى فى الجهة

---

(١) إيران در زمان صفويه ص : ٢٦١ .

History of Persia Vol. p 199 (2)

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٦٢ .

(٤) الشيخ لطف الله بن عبد الكريم بن إبراهيم فى الأصل من سكان ميس إحدى قرى جبل عامل فى لبنان ، وأسرته من فقهاء الإمامية ، ونظرا لاهتمام ملوك =

المقابلة لعمارة المسجد والمدرسة الملحقة به ليكونا مقرا لإقامة وإمامة الشيخ لطف الله العاملي ، حيث أمر الشاه عباس أن تقام في أصفهان مدرستان مطلتان على ميدان نقش جهان ، تكون إحداها لإقامة وتدريس ملا عبدالله الشوشتري ، والأخرى لإقامه وتدريس الشيخ لطف الله ، ومازالت مدرسة ملا قائمة حتى اليوم بجوار سوق القيصرية في الضلع الشمالي ، من ميدان نقش جهان ، أما مدرسة الشيخ لطف الله والتي كانت ملحقة بالمسجد نفسه فقد تهدمت [1] .

= الدولة الصفوية بترويج المذهب الشيعي فإن هذا الشيخ وآخرين كثيرين من مشايخ وعلماء البحرين وجبل عاملي رحلوا إلى ايران، وأقام هو في مدينة مشهد وهناك درس على مشايخها المشهورين ، وبعد ذلك عينه الشاه عباس ليكون في خدمة مزار الإمام الرضا. فأقام في مشهد حتى تعرضت لهجوم الأوزبك وخوفا من بطشهم لجأ إلى قزوين ، واشتغل هناك بالتدريس ، فأحضره الشاه من قزوين إلى أصفهان ، وأمر في عام ١٠١١ هـ بإقامة مدرسة ومسجد يحملان اسمه لكي يتولى التدريس والإمامة والإقامة بهما . وكان الشيخ لطف الله لهفتاويه الشرعية وعقائده الخاصة به ، وعلى سبيل المثال كان يعد صلاة الجمعة في غياب الإمام واجبة ، وهو شخصيا يؤدي الجمعة في مسجده ، وتأليفات الشيخ لطف الله تنحصر في الحواشي والتعليقات التي كان يكتبها على كتب الفقه الخاصة بسابقيه ، وعلى الرسائل التي كان يكتبها ردا على الفتاوى الدينية التي يقدمها له معاصروه ، كما كان ذا مهارة فائقة في قرض الشعر باللغتين العربية والفارسية ، وقالوا إن الأشعار التي كتبت على الجهتين الشمالية والجنوبية من المسجد كانت من أشعاره ، وتاريخ وفاته ، كما ذكره مؤلف مجمل التواريخ ، هو عام ١٠٣٢ هـ ، أي في نفس العام الذي فتح عباس بغداد ، وإن ذكر مؤلف عالم آراي عباسي بأنه توفي في أوائل هذا العام وقبل فتح بغداد الذي تم في الثالث والعشرين من ربيع الأول عام ١٠٣٢هـ.

أنظر مجلهٔ يادگار ، سال أول شمارهٔ أول ، ص٥٢ — ٥٩ .
وآثار ملي أصفهان ، ص : ٧٠٢ .
(١) مجلهٔ يادگار ، ص ٥٥ .

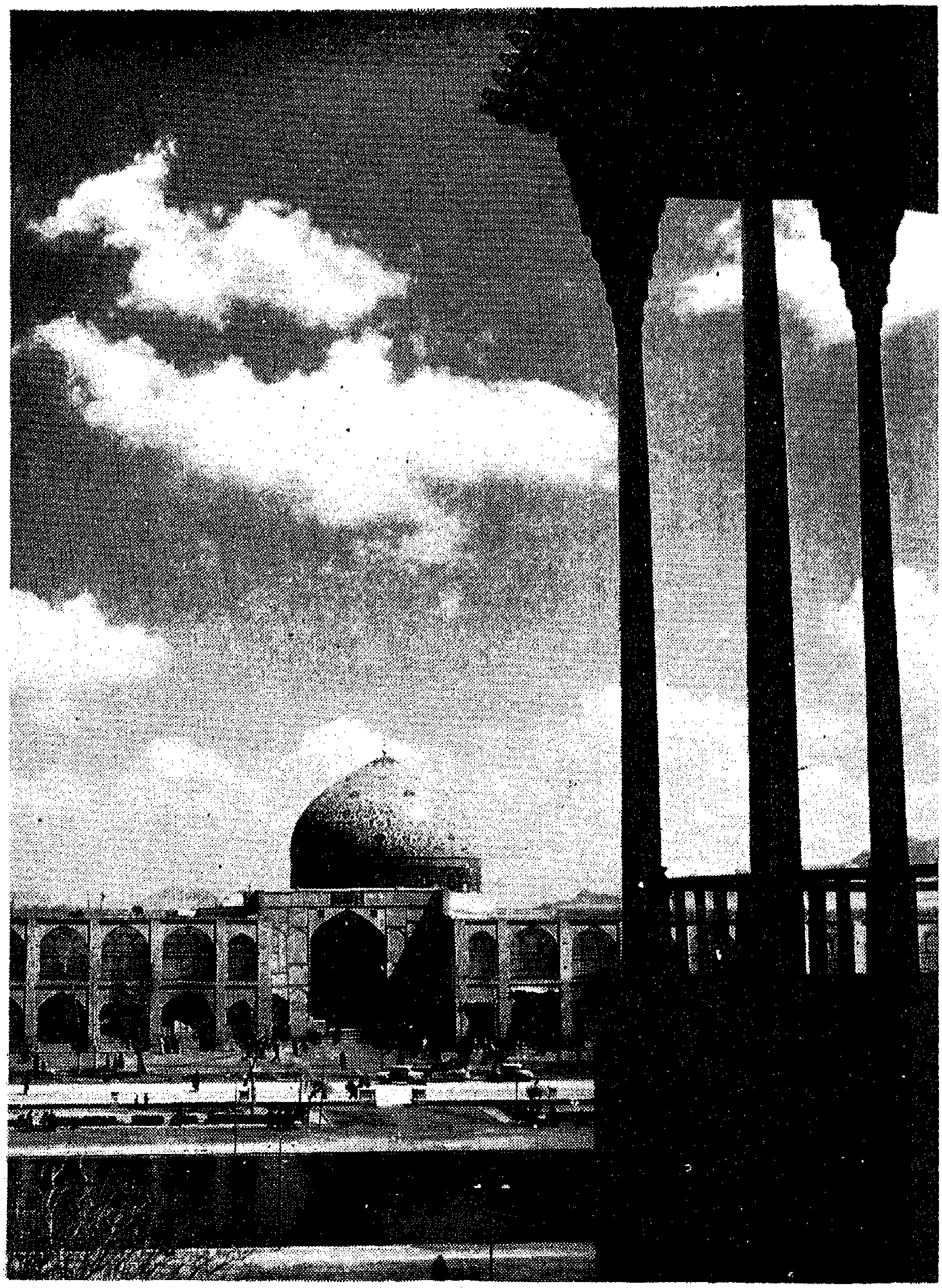

مسجد الشيخ لطف الله

وقد اختلف فى تاريخ البدء فى بنائه ، إذ ذكر بعض المؤرخين أن البناء بدأ عام ١٠١١ هـ ، فى حين ذكر البعض الآخر بأن ذلك كان فى عام ١٠١٢ هـ وقد استند أصحاب الرأى الأخير على الأمر الملكى ببنائه والذى نقش على الباب الرئيسى للمسجد ، وهذا الأمر فيما يلى نصه :

« أمر بإنشاء هذا المسجد المبارك السلطان الأعظم والخاقان الأكرم محيى مراسم آبائه الطاهرين ، مروج مذهب الأئمة المعصومين ، أبو المظفر عباس الحسينى الموسوى الصفوى بهادرخان ، خـــلد الله تعالى ملكه ، وأجرى فى بحار التأييد فلكه ، بمحمد وآله الطيبين الطاهرين المعصومين صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين ، كتبها عليرضا العباسى ١٠١٢ »[1].

والملاحظ أن عليرضا العباسى الخطاط قد ذكر فى نهاية الأمر الملكى أنه خطه عام ١٠١٢ هـ ولكننى أرجح عام ١٠١١ هـ كعام البدء فى بناء هـذا المسجد ، إذ من المرجح أن الأمر الملكى صدر أولا ، ثم بدأت المراحل الأولى للبناء عام ١٠١١ هـ ، ثم مرت فترة زمنية حتى استطاع البناءون إعداد

---

١ ـــ آثار ملى اصفهان ، ص : ٧٠٣ ، وكاتب هذا الأمر الملكى كما ورد فى نهاية النص ؛ هو عليرضا العباسى أشهر الخطاطين والرسامين فى عصر عباس ، وكان يقيم أولا فى تبريز ، أحرز هناك شهرة فائقة فى الرسم وحسن الخط ، مما أدى إلى أن استدعاه الشاه عباس وقرن اسمه باسمه فأصبح يعرف باسم على رضا عباسى ، بعد أن كان يعرف باسم على رضا تبريزى وأسند إليه ديوان الكتابة ، فأعد بأمر الشاه عباس كتابا يضم مجموعة من خطوط كبار الخطاطين وصور أشهر المصورين والنقاشين ، وأطلق عليه أسم (كتاب الخرقة) كما أن جميع اللوحات الخطية التى كتبت فى مسجد الشيخ لطف الله ، وعمارة عالى قاپو ، وسوق أصفهان ، ومسجد الشاه باصفهان ، وكذلك المدخل الرئيسى لعالى قاپو فى قزوين ، كانت كلها بخط عليرضا العباسى . [انظر : ايران درزمان صفويه ، ص : ٣٨١] .

المدخل الرئيسى والبوابة الكبيرة ، وبعد ذلك خط الخطاط الأمر الملكى فى عام ١٠١٢ هـ كما هو مدون حتى اليوم . وإذا كان المؤرخون قد اختلفوا فى عام البداية ، فقد اتفقوا جميعا فى أن البناء انتهى عام ١٠٢٨ هـ (١) .

وهذا المسجد قليل النظير فى الدنيا بأسرها نظرا لما فيه من (قيشانى) يغطى القبة من الداخل والخارج ، وقد سطرت عليه الكثير من الآيات القرآنية والعبارات المختلفة بطريقة تتسم بعلو منزلتها ، وجمال إخراجها ، حتى يمكن القول بأن القيشانى الذى يزين القبة ، أجمل قيشانى تخلف عن العصر الصفوى كله (٢) ، وقد قال شادروان فى وصفه لهذه القبة: « إنها من الأعمال المعمارية التى يندر وجود مثيل لها فى آسيا كلها (٣) .

وهذا المسجد مازال قائما حتى اليوم ، وقد أعيد تجديده وترميمه فى عام ١٣٠٧ هـ أى فى زمان رضا شاه پهلوى (٤) .

* * *

٤ — مسجد الشاه :

يقع هذا المسجد فى الضلع الجنوبى من ميدان نقش جهان ، أى أنه يتوسط عمارة عالى قابو ، ومسجد الشيخ لطف الله .

وقد اتفق الجميع على أن بناء هذا المسجد تم بعد الانتهاء من بناء مسجد الشيخ لطف الله ، ولكن متى بدأ البناء ؟ ومتى انتهى ؟

---

(١) المرجع السابق ، ص ٦٩٤ ، يادگار ، سال أول ، شمارۀ أول ص : ٥٢ ، وايران درزمان صفويه ، ص : ٢٦٧ ، وغيرها .

(٢) إيران در زمان صفويه ص : ٢٦٦ .

(٣) آثار ملى اصفهان ص ٦٩٤ .

(٤) المرجع السابق ، ص : ٧٠٣ .

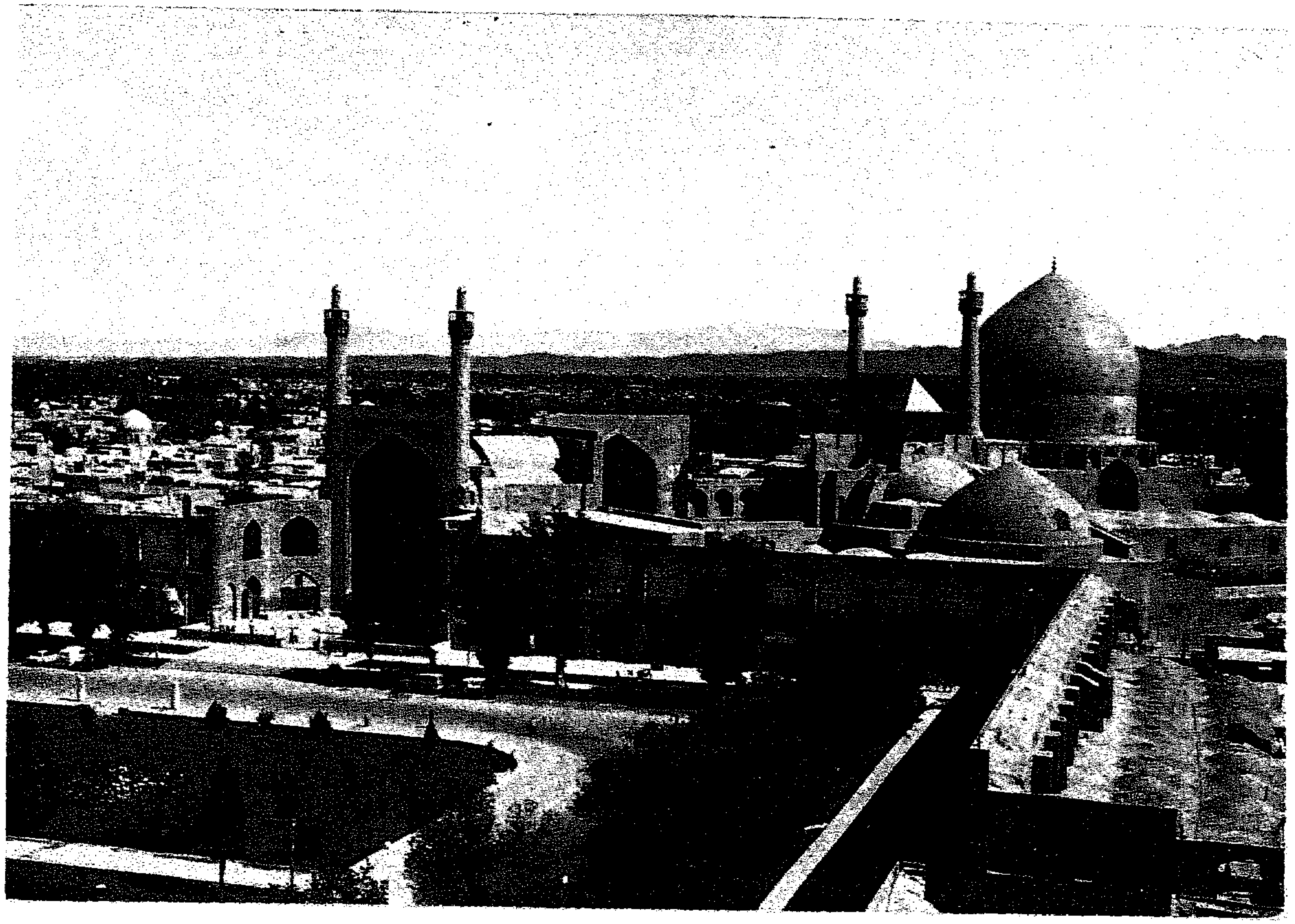

مسجد الشاه

اختلف المؤرخون فى تاريخ تحديد البدء فى البناء ، فقال بعضهم بأن ذلك كان عام ١٠٢٠ هـ(١) فى حين ذكر آخرون أن البناء بدأ قبل وفاة الشاه عباس بسبعة عشر عاما(٢) ، ولما كان موت الشاه عباس فى عام ١٠٣٨ هـ (١٦٢٩ م) فمعنى ذلك أن تاريخ البدء فى بنائه كان عام ١٠٢١ هـ ، ويمكن التوفيق بين الرأيين ، بأن الأمر الصادر ببناء المسجد كان عام ١٠٢٠ هـ وانقضى هذا العام فى هدم النزل الذى كان يشغل المكان قبل بناء المسجد ، وبعد ذلك بدأ العمل فى بنائه عام ١٠٢١ هـ .

وعلى المدخل الرئيسى للمسجد خط أمران ملكيان ، يستفاد منهما بأن الشاه عباس هو الذى أمر ببناء هذا المسجد ، وقد جاء أحد الأمرين مذيلا بتاريخ كتابته ، أما الأمر الآخر فقد خلا من أى تاريخ ، وهذا هو الأمر المذيل بالتاريخ :

« أمر ببناء هذا المسجد الجامع من خالص ماله أشرف خواقين الأرض نسبا ، وأكرمهم حسبا ، وأعظمهم رفعة وشأنا ، وأقواهم حجة وبرهانا ، وأشملهم عدلا وإحسانا ، تراب العتبة المقدسة النبوية ، وقمامة الساحة المطهرة العلوية أبو المظفر عباس الحسينى الموسوى الصفوى بهادرخان ، لازالت رقاب أعاظم الخواقين خاضعة على بابه ، وجباه أفاخم السلاطين معفرة بتراب أعتابه وقد أهدى ثوابه إلى روح جده الأعظم الأكرم الأفخم شاه طهماسب سقى الله ضريحه صوب الرضوان وأسكنه غرف الجنان . كتبه عليرضا العباسى فى سنة ١٠٢٥ »(٣) .

---

(١) عالم آراى عباسى ، جـ ٢ ، ص : ٨٣١ :

(٢) آثار ملى اصفهان ، ص ٦٥٩ ، نقلا عن كتاب (نصف جهان فى تعريف الأصفهان) .

(٣) المرجع السابق ، ص : ٦٦٥ .

ووجود هذا التاريخ جعل البعض يفكرون بأن عام ١٠٢٥ ﻫ كان عام الانتهاء من بناء هذا المسجد الذى يعرف كذلك ـ كما جاء فى الأمر الملكى ـ باسم المسجد الجامع ، وهذا غير صحيح حيث أن بناء هذا المسجد تم على مرحلتين ، المرحلة الأولى وتم فيها بناء المدخل الرئيسى للمسجد ، وهو الواجهة المطلة على ميدان نقش جهان ، وقد تمت هذه المرحلة الأولى فى عام ١٠٢٥ ﻫ حيث كان الشاه حريصا على الانتهاء منها بسرعة حتى تكتمل زينة الميدان ، وهذه المرحلة هى التى أشار إليها الأمر المذيل بالتاريخ ،أما المرحلة الثانية والتى تم فيها بناء بقية المسجد ، فلم يعرف متى انتهت ، حيث قال البعض بأن ذلك كان فى أواخر حكم الشاه عباس ،وقال آخرون بأن ذلك كان بعد وفاة الشاه عباس ، حتى حدد البعض تاريخ الانتهاء منه بعام ١٠٤٠ﻫ[١] أى بعد وفاة الشاه عباس بعامين .

وهذا المسجد له ثلاث قباب وأربعة أروقة ، أكبرها ذلك الرواق المتجه صوب القبلة ، والملاحظ أن قبة الرواق الكبير أعلى من القبتين الأخريين ، وعلى جانبى هذا الرواق الكبير ترتفع أعلى مئذنتين بالمسجد ، وعلى مقربة من محراب ذلك الرواق الكبير يوجد منبر من حجر الرمر ، وقد نحت من قطعة واحدة ، ونصب بعد ذلك فى مكانه . وقد تم استيراد هذا الرمر من رانجون بالهند[٢] . كما أن بواكيه المرتفعة محددة بتجاويف ، ومزدانة بتجاويف داخلية مسقوفة بخزف مطلى بالميناء ومحاطة بإفريز من القرميد المكتوب عليه آيات من القرآن الكريم . كما أن ساحته الداخلية يوجد بها حوض من الرخام[٣] .

---

(١) إيران در زمان صفوية ، ص : ٢٦٧

(٢) آثار ملى اصفهان ص : ٦٦٤

(٣) History of persia, Vol. II p.199

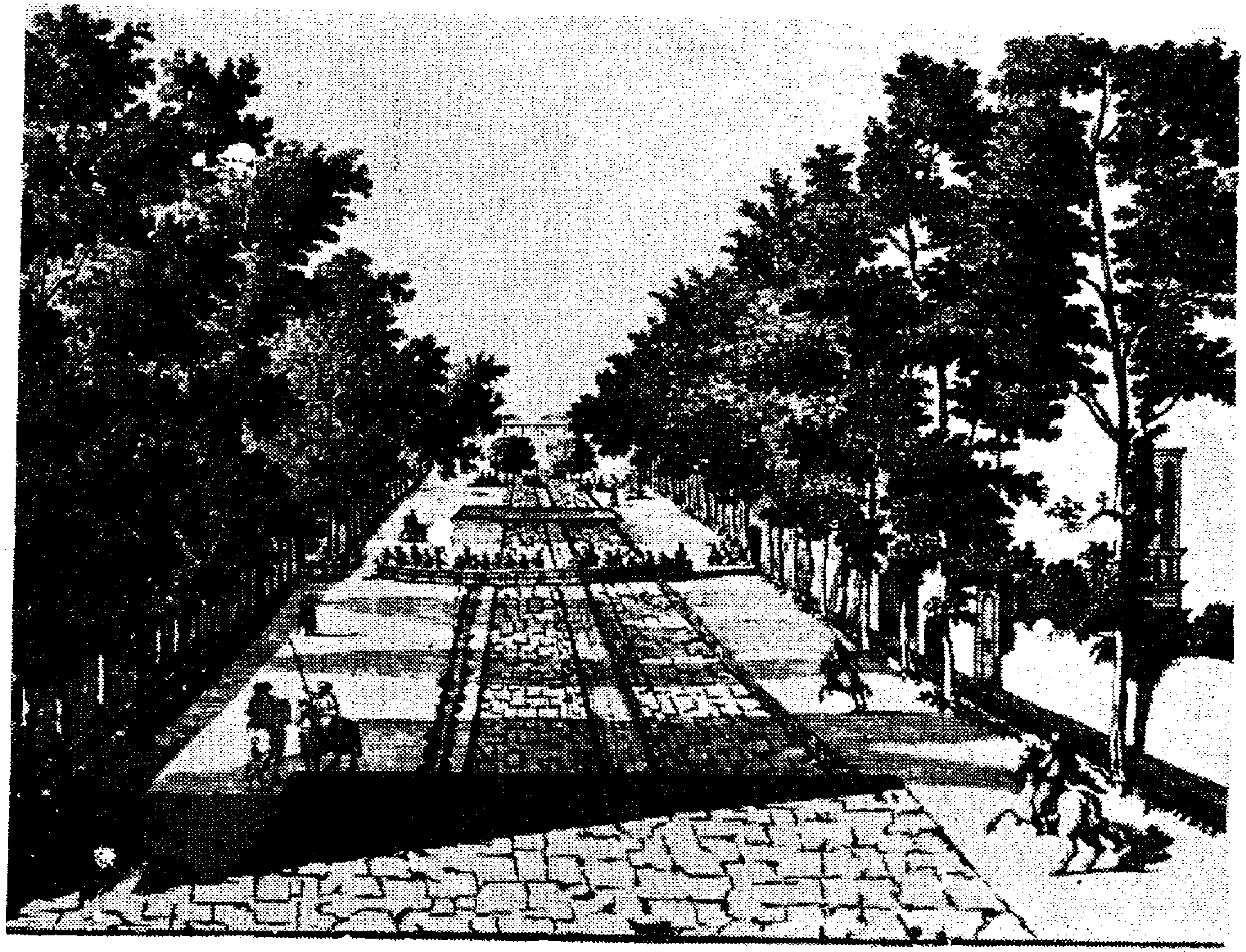

ـ حدائق جهارباغ بأصفهان

٥ — خيابان چهار باغ[١] :

أصدر الشاه عباس أوامره إلى عماله أثناء إنشغالهم ببناء ميدان نقش جهان والمبانى المطلة عليه بشق طريق يربط بين هـــذا الميدان ونهر زاينده رود[٢]، وأن يعبر هذا الطريق النهر بواسطة إنشاء قنطرة عرفت فيما بعد باسم (قنطرة الله وردى خان) ثم يواصل الطريق امتداده بعد ذلك حتى أسفل الجبل الموجود جنوبى أصفهان ، على أن تغرس على جانبى هذا الطريق أربعة صفوف من أشجار الدلب[٣] ، ولهذا عرف باسم شارع الحدائق الأربع ، وقد بلغ طول هذا الطريق أكثر من ثلاثة كيلومترات[٤] .

وعلى مدخل هذا الطريق أقيمت عمارة صغيرة ، كانت عبارة عن إيوان ونوافذ وقد بنيت على هذا الشكل حتى يستطيع الجالس فيها مشاهدة الطريق من مكان مرتفع ، ويكون فى إمكانه رؤية أكبر قدر من هذا الطريق[٥] ، وقد عرفت هذه العمارة باسم « جهان نما » أى « الكاشفة للدنيا » ، وقد عرف هذا القسم الذى يربط بين جهان نما ونهر زاينده رود باسم : « طريق چهار باغ السفلى » .

كما أنشئت فى نهاية الطريق حديقة عظيمة واسعة متدرجة بين مرتفع ومنخفض ، تصل إلى تسع طبقات ، وأطلق عليها حديقة « عباس آباد » ،

---

(١) أى طريق الحدائق الأربع .

(٢) عالم آراى عباس ؛ ص : ٥٤٤ - ٥٤٥ .

(٣) إيران در زمان صفويه ، ص : ٢٦٥

(٤) جغرافياى مفصل إيران ، ج ٢ ، ص ٤١٤

(٥) آثار ملى أصفهان ، ص : ١٦٤

وأنشىء وسط الحديقة قصر عظيم عرف باسم (هزار جريب)[1] أى (البالغ مساحته ألف ألف متر) . وقد عرف هذا الجزء الممتد من نهر زاينده رود حتى قصر هزار جريب باسم « چهار باغ العليا » .

ولكى يضمن الشاه عباس سرعة تجميل الشارع وزراعته بالحدائق ، فقد قسمه على أمراء الدولة وأعيانها ، وذلك لكى يتولى كل واحد منهم إنشاء حديقة فى القسم الذى وكل إليه به .

وقد أجمع السائحون الأوربيون الذين زاروا إيران خلال عصر الدولة الصفوية على أن هذا الطريق كان غاية فى الذوق والجمال ، فقد قال شاردن الفرنسى مثلا : إن طريق چهار باغ يعد أجمل طريق رأته عينه[2] .

وكان الإيرانيون يخرجون للتنزه فى حدائق هـــذا الطريق ، للتمتع بمناظره الجميلة ، وبرائحة الورود المنتشرة على جانبيه ، وقد أصدر الشاه عباس أوامره بأن تخصص بعض الأيام لخروج النساء وليتمتعن بالتنزه فى هذا الطريق .

• • •

٦ — قنطرة اللهوردیخان[3] :

أنشئت هذه القنطرة فوق نهر زاينده رود لكى تصل بين قسمى طريق

---

١ - إيران در زمان صفويه ، ص ٢٦٤

٢ - المرجع السابق ، ص : ٢٦٥

٣ - اللهورديخان : قائد جيوش الشاه عباس ، وحاكم فارس من قبله كذلك وكان فى الأصل غلاما أرمنيا اعتنق الإسلام ، وانضم إلى غلمان الشاه الخصوصيين وترقى حتى أصبح رئيس هؤلاء الغلمان ، ثم أسند إليه الشاه عباس الإشراف على المذهبات فى الدولة ، أى الإشراف على ما يرد إلى الدولة من جواهر وفضة =

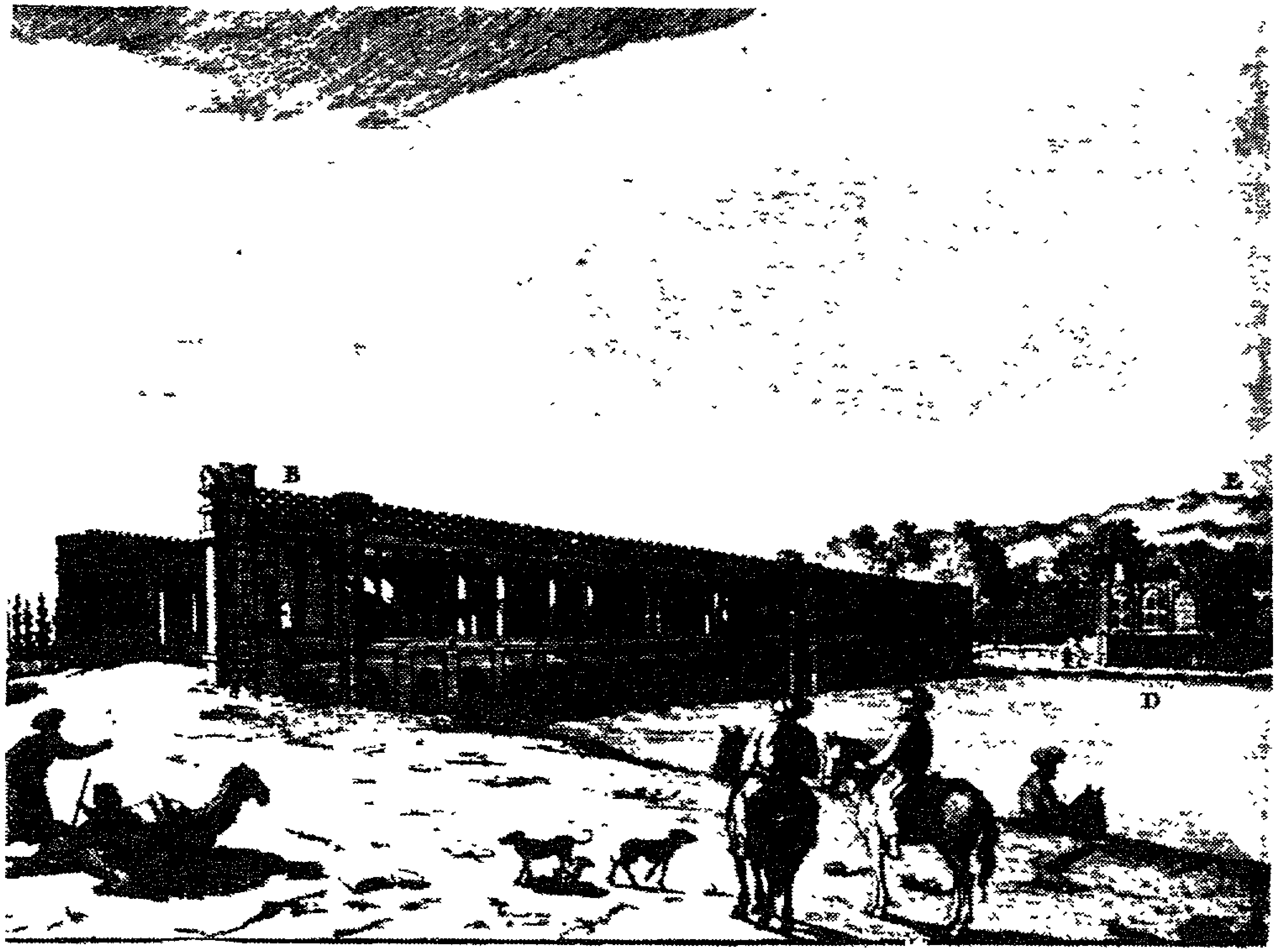

قنطرة الله وردي خان

چهار باغ السفلى والعلوى ، ويقال إن الشاه عباس أمر ببنائها عام ١٠١١هـ[١]
وأوكل أمر بنائها إلى قائده وحاكمه على منطقة فارس وهو اللهورديخان ،
وقد عرفت هذه القنطرة بعدة أسماء منها[٢] :

(ا) قنطرة الشاه عباس . حيث أنشئت فى عصره ، وبأمر منه .

(ب) قنطرة اللهورديخان : إذ أشرف اللهورديخان على بنائها .

(حـ) قنطرة الأربعين فتحة : فقد كانت تضم يوم بنائها أربعين فتحة .

(د) قنطرة الثلاث والثلاثين فتحة :

حيث تهدم من فتحاتها سبع فتحات ، وبقيت منها ثلاث وثلاثون فتحة ، مازالت قائمة حتى اليوم .

(هـ) قنطرة جلفا :

فقد كانت تربط مدينة أصفهان بضاحية جلفا الجديدة التى بناها الشاه عباس ليقيم فيها الأرمن بعد تهجيرهم إليها .

وذكر المؤرخون أن طول هذه القنطرة كان يوم بنائها ٢٠٥ متر ، فى حين كان عرضها ١٣٫٧٥ مترا[٣] ، وتضم هذه القنطرة ستة طرق للعبور ؛

= وذهب ، وما يخرج منها .وفى عام ١٠٠٣هـ أسندت إليه ولاية فارس وقيادة جيوش إيران ، وقد ظل فى فارس حتى عام وفاته فى عام ١٠٢١ هـ ،وقد شارك الشاه عباس فى تشييع جثمانه ، وأمر بأن ينقل ليدفن فى مشهد ، ولكى يكرمه عباس أصدر أوامره بأن يتولى حكم فارس ابن اللهورديخان ويدعى إمامقليخان ، وقد ظل فى منصبه حتى توفى الشاه عباس . وقد سميت القنطرة باسم اللهورديخان لإشرافه على بنائها بتكليف من الشاه عباس الأول . انظر مجلة يادگار سال چهارم ، شماره جهارم ، ص : ٢٩

(١) آثار ملى أصفهان ، ص : ٣١٧

(٢) آثار ملى أصفهان ، ص : ٣١٨

(٣) ايران در زمان صفويه ، ص : ٢٦٤

بيانها كالآتى:[1]

الطريق الأول : وهو الطريق الأوسط ، وقد خصص لعبور الفرسان والعربات .

الطريقان الثانى والثالث : وهما على طرفى القنطرة فى طابقها الأول ، وقد خصصا للمشاة .

الطريقان الرابع والخامس : ويعلوان الطريقين الثانى والثالث ، وكان الناس يصعدون إليهما للفرجة والمشاهدة ، وذلك عن طريق سـلالم جميلة موجودة فى أول القنطرة وآخرها .

الطريق السادس : ويوجد أسفل القنطرة .

لعلنا لاحظنا من خلال الحديث عن طرق عبور القنطرة ، أنها كانت ذات طابقين فقد بنى الطابق أولا ؛ ولكن حدث فى وقت الفيضان أن مياه نهر زاينده رود كانت ترتفع وتغطى الطرق ، مما يعرقل حركة عبور المشاة فوق القنطرة ، لذا أقدم اللهورديخان على بناء الطابق الثانى لضمان انسياب الحركة مهما علت مياه الفيضان .

وقد لفتت هذه القنطرة أنظار الأوربيين الذين زاروا أصفهان أيام حكم الشاه عباس ، أو بعد ذلك ، وأسهبوا فى وصفها والتعبير عن جمال تنفيذها ، ومن هؤلاء شاردن ، وتاورنيه الفرنسيان ، وسايكس الإنجليزى الذى قال عنها : إن هذه القنطرة على الرغم مما أصابها من تهدم وتصدع ، فإنها تعد واحدة من أعظم قناطر العالم[2] .

وهذه القنطرة ما زالت قائمة حتى اليوم ، ويؤمها الخلق للتنزه .

(١) آثار ملى أصفهان ، ص : ٣١٨ ، ٣٢٧

(٢) History of Persia; vol. II p. 201

هذه أهم الآثار التي بنيت فى عصر الشاه عباس ، وتحت إشرافه ، وإلى جانبها توجد بعض المبانى التى شرع الشاه عباس فى بنائها ولكنها لم تكتمل إلا فى عصور سلفه من حكام الدولة الصفوية ، ومن هذه المبانى كاخ چهلستون (أى قصر الأربعين عمودا) ، وكان فى البداية جزءاً من حديقة نقش جهان الملحقة بعمارة عالى قاپو فاقتطع الشاه عباس جزءاً منها وبنى وسطه عمارة على الطراز الأوربى ، ولكن الشاه عباس الثانى زاد عليها الكثير ، وانتهى من البناء عام ١٠٥٧ هـ[١] وعرف المبنى الجديد باسم (كاخ چهلستون) ومن المبانى التى بدأ العمل فيها خلال حكم عباس ولم يكتمل البناء قبل وفاته أيضاً ، قصر هشت بهشت (أى الجنات الثمانى) ، وقد اقتطعت كذلك من حديقة نقش جهان وبنيت فى عهد عباس عمارة صغيرة ، ولكن أعيد بناؤها بصورة كبيرة فى عام ١٠٨٠ هـ أيام حكم الشاه سليمان الصفوى[١] .

كما بنى الشاه عباس ضاحية جلفا الجديدة ، والتى سبق أن أشرت اليها أثناء الحديث عن معاملة الشاه عباس لكل من الأرمن والمسيحيين .

ولاشك أن مابناه الشاه عباس فى أصفهان وما أدخله عليها من تجديدات حسن تخطيط وتزيينات ، أحال أصفهان إلى مدينة يؤمها السياح ويبالغون فى تعظيمها والإشادة بجمالها ، حتى أطلق الجميع عليها فى ذلك الوقت (أصفهان نصف الدنيا)[٢] .

---

(١) آثار ملى أصفهان ، ص : ٢٣٩ وما بعدها

(٢) المرجع السابق ، ص : ٣٣٤

(٣) لمعرفة المزيد عن المبانى التى بناها الشاه عباس فى أصفهان ، يحسن الرجوع إلى المرجع السابق حيث تكلم بالتفصيل عن جميع هذه المبانى ، وأورد صوراً كثيرة لها .

الفصل الرابع

حروب الشاه عباس مع جيران ايران

الشاه عباس الأول (نقلا عن سفرتامة توماس هربرت)

الفصل الرابع

حروب الشاه عباس مع جيران ايران

أولا : مع الأوزبك

— ١ —

مقدمات الهجوم الأوزبكى على خراسان :

بعد أن أحرز مرشد قليخان النصر على عليقليخان فى معركة سوسفيد عام ٩٩٢ هـ (١٥٨٤ م) ، واستطاع أسر عباس ميرزا ونقله للعيش معه فى مشهد ، فقد عليقلخان بذلك ورقة رابحة كان يتخذ هاوسيلة للإشراف على جميع أمراء خراسان، لذا حاول استعادة عباس ميرزا أو قتله بأى طريقة، حتى لا يترك هذه الورقة الرابحة فى يد مرشد قليخان يستغلها فى فرض سلطانه عليه وعلى كل أمراء خراسان ، ولما لم يفلح عليقليخان فى مساعيه هذه بدأ يلجأ إلى أعداء الدولة الصفوية فى المشرق وهم حكام دولة الأوزبك لعلهم يساعدونه فى استعادة سلطانه على خراسان ، فأرسل رسله إلى ما وراء النهر ، وحملهم هدايا عديدة إلى عبد الله خان الأوزبكى الذى توسعت الدولة الأوزبكية فى عهده ، حتى وصلت فى المشرق إلى فرغانة وكاشغر والختن ، ووصلت فى الجنوب إلى بلخ وطخارستان وبدخشان ، ووصلت فى الغرب إلى استراباد التى اغتصبها فى غفلة من حاكمها[1] .

ثم سلمه الرسل رسالة أعلن فيها عليقليخان حرصه على الدخول فى طاعته كما ضمنها التحريض على تقدمه صوب خراسان والاستيلاء عليها ، وقد تعهد فيها بتسليمه مدينة هـــراة بمجرد قدومه إليها ، بل إنه سيساعده فى

---

(١) لغت نامه شماره ٧٦ ص : ٤٢

الاستيلاء على كل ولايات العراق وهمدان بعد ذلك[1] .

ما أن وصل الرسل إلى عبد الله خان الأوزبكى ، حتى أخذ يعد العدة للتقدم بجيوشه نحو خراسان، ولكن هذا الإعداد احتاج إلى بعض الوقت،مما دفع عليقليخان لإرسال وفد آخر صوب ماوراء النهر ، ليستحث عبد الله خان للاسراع بالتقدم صوب خراسان، وكان موعد توجه هذا الوفد الثانى فى بداية عام ٩٩٦ ﻫ (١٥٥٨ م) .

وفى ذلك الوقت كان مرشد قليخان يتقدم ومعه عباس ميرزا صوب هراة بغرض المصالحة مع عليقليخان ، ولكن ما أن اقترب ركبهما من هراة حتى جاءتهما الأنباء بتقدم عبـــد الله خان الأوزبكى صوب هراة استجابة لتحريض عليقليخان من جانب، ولحرصه على اقتطاع أجزاء من الدولة الصفوية المعادية من جانب آخر ، وأمام هذا الخطر تراجع مرشد قليخان وعباس ميرزا وعادا أدراجهما إلى مشهد، ومنها واصلا المسيرة نحو قزوين إلا بتعاد عن الخطر الأوزبكى الذى يتهدد منطقة خراسان كلها ، ولينتزع عباس الحكم من أبيه السلطان محمد خدابنده .

— ٢ —

سقوط هراة :

عندما اقترب عبد الله خان الأوزبكى بجيوشه من هراة أرسل إلى عليقليخان لكى يسلم له المدينة بلا حرب، وقد جاء فى رسالته : « . . لقد تحركت لتسخير خراسان بناء على دعوتكم لنا،فإن كنت مازلت على وعدك، فلتخطب باسمى فى هراة منذ اليوم،ولينقش اسمى على النقود، كى أبقيك على حكم هراة أو أنصبك

(١) زندگانى شاه عباس أول ، ج ١ ، ص : ١٢٤

حكومة أى إقليم آخر فى ما وراء النهر، وإن كنت قد رجعت عن قولك ، فتترك هراة ، ولترحل إلى أى مكان تريد . . . »[1] .

ما أن تسلم عليقليخان هذه الرسالة ، حتى اعتراه الخجل والندم ، وبدأ يبذل قصارى جهده فى الاستعداد لصد الهجوم الأوزبكى ، ولكن عبد الله خان استطاع التقدم ومحاصرة قلعة هراة ، واستمر حصاره لها مدة أحد عشر شهراً ، لاستماتة جيش عليقليخان فى الذود عن القلعة ؛ على الرغم من قله المؤن وتفشى الأمراض والأوبئة بين الجنود ، وقد كان عليقليخان يأمل طوال هذه الفترة أن تصله الإمدادات العسكرية من العاصمة قزوين ، ولكن العاصمة كانت مشغولة بالنزاع بين عباس وبين السلطان محمد خدابنده ، فلم يكن هناك من يهتم بمشاكل خراسان وما يتهددها من خطر أوزبكى .

وبعد أن نجح الشاه عباس فى انتزاع السلطنة من أبيه ، كان حريصاً على تقديم العون العسكرى لمربيه الأول عليقليخان ، فكان يصدر فى كل يوم أوامره لمرشد قليخان المسيطر على كل شىء فى الدولة الصفوية ، بالإسراع فى إرسال العتاد والجنود صوب هراة لإنقـــاذ عليقليخان ومن معه من جنود القزلباش ، ولكن مرشد قليخان تباطأ فى تنفيذ أوامر الشاه عباس المتكررة لما كان بينه وبين عليقليخان من ضغائن سابقة ، وخوفا من عودة العلاقات الودية بين عباس ومربيه الأول ، مما يهدد مكانته وسيطرته على الشاه عباس وعلى الدولة الصفوية كلها .

وظل مرشد قليخان يسوّف ويماطل حتى فقد عليقليخان كل مقدرة على المقاومة ، وبدأت الهزيمة تحل به ، مما اضطره ومعه جمع من القواد إلى ترك قلعة هراة ، والتوجه صوب قلعة أخرى صغيرة ، تقع على مقربة من قلعة هراة

---

١ ـ زندگانى شاه عباس أول ، ج ١ ، ص: ١٢٥

وعلى أثر فرارهم دخل الأوزبك قلعة هراة ، وقتلوا عدداً كبيراً من رجال القزلباش ، كما أسروا عدداً كبيراً من نساء قبيلة شاملو وصبيتها . وتم إرسال السبايا إلى ما وراء النهر(١) .

أما عن عليقليخان ، فإنه لم يستطع ومن معه من الجنود والقواد الصمود في القلعة التي لجأوا إليها إلا لمدة يومين فقط ، ثم سقطوا أسرى في أيدي الأوزبك حيث نفذوا فيهم حكم الاعدام في أكبر حديقة بمدينة هراة ، وكان ذلك في ربيع الأول عام ٩٩٧ هـ (١٥٩٩ م)(٢) .

— ٣ —

تحرك الشاه عباس صوب خراسان وتراجعه :

ما أن وصلت أنباء سقوط هراة ومقتل عليقليخان إلى العاصمة قزوين ، حتى سارع مرشد قليخان بإعداد الجنود والعتاد بعد أن اطمأن على التخلص من غريمه ، وخرج الجيش الصفوي يتقدمه الشاه عباس ومرشد قليخان وجمع كبير من قواد القزلباش ، وسلك الجيش الطريق إلى هراة ، وكان الشاه عباس في ضيق شديد من مسلك مرشد قليخان الذي اتسم بالتراخي والإهمال فصمم على التخلص منه انتقاماً لمقتل مربيه الأول عليقليخان ، ولسقوط هراة في أيدي أعداء إيران من الأوزبك ، وما أن وصل الجيش الصفوي إلى مدينة بسطام حتى نفذ ماعزم عليه من اغتيال لمرشد قليخان(٣) .

بعد ذلك واصل الجيش الصفوي مسيرته صوب خراسان ، لطرد الجيش الأوزبكي الذين يواصل تقدمه بغية الاستيلاء على مدينة مشهد وما يجاورها

(١) ملحقات تاريخ روضة الصفا ، جـ ٨ ، ص : ٢٣٨
(٢) زندگاني شاه عباس أول ، جـ ١ ، ص : ١٢٦
(٣) راجع قصة التخلص من مرشد قليخان ص: ٥٠ وما بعدها من هذا الكتاب.

من مدن ، ولكن وردت أنباء إلى الشاه عباس وهو فى الطريق بأن فرهاد باشا القائد العثمانى قد تقدم بجيشه صوب قراباغ بآذربايجان، وأنه احتل گنجه كما تقدم چغال أو من ناحية بغداد صوب همدان ونهاوند[1] .

وهنا أدرك الشاه عباس بأن موقفه أصبح غاية فى الدقة والحرج ، إذ تتعرض دولته لهجوم أوزبكى من الشرق ، وهجوم عثمانى من الغرب ، كما توجد بعض الفتن الداخلية التى يقوم بها عدد من قواد القزلباش وحكام الأقاليم أملا فى الإبقاء على سيطرتهم ، وأمام هذه الأخطار جميعها ، آثر الشاه عباس العودة إلى قزوين ، والتخلى عن دفع الأوزبك حتى يوقف الغزو العثمانى ويقضى على الفتن الداخلية[2]

وبعد فترة من عودة الشاه عباس إلى العاصمة استطاع القضاء على عدد من الفتن الداخلية ، كما نجح فى عقد معاهدة صلح مع العثمانيين ، تنازل لهم بمقتضاها عن جميع المناطق التى احتلوها فى آذربايجان والعراق العجمى ، وذلك لكى يؤمن ظهره إذا تقدم صوب خراسان لصد الأوزبك .

— ٤ —

سقوط مشهد :

لا شك أن الهجوم العثمانى وما ترتب عليه من عودة الشاه عباس إلى قزوين، أتاح فرصة سانحة للأوزبك لكى يواصلوا زحفهم فى خراسان، وإشاعة الفوضى والاضطراب ونشر الخراب والدمار بكل شىء ، فتقدمت جيوش عبد الله خان الأوزبكى غربا واحتلت بعض المدن الواقعة بين هراة ومشهد ، ثم تقدم عبد الله خان صوب مشهد وحاصرها ، ونهبت جيوشه الحبوس الكثيرة التى

---

(١) ملحقات تاريخ روضة الصفا جـ ٨ ، ص ٢٥٢

(٢) تاريخ إيران أز مغول تا افشارية ؛ ص : ٣١٢

كانت موقوفة على زوار ضريح الإمام الرضا ، مما جعل القائمين على الضريح يكتبون إلى عبد الله خان يسألونه كيف تسمح له مشاعره الدينية بأن يدمر جيشه ممتلكات الإمام ، فيقضى بذلك على موارد يعيش من فيضها آلاف كثيرة من الحجاج الأتقياء وفيهم كثير من أهل السنة .

وهنالك انبرى للرد عليهم من كان بمعسكر الأوزبك من شيوخ أهل السنة، فحملوا بعامة الشيعة حملة شعواء طويلة،واحتجوا بأن أصحاب هذا المذهب هم على مقتضى أحكام السنة أشد كفراً من المشركين الذين أمر الله بقتلهم والقضاء عليهم:

« فإذا كان فرضا على كل مسلم أن يقاتل المشركين ، فأولى به أن يحاسب الذين حادوا عن طريق الحق ، وهم - أى الشيعة - برغم صلتهم بذلك الولى الذى ترقد عظامه بين ظهرانيهم ، قد سقطوا فى حمأة الضلال المبين »(1) .

وعندما فشلت محاولات المشايخ فى رد الهجمة الأوزبكية أرسل حاكم مشهد الصفوى « أمت الله خان استاجلو » إلى الشاه عباس يطلب النجدة والعون ، فانتظر الشاه حتى استتب الوضع الداخلى ، وتوقف الخطر العثمانى ، ثم أعد العدة وتحرك بالجيش قاصداً خراسان ، ولكن ما أن وصل الجيش إلى منطقة طهران الحالية وعسكر هناك حتى تفشى الوباء العام بين الجنود ، ودهم المرض الشاه عباس نفسه ، ولم يعد فى مقدور الشاه وجيشه مواصلة التقدم . فكانت أنباء هذا المرض وتفشى الوباء دافعاً للجيش الأوزبكى لتشديد حملته على مشهد، كما كان عاملا مهما فى إضعاف الروح القتالية لدى جنود القزلباش المحاصرين بداخل قلعتها. مما أدى إلى سقوطها بعد حصار دام أربعة أشهر(2) .

وقد أشاع الأوزبك القتل العام بالمدينة ، كما أغاروا على كل شىء بها ؛

---

(1) ارمينيوس فامبرى : تاريخ بخارى، ترجمة الدكتور أحمد محمود الساداتى القاهرة ١٩٦٥م ، ص : ٣٤٢

(2) ملحقات تاريخ روضة الصفا ، ج ٨ ، ص : ٢٥٣

فحاول العديدون من سكانها الاحتماء بقبر الإمام الرضا ، ولكن الأوزبك أطلقوا عليهم السهام وقتلوا عدداً كبيراً منهم ، بل إن عبد المؤمن خان بن عبد الله خان والذى تولى قيادة الجيش الأوزبكى بعد عودة أبيه إلى ما وراء النهر ، أمر بالقتل العام وهو واقف فى صحن الضريح دون خجل أو حرج من صاحب الضريح ، كما أغار جنوده على الضريح نفسه واستولوا على المصابيح الذهبية والفضية ، وعلى عدد من المصاحف والمخطوطات التى قيل إنها كتبت بخطوط الأئمة أنفسهم[1] .

كما لم ينج من خطر الأوزبك السنيين الأموات فى مقابرهم ، حيث أقدم جنودهم على نبش قبر طهماسب ، وكان مثواه إلى جوار مقام الإمام الرضا ، وذروا فى الريح مابقى من أشلائه مصحوباً باللعنات[2] .

وقد أراد عبد المؤمن أن يكسب ود عدو سنى آخر من أعداء الصفويين حين ينهى إليه خبرا ستيلائه على مشهد ، فبعث بحاجبه محمد قلى إلى السلطان مراد الثالث بالقسطنطينية ، ومع رسالة يصف فيها انتصاراته فى خراسان ، ويصف فيها ما فعله بأشلاء طهماسب ، كما أخبره بأنه ينوى مواصلة الزحف حتى يستولى على العراق (قزوين) ليقضى على أصحاب المذهب الشيعى .

ولكن هذه الخطة الطموحة التى كان عبد المؤمن خان يتطلع للقيام بها ، لم تتحقق لأن العثمانيين عزفوا عن مساعدته ، بل دخلوا فى صلح مع الشاه عباس مكنه من التفرغ لقتال الأوزبك ، كما أن الشاه عباس سرعان ما برأ من مرضه وأخذ يبذل غاية جهده للقضاء على الخطر الأوزبكى فى خراسان[3] .

---

(١) ملحقات تاريخ روضة الصفا ، ج ٨ ، ص : ٢٥٣ ، ٣٥٦

(٢) تاريخ بخارى ، ص ٣٤٥ ، ٣٤٦

(٣) المرجع السابق ، ص : ٣٤٦

بعد ذلك واصل عبد المؤمن خان زحفه ، واستولى على كل من خواف وباخرز وبوشنج وغوريان ، كما حاصر قلعة اسفرايين لمدة أربعة أشهر ، وعلى الرغم من قتل الأوزبك لجميع من كانوا بالقلعة بعد فتحها ، فإن جنود القزلباش — كما يقول مؤلف عالم آراى عباسى — قد قتلوا عددا كبيراً من جنود الأوزبك يقدر بحوالى أربعة آلاف قتيل[1] ثم عاد عبد المؤمن خان بعد هذا الفتح إلى ماوراء النهر استعداداً لجولة أخرى ، أما الشاه عباس فقد عاد بعد شفائه إلى العاصمة لتصريف بعض أمور دولته، والقضاء على الفتن الداخلية التى أطلت برأسها من جديد .

— ٥ —

تقدم عباس صوب خرسان ، وتحرير مشهد :

وفى ١٠٠١ هـ (١٥٩٣م) تقدم الشاه عباس على رأس جيش كبير قاصدا خراسان . وعندما وصل الركب إلى مدينة بسطام عسكر فيها فترة ، لينظم صفوفه ، ثم واصل تقدمه بعد ذلك ، وما أن اقترب الجيش الصفوى من مدينة مشهد أرسل عبد المؤمن خان رسالة إلى الشاه عباس قال فيها : « . . . إننا مستعدون للسلم والحرب معا ، فإن كنتم تودون السلم فاتركوا لنا خراسان ، وعودوا إلى العراق (قزوين) وإن ترغبوا فى الحرب ، فتقدموا ! » .

فرد الشاه عباس برسالة قال فيها : « نحن بفضل الله واثقون ، ولن نتخلى عن حكم خراسان التى ورثناها منذ مائة عام ، فإن تتخلوا عن أرض خراسان، نقبل المصالحة، ولن نتدخل فى حكم أراضيكم ، وإلا فنحن للحرب مستعدون، ولها نتقدم باشتياق من العراق إلى خراسان، وإننا على استعداد للنزال فى أى مكان[2] .

(١) عالم آراى عباسى ، جـ ٢ ، ص : ٤٢٥

(٢) ملحقات تاريخ روضة الصفا ، جـ ٨ ، ص : ٢٦٤

أمام هذا الرد العنيف من الشاه عباس بدأت الرهبة والتوجس والخشية تدب فى قلوب بعض قواد الأوزبك لذا تخلى كثيرون منهم عن البلاد التى يحتلونها فى خراسان ، وبدأوا يتجمعون فى مشهد ، وذلك لكى يتصدوا للشاه عباس وجيشه كجبهة واحـــدة قوية ، ولمعرفتهم بأن الشاه عباس حريص على مشهد ولا يريد إلحاق الدمار والخراب بها ، مما يجوز معه عدم مهاجمته لهم فى تلك المدينة المقدسة ، أما عن عبد المؤمن خان فقد تراجع عن نيسابور وعسكر فى مدينة جام ، ومن هناك أرسل للشاه عباس رسالة أخرى أكثر رقة وأدبا من سابقتها ، لعله بذلك يخطب وده ويعيده دون قتال ، ولكن الشاه عباس لم يأبه بهذه الرسالة الودية ، وتقدم صوب نيسابور واستعادها دون قتال ، كما استعاد كلا من سبزوار وجاجرم ، ثم واصل زحفه حتى أصبح على مشارف مدينة مشهد ، وهناك دهمه الشتاء واشتدت البرودة وتساقطت الثلوج ، ولم يعد المكان مناسبا لإقامته ، فاضطر للعودة صوب قزوين ، تاركا المنطقة تحت إشراف درويش محمد خان ومعه عدد كبير من الجند(١)

وبعد ذلك حدث خلاف بين نور محمد خان والى مرو واوكنج ، وبين حاجى محمد خان حاكم خوارزم ، فرغب عبدالله الأوزبكى استثمار هذا الخلاف لمصلحته ، حيث كان يبغى الاستيلاء على أملاك هذين الأميرين على الرغم من أن أحدهما وهو والى مرو كان ابن عم عبدالله خان ، وقد تمكن من طردهما من ديارهما واستولى على أملاكهما ، مما دفعهما للجوء إلى الشاه عباس طلبا للعون ، والمساعدة فى استرداد المناطق التى طردا منها(٢) . ولاشك أن ضم تلك المناطق إلى مالك عبدالله خان الأوزبكى كان سببا فى شعوره بالقوة والزهو ،

---

(١) تاريخ إيران از مغول تا افشاريه ، ص : ٣١٥

(٢) زندگانى شاه عباس اول ، ج ٤ ، ص ١٢٨

وشجعه ذلك على معاودة الهجوم على خراسان ، واغتصاب أراضى جديدة وضمها إلى مملكته .

وفى عام ١٠٠٤ هـ (١٥٩٦ م) جمع الشاه عباس جيوشه وتوجه بها صوب خراسان، وتقدم حتى أصبح على مقربة من اسفرايين الخاضعة لنفوذ الأوزبك ، فاضطر عبد المؤمن خان إلى التراجع عنها حيث كانت عادة الأوزبك التراجع السريع إذا أحسوا باقتراب الجيش الإيرانى منهم ، كما أرسل عبد المؤمن رسالة إلى الشاه عباس يطالبه بإغماض عينيه عن خراسان ، والقناعة بملك العراق ، إلا أن الشاه عباس رد عليه برسالة عنيفة مليئة بالتهديد والوعيد ، وتقدم بعدها واستعاد السيطرة على قلعة اسفرايين ، ولكنه بدلا من أن يتوجه صوب سبزوار ونيسابور ثم مشهد فإنه توجه صوب استراباد فى طريق عودته إلى قزوين ، مما شجع عبد المؤمن خان على معاودة الهجوم على اسفرايين ، وإحداث قتل عام فى سبزوار ، فاضطر الشاه للعودة صوب سبزوار حيث استعادها ، وتقدم منها صوب نيسابور ، ولكنه عاد إلى قزوين مع مقدم الشتاء(١) .

ظل الحال فى خراسان على هذا المنوال ، حيث يحدث هجوم أوزبكى يعقبه مقدم الشاه عباس لصدهم ، ثم معاودة الهجوم بعد عودته إلى قزوين ، إلى أن جاء عام ١٠٠٦هـ (١٥٩٨) ، حيث حدث خلاف بين عبد الله خان سلطان الأوزبك ، وابنه عبد المؤمن خان ، وكاد الموقف ينتهى بينهما إلى الحرب ، ولكن حدث أن مرض عبد الله خان وتوفى ، فتولى عبد المؤمن خان حكم الأوزبك ، وتم تنصيبه مكان أبيه(٢) .

---

(١) زندگانى شاه عباس أول ، ج ٤ ، ص : ١٣٤

(٢) تاريخ إيران از مغول تا أفشاريه . ص : ٣١٧

ولاشك أن هذا الخلاف بين عبد المؤمن وأبيه قد أضعف الروح القتالية لدى جيش الأوزبك مما شجع الشاه عباس على التوجه صوب خراسان للقضاء على الخطر الأوزبكى وطردهم من جميع أراضى خراسان التى احتلوها ،وأمر بأن تتقدم جميع الجيوش الإيرانية نحو خراسان ، وأن تكون منطقة بسطام، مكان الالتقاء والتمركز . فسلكت جميع الجيوش الإيرانية طريق الشمال ، عدا جيوش فارس وكرمان التى سلكت طريق يزد عبر صحراء كوير،وأخيرا التقت الجيوش الصفوية فى بسطام حيث تم تنظيمها استعداداً للهجوم العام ضد الأوزبك[1] .

بعد ذلك تقدم الجيش الصفوى بقيادة فرهادخان من بسطام قاصدا نيسابور وتم له استعادتها بلا مشقة ، ثم تقدمت طلائع الجيش الصوفى صوب مشهد ، وعلى مقربة منها وصلت الأنباء بمقتل عبد المؤمن خان الأوزبكى ، بعد أن ثار القواد ضده لظلمه وطغيانه ، فأشعل هذا الخبر حماس الجنود الإيرانيين الذين تقدموا نحو مشهد واستطاعوا دخولها بلاعناء ، وذلك فى اليوم الخامس والعشرين من ذى الحجة عام ١٠٠٧ هـ (١٥٩٩)[2] . وبعد ذلك صمم الشاه عباس على التوجه صوب هراة لكى يحررها .

أما عن الأوزبك فقد ثارت الخلافات فيما بينهم بعد مقتل عبد المؤمن خان ، وأعلن ثلاثة منهم تولى الحكم ، حيث أعلن پير محمد خان نفسه ملكا على بخارى ، ونصب عبد الأمين خان نفسه ملكا على بلخ ، فى حين تولى دين محمد خان ملك هراة[3].

---

(١) ملحقات تاريخ روضة الصفا جـ ٨ ، ص: ٣٠٩

(٢) زندگانى شاه عباس أول جـ ٤ ، ص : ١٣٥

(٣) المرجع السابق ونفس الصفحة .

تحرير هراة والتخلص من الخطر الأوزبكى :

تقدم الشاه عباس بجنوده صوب هراة ليحررها من دين محمدخان ، وأصدر أوامره إلى قائد جيشه فرهاد خان بأن يستدرج الأوزبك للقتال خارج هراة ، حتى لا يلحق أى دمار بالمدينة التى ولد فيها عباس وتربى فيها ، لذا ما أن اقترب جنود عباس من مشهد حتى تظاهروا بالتراجع خوفا من الهزيمة ، فانخدع دين محمد خان بهذا التراجع ، وأمر جنوده بالخروج إليهم وتعقبهم خارج هراة ، وعلى بعد أربعة فراسخ من المدينة دارت معركة حامية بين الجيشين ، وقد تمكن الجيش الأوزبكى من إحراز النصر فى الجولة الأولى ، فاتهم الشاه عباس قائده فرهادخان بالتراخى فى الدفاع والحرب ، ثم أمر باغتياله،(١) وتولى قيادة

(١) ملحقات تاريخ روضة الصفا ، ج ٨ ، ص ٣١٦ — ٣١٨ . وقد كتب المؤلف ، قصة حياة فرهاد خان ولماذا أمر الشاه عباس باغتياله ، وهذا ملخص القصة : كان فرهادخان أحد قواد الجيش الصفوى إبان حكم السلطان محمد خدابنده . ولكن عندما اشتدت الاضطرابات فى ذلك الوقت ، نزع فرهادخان وأخوته إلى الدولة العثمانية التى لم ترض عن مقدمهم ، وأقدمت على قتل أخيه الأكبر رستم خان ، مما اضطره للهرب إلى إيران مرة أخرى ، والتحق بجيش القزلباش من جديد . وعندما تولى الشاه عباس الحكم أسند إليه منصب القائد العام لجيوشه كما ولاه إمارة آذربايجان ، فقدم فرهادخان العديد من الخدمات للشاه عباس فى السنوات الأولى من حكمه ، حيث ساعده فى القضاء على كثير من الفتن الداخلية ، ولكن حدث فى الفترة الأخيرة أن فقد الشاه عباس ثقته فى إخلاصه ، وبدأ يشم منه رائحة النفاق ، مما جعله يضعه موضع التجربة ، حتى وقعت الحرب بين الجيش الصفوى ودين محمد خان الأوزبكى على مقربة من هراة ، وقد تولى فرهاد خان قيادة مقدمة الجيش الصفوى المهاجم هراة ، إلا أنه لم يكن حازما شجاعا فى خوض غمار الحرب ، بل إنه آثر الفرار وتحمل الهزيمة على الرغم من كثرة عدد الجنود معه ، فتيقن الشاه بأن فرهاد خان هو الذى افتعل الهزيمة متعمدا ، وبخاصة أنه عندما فر لم يرجع إلى حيث يوجد الشاه ، بل سلك طريقا آخر ، وعندئذ أصدر الشاه أوامره للهورديخان وجمع من القواد باغتيال فرهادخان ، وتم تنفيذ ما أمر الشاه عباس به .

الجيوش الصفوية بنفسه ، فخاض معركة حامية ، استطاع فى نهايتها إحراز نصر مؤزر على دين محمد خان الذى قتل فى المعركة ، وبعد ذلك تمكن الشاه عباس من استعادة هراة دون أن يلحقها أى دمار من جراء الحرب التى دارت خارج ديارها .

وهكذا استعاد الشاه عباس جميع مدن خراسان ، وحررها من الخطر الأوربكى وأصبح سلطانه يهدد دولة الأوزبك فى ماوراء النهر ، بعد أن ظلوا فترة طويلة مصدر تهديد لأمن الدولة الصفوية ، فقد تقدم الشاه عباس فى عام ١٠١١هـ وحاصر مدينة بلخ ولكنه عاد دون فتحها ، حيث تفشى وباء عام بين جنده ، كما تعرضوا لهجمات شرسة من بدو الأوزبك القاطنين الصحارى المحيطة ببلخ ، مما اضطر الشاه عباس لإنهاء حصاره والعودة دون أن يحقق هدفه من حملته [(١)] .

كما أصبح الشاه عباس الملاذ والملجأ لبعض حكام الأوزبك إذا ألم بهم أى خطر ، فقد حدث فى عام ١٠٢٠ هـ أن فقد ولى خان الأوزبكى عرشه الذى تولاه عام ١٠١٤ هـ ، فلجأ إلى الشاه عباس لكى يعيده إلى عرشه ويقضى على مغتصبيه، فأحسن الشاه عباس وفادته ، ولكن نتيجة لانشغال الجيش الصفوى بالحروب مع الدولة العثمانية اكتفى الشاه عباس بإمداده بالمال دون الرجال، وأوكل أمره إلى أحد قواده لكى يصحبه حتى خراسان ، ومن هناك يتسلل إلى ماوراء النهر لينظم أتباعه ويحاول استرداد ملكه ، وقد فعل هذا، ولكنه هزم وقتل بعد ذلك [(٢)] .

وعلى الرغم من انتصار الشاه عباس على الأوزبك وتيقنه من ضعفهم

---

(١) تاريخ بخارى ، ص : ٣٦٦

(٢) زندگانى شاه عباس أول ، ج ٤ ، ص ١٣٧ - ١٣٩

وعدم مقدرتهم على معاودة الهجوم على خراسان ؟ إلا أنه كان يرغب فى تأمين حدوده المشتركة معهم ، حتى لا ينتهزوا فرصة إنشغاله بالحرب مع الدولة العثمانية ، ويحاول بعضهم التطاول على أراضى الدولة الصفوية ، لذا أمر الشاه عباس بنقل عدد كبير من القبائل الكردية من كردستان إلى حدود خراسان الشرقية ، وذلك ليكونوا بمثابة منطقة عازلة بين الأوزبك وخراسان ، ولكى يتحمل هؤلاء الأكراد أى خطر قد تتعرض له المدن الخراسانية مستقبلا (١).

وهكذا أمن الشاه عباس حدوده الشرقية ، وأطمأن على المدن الخرسانية ، ولم يعد الأوزبك يمثلون أى خطورة على دولته ، بل أصبحوا يخشون سطوة عباس ونفوذه ، وبذلك يكون عباس قد نجح بانتصاره على الأوزبك فى التغلب على أول معسكر سنى كان يهدد دولته الشيعية المذهب .

---

(١) History of Persia Vol II. p. 174

ثانيا: حروب الشاه عباس مع العثمانيين

- ١ -

معاهدة ٩٩٨ هـ (١٥٩٠ م):

انتهز العثمانيون فرصة الاضطرابات التى اجتاحت إيران خلال فترة حكم كل من الشاه اسماعيل الثانى والسلطان محمد خدا بنده، حيث هاجمت قواتهم الأراضى الإيرانية واستولت على أجزاء كبيرة منها، فقد استولى فرهاد باشا على قراباغ وضمها إلى كنجه التى كان يسيطر عليها من قبل، كما أن جعفر باشا حاكم تبريز العثمانى مد سيطرته على جميع المناطق المجاورة لتبريز حتى منطقة سراب، وفى جبهة العراق تمكن جغال أو غلى مد سيطرته حتى مدينة نهاوند وحدود لرستان، كما بنى قلعة كبيرة فى نهاوند [١].

وعندما تولى الشاه عباس الحكم، كانت المناطق الغربية من دولته تتعرض للهجوم العثمانى بين آونة وأخرى، وما أن خرج من العاصمة قزوين قاصدا خراسان لدفع القوات الأوزبكية المغيرة، حتى فوجىء بهجوم عثمانى جديد على مناطق آذربايجان وولايات إيران الغربية، فاضطر الشاه عباس للعودة إلى قزوين، والسعى من أجل عقد معاهدة صلح مع العثمانيين، حتى يوقف زحفهم المنتصر، ويفرغ بعد ذلك لمحاربة الأوزبك. وتحقق للشاه عباس ما تطلع إليه، وقبل العثمانيون الدخول فى مفاوضات لعقد معاهدة صلح بين الطرفين، وقد جرت المفاوضات فى اسطانبول عاصمة العثمانيين الذين فرضوا شروط المنتصر على الشاه عباس المغلوب على أمره، وقد تم التوقيع على هذه المعاهدة فى نيروز

---

(١) زندگانى شاه عباس أول، ج: ٥، ص: ٥

عام ٩٩٨ هـ أى فى ٢٢ مارس ١٥٨٠ م ، [١] وقد تضمنت هذه المعاهـــدة الشروط التالية : [٢]

١ ــ أن تتنازل إيران للدولة العثمانية عن حكم تبريز والولايات الغربية من إيران ، أى منطقة العراق العجمى وخوزستان وشماخى وتفليس وجزء من منطقة لرستان .

٢ ــ أن تتوقف إيران عن سب الخلفاء الثلاثة الأول ، وسب السيدة عائشة .

٣ ــ أن يبقى حيدر ميرزا بن حمزة ميرزا أخى الشاه عباس فى اسطنبول كرهينة حتى لا ينقض الشاه عباس هذه المعاهدة . وكان حيدر ميرزا ضمن الوفد الإيرانى الذى سافر إلى اسطنبول لعقد معاهدة الصلح . (وقد ظل حيدر ميرزا فى اسطنبول حتى عام ١٠٠٥ هـ) .

٤ ــ الإفراج عن أسرى الطرفين ، وكان الإيرانيون قد أسروا عدداً من باشوات تركيا ومن بينهم مراد باشا ، وزجوا بهم فى قلعة قهقهة بقراداغ ففك الشاه عباس أسرهم على مضض ، وعلى نفس المنوال تم الإفراج عن الأسرى الإيرانيين ومنهم شاهرخ سلطان مهر دار ، ومهد يقليليخان شاملو وغيرهما ؛ وأعيدوا جميعاً إلى إيران [٣] .

ولعل العثمانيين قبلوا الصلح ـ وكان فى مقدورهم تحقيق المزيد من التوسع والتوغل فى الأراضى الإيرانية ـ لأنهم حققوا بهذه المعاهدة هدفين استراتيجيين

---

(١) خلاصة تاريخ الكرد وكردستان ، ص : ١٧٦

(٢) لغت نامه شماره ٧٦ ، ص : ٤٢

(٣) ملحقات تاريخ روضة الصفا ، جـ ٨ ص ٢٥٨ : ٢٥٩

أولها يتمثل فى تأمين جبهتهم الشرقية؛ حتى يتفرغوا لحروبهم مع المعسكر المسيحى فى أوربا، وثانيهما تمثل فى إيقاف الحملات العدائية التى كانت الدولة الصفوية الشيعية المذهب تشنها ضد المذهب السنى، وضد الخلفاء الراشدين الثلاثة الأول، حيث اعتبر العثمانيون أنفسهم خلفاء الخلفاء، وأن أى معاداة لهؤلاء الخلفاء تعتبر معاداة لهم أيضاً، ومن واجبهم الشرعى التصدى لمثيرى هذه المعاداة .

وبعد توقيع هذه المعاهدة سيطر الهدوء على منطقة الحدود الجديدة بين الدولتين والتى نصت عليها هذه المعاهدة، وانتهت بذلك فترة من الحروب والمناوشات استمرت اثنى عشر عاما، وذلك فى الفترة الممتدة بين عامى ٩٨٥ و ٩٩٨ هـ (١٥٧٧ - ١٥٩٠ م) (١). وكان الشاه عباس حريصا كل الحرص على أن يستمر هذا الهدوء، مهما حدث مايعكر صفوه، وذلك لكى يتفرغ لجبهة خراسان من جانب، ولعدم وجود القدرة لديه فى ذلك الوقت لطرد العثمانيين من المناطق التى استولوا عليها، فعندما ثار خان أحمد حاكم جيلان على الشاه عباس ولجأ إلى الدولة العثمانية حيث أحسنوا استقباله، لم يحتج الشاه على ذلك (٢) ونفس الشيء حدث مع شاهور ديخان حاكم لرستان الذى ثار ضد الشاه عباس، وحاصر قلعة (صدمره) القريبة من خرم آباد وعندما تقدم جيش الشاه لمحاصرته والقضاء على فتنته سارع بالهرب إلى بغداد للاحتماء بالدولة العثمانية المسيطرة على العراق (٣) .

وكان الشاه عباس فى هذه الفترة حريصا على إظهار وده تجاه السلاطين

---

(١) تاريخ أدبيات إيران — جـ ٤ (براون) ص، ٩٩

(٢) راجع ص : ٢٤٣ وما بعدهامن هذا الكتاب

(٣) ملحقات تاريخ روضه الصفا، جـ ٨، ص : ٣٧١

العثمانيين،وأن يسلك معهم طريق الود والخنوع بدلا من القوة والنخوة، حتى أنه إذا أرسل رسالة إلى السلطان العثمانى كان يكتب فى مقدمتها مايقرب من أربعين سطرا بين نثر ونظم فى تعداد مناقب السلطان المرسل إليه الرسالة، كما كان عباس يحاول التظاهر بأنه يعاضد العثمانيين فى حروبهم ضد أوربا ولكنه فى نفس الوقت يحاول الاتفاق مع زعماء المسيحيين الأوربيين للتعاون فيما بينهم وبينه ضد السلطان العثمانى، كما قيل إن الشاه عباس عندما وصلته الأنباء بموت السلطان مراد الثالث عام ١٠٠٣ هـ (١٥٩٥ م)، وتولى مكانه السلطان محمد خان الثالث، أرسل وفدا للعزاء والتهنئة مكونا من ثلاثمائة رجل وعندما وصل الوفد إلى اسطانبول كان السلطان الجديد مشغولا بالحرب فى أوربا، فظل الوفد فى العاصمة العثمانية حتى عاد إليها السلطان وقدم إليه تعازيه فى وفاة مراد الثالث، وتهانيه بتوليه حكم الدولة العثمانية (١).

وبعد أن حقق الجيش الصفوى انتصارات حاسمة على الأوزبك فى خراسان وبدأ الشاه عباس يخطط للدخول فى مواجهة سافرة مع الدولة العثمانية، شعر بأن وجود العاصمة فى قزوين، يجعلها قريبة من أى هجوم عثمانى متوقع، لذا آثر نقل العاصمة إلى أصفهان لتكون بعيدة عن أيدى المغيرين العثمانيين (٢).

كما أخذ الشاه عباس يبذل قصارى جهده فى تقوية جيشه، والتفانى فى تدريبه وتنظيمه وتسليحه، وقد أفاد فى ذلك من مقدم الأخوين شرلى ورفاقهما البريطانيين. حيث أعانوه على إنشاء مصنع للأسلحة النارية وزودوا جيشه بالمدافع، وأحسنوا تدريب جنود القزلباش حتى أصبح الجيش الصفوى قادرا على منازلة الجيش العثمانى، مما شجع الشاه عباس على نقض معاهدة عام ٩٩٨هـ

(١) زندگانى شاه عباس أول. جـ ٥، ص: ٧ وما بعدها

(٢) راجع ص ٢٨٧ وما بعدها من هذا الكتاب

متى واتته الفرصة ، وبخاصة أنه اطمئن إلى هدوء الجبهة الداخلية ، كما حقق الهـــدوء فى الجبهة الشرقية المتاخمة لدولة الأوزبك بعدا نتصاراته الحاسمة عليهم .

— ٢ —

الجولة الحربية الأولى بين جيش الشاه عباس والجيش العثمانى :

بعد أن اطمأن الشاه عباس إلى قوته ، واستقرار أحوال إيران السياسية بدأ يسلك مع السلطان العثمانى مسلـكا مختلفا ، فلم يعد يبدى الخنوع الزائد ، بل أخذ يجهر ببعض شعوره الحقيقى تجاه العثمانيين ألد أعدائه ،ففى عام ١٠٠٧هـ وفد إليه سفير من قبل السلطان محمد الثالث [١٠٠٣ — ١٠١٢ هـ = ١٥٩٥م ١٦٠٣] (١) ، وطلب السفير من الشاه إعادة النظر فى اتفاقية عام ٩٩٨ هـ ، بغرض الحصول على المزيد من الامتيازات ؛ كما طالبه بأن يترك خراسان للأوزبك ـ وصـــل السفير والجيش الصفوى يتقدم لاسترداد مشهد من الأوزبك ـ كما طلب السفير من الشاه عباس أن يرسل ابنه الأكبر ليـكون رهينة فى البلاط العثمانى ـ حيث أن حيدر ميرزا ابن حمزة ميرزا كان قد توفى عام ١٠٠٥ هـ ـ فما كان من الشاه عباس إلا أن قال « إن ابنى هو ولى عهدى ، وسيكون ملـكا من بعدى ، وليس من حقى أن أجعل الملك من بعدى رهينة لدى أى سلطان .. » ثم أمر الشاه بنتف لحية ذلك السفير العثمانى وأن ترسل لحيته على شكل هدية للسلطان العثمانى .(٢)

وقد ساعدته على التصريح بعدائه للعثمانيين ـ إلى جانب قوة جيشه وهدوء

---

(١) سلسله هاى إسلامى ؛ ص : ٢٠٩

(٢) زندگانى شاه عباس أول ، ج : ٥ ، ص : ١٣ ، ١٤

جهته الداخلية وانتصاراته فى خراسان ـ بعض الظروف التى كانت تمر بها الدولة العثمانية نفسها ، واعتبرها الشاه عباس مواتية له ، وهـــذه الظروف تمثلت فيما يلى :

١ ـ بعد وفاة السلطان مراد الثالث (١٠٠٣ هـ ـ ١٥٩٥ م)، ثارت بعض الفتن التى تزعمها بعض الباشوات ، واستمرت بعض هذه الاضطرابات طوال فترة حكم السلطان محمد الثالث [١]، وكانت هذه الأحداث مشجعة للشاه عباس لكى يتخلص من ربقة معاهدة ٩٩٨ هـ التى وقعها مع السلطان الراحل ، كما أن الاضطرابات الداخلية فى الدولة العثمانية ستضعف من موقف جنودها فى الولايات الإيرانية المحتلة ، مما يشجع الشاه عباس على محاربتهم .

٢ ـ كما ثار بعض العامة من رعايا الدولة العثمانية وهم من عرفوا باسم الجلاليين ضد حكومتهم المركزية، واستطاعوا السيطرة على بعض أقاليم تركيا الشرقية ، وعاثوا فيها وفى مناطق آذربايجان فساداً ، وقد حاول السلطان محمد الثالث احتواء ثورتهم ولكن دون جدوى [٢] وعلى الرغم من عبثهم الذى امتد إلى آذربايجان الإيرانية الخاضعة لحكم العثمانيين . فإن الشاه عباس كان يساندهم فى ثورتهم ضد السلطان العثمانى ؛ فعندما زاد ضغط الدولة العثمانية عليهم ، هربوا فى عام ١٠١٧ هـ إلى إيران حيث أحسن الشاه عباس وفادتهم . [٣]

٣ ـ وفى بغداد ثار غلمانها على حاكمها العثمانى وأخرجوه منها ، وولوا

(١) ملحقات تاريخ روضة الصفا ، جـ ٨ ، ص : ٣٤٥
(٢) مختصر تاريخ الكرد وكردستان ، ص : ٢٠٢
(٣) زندگانى عباس أول ، جـ : ٥ ، ص : ٥٦ - ٦١

مكانه أحمد آقا نامى . ونتيجة لهذه الثورة توقفت إمدادات المؤن عن قلعة نهاوند العثمانية ؛ مما دفع معظم حراسها إلى التفرق . ومن بقى منهم ، كانوا يغيرون على القوافل ويسلبون متاعها وأموالها . مما أثار حنق كل من الشاه عباس والدولة العثمانية التى أرسلت قائدا جديدا للإشراف على تلك القلعة . ولكن الأفراد المتبقين بها منعوه من ذلك . بل سلبوه ما كان معه من أموال ومتاع . فشكا هذا القائد ويدعى محمد آقا نامى أمره إلى الشاه عباس ، فعزم عباس على مساعدته ؛ أملا فى تأمين طريق القوافل . ولكن قبل أن يجهز الشاه عباس الجيش الذى سيسير معه لتسخير القلعة ، حدثت فتنة فى تلك القلعة وهاجمها السكان المحيطون بها لكثرة اعتداءات جنودها على ممتلكاتهم . وقد دفعت ثورة الأهالى إلى هرب محمد آقا نامى . مما أغضب الشاه عباس فأصدر أوامره فى عام ١٠١١ هـ إلى قواده بضرورة الاستيلاء على هذه القلعة وهدمها . وتحقق للشاه عباس ما أراد . وتقدمت بعض فرق الجيش الإيرانى واستولت على قلعة نهاوند ، وجعلتها فى مساواة الأرض تماما (١) . وقد كان هذا العمل حافزا للشاه عباس على مواصلة تحديه للدولة العثمانية التى لم تتخذ أى رد عنيف على احتلاله لقلعة نهاوند وهدمها .

٤ — وفى منطقة وار أغار حاكمها العثمانى على التجار الإيرانيين ، واستولى على أموالهم ، مما أثار حفيظة الشاه عباس فعقد العزم على تأديب هذا الحاكم العثمانى ، وكل حاكم آخر يعتدى على الرعايا الإيرانيين . وبخاصة أن معظم حكام مناطق الحدود العثمانيين وحكام منطقة أرمينية الكبرى ومنطقة أرزنة الروم لم يعودوا يحترمون نصوص الاتفاقية المعقودة بين الدولتين عام ٩٩٨ هـ (٢) .

---

(١) ملحقات تاريخ روضة الصفا ، ج : ٨ ، ص ، ٣٤٥

(٢) المرجع السابق ، ونفس الصفحة

٥ ـ حدث فى عام ١٠١١ هـ نزاع مسلح بين الجيش العثمانى المتمركز فى تبريز بقيادة على باشا وبين غازى بيك الكردى حاكم سلماس . مما دفع الأخير إلى إرسال ابنه إلى الشاه عباس يطلب عونه ومساعدته . أما على باشا فقد أعد عدته وتقدم بالقسم الأكبر من جيوشه نحو سلماس ، حيث أطلق يد النهب والسلب ، وقتل العديدين من سكانها (١) .

ولعل خلو تبريز من معظم جنود الحامية العثمانية المتمركزة فيها ، كان أفضل فرصة انتهزها الشاه عباس لبدء هجمومه على آذربايجان ؛ لكى يسترد تبريز وغيرها من المدن التى تنازل عنها بمقتضى اتفاقية عام ٩٩٨ هـ ولكى يقضى على المآسى التى يعيش فيها سكان آذربايجان والولايات الغربية الإيرانية الخاضعة للاحتلال العثمانى .

استرداد تبريز :

انتهز الشاه عباس وجود على باشا خارج تبريز، وأمر بإعداد الجيش الصفوى على وجه السرعة، وأعلن لجنوده أن وجهة التحرك ستكون صوب مازندران، وبدأ الجيش الصفوى تحركه من أصفهان فى يوم الأحد الموافق السابع من ربيع الثانى عام ١٠١٢ هـ (١٦٠٣ م) (٢) . وتقدم الركب صوب كاشان ، ومنها إلى قزوين . وعلى مقربة منها أفصح الشاه عباس لجنوده بأن الغرض الحقيقى لتحركهم تحرير تبريز وطالبهم بسرعة المسير لكى يصلوها قبل عودة على باشا ومن معه من الجند إليها . كما أصدر الشاه أوامره لحاكم قزوين بأن يتبعهم بغلمانه وجيشه ، ونفس الأمر صدر إلى ذى الفقارخان حاكم أردبيل .

---

(١) مختصر تاريخ الكردوكردستان ، ص : ١٩٦

(٢) ملحقات تاريخ روضة الصفا ، جـ ٨ ، ص : ٣٤٦ وما بعدها

وبعد مضى أربعة عشر يوما فقط من مغادرتهم أصفهان، أى فى الحادى والعشرين من ربيع الثانى استطاعوا الوصول إلى مشارف تبريز . وهناك لجأ الشاه عباس إلى الحيلة لكى يتمكن من استرداد المدينة بأقل مجهود . فأمر جماعة من جنده بالتخفى وإبدال ثيابهم العسكرية . ودخول المدينة على أنهم من المواطنين العاديين . كما تقوم مجموعة أخرى من الجنود بالتخفى فى زى التجار الذين يسبقون القوافل التجارية عامة ، حتى يعرف أهالى تبريز أن هناك قافلة قادمة . وبذلك يتم خداع الجنود الأتراك ؛ وفى الساعة المتفق عليها بين الشاه عباس والجنود المتخفين بداخل المدينة يبدأ الهجوم من الداخل والخارج ؛ فيجد الجنود العثمانيون أنه لا قبل لهم بمحاربة هؤلاء وهؤلاء ؛ وبالتالى لا يكون أمامهم إلا التسليم والهزيمة[1] .

ونجحت خطة الشاه عباس ودخل المدينة بلا مشقه تذكر ، فاستقبله الأهالى استقبالا حاراً حيث استطاع تحرير مدينتهم واستردادها بعد أن ظلت تحت الحكم العثمانى زهاء عشرين عاماً[2] .

بعد ذلك أرسل الجنود العثمانيون إلى على باشا من أخبره بدخول الشاه عباس تبريز ، فسارع بعقد صلح مع غازى بيك الكردى ، ليعود مسرعا إلى تبريز على أمل طرد الشاه عباس وجنده منها ؛ وفى طريق عودته تخلى عنه الجنود المنتمون إلى نخجوان وإيروان ؛ مما أضعف جبهته ، وفى مدينة صوفان على بعد ستة فراسخ من تبريز عسكر على باشا ليعيد تنظيم صفوفه ؛ ولكن الشاه عباس عاجلهم واستطاع أن ينزل بهم هزيمة ساحقة . كما تمكن

(١) زندگانى شاه عباس أول جـ ٥ ، ص ٢٢ نقلا عن رحلات شاردن الفرنسى الجزء الثانى ص : ٣٤٢ — ٣٤٣

(٢) تاريخ إيران از مغول تا افشاريه ، ص : ٣٢٥

من أسر على باشا نفسه ؛ وقتل عدد كبير من القواد العثمانيين المصاحبين لعلى باشا الذى أحسن إليه الشاه وأبقى على حياته[1] .

وبعد ذلك تقدم الشاه عباس صوب قلعة تبريز ليحررها من الجنود العثمانيين المرابطين فيها ؛ فأمنهم على حياتهم إذا استسلموا له ؛ وقد تم تسليم القلعة بلا حرب ولا مشقة ؛ وكان ذلك فى يوم الجمعة الثامن عشر من شهر جمادى الأولى عام ١٠١٢ هـ (١٦٠٣ م)[2] . وبعد ذلك أصدر أوامره إلى أهالى تبريز بهدم هذه القلعة كرمز للقضاء على الاحتلال العثمانى فى آذربايجان كلها .

. . .

الاستيلاء على نخجوان وايروان بأرمينيا :

بعد نجاح الشاه عباس فى استرداد تبريز بدأ يعمل جاهدا لاسترداد جميع مدن آذربايجان الواقعة تحت وطأة الاحتلال العسكرى العثمانى ، فأمر جيوشه بالتوجه أولا صوب قلاع نخجوان وايروان، فتقدم ذو الفقار خان الذى تولى إمارة تبريز بعد تحريرها — صوب قلعة نخجوان وحاصرها ، فسارع الجنود العثمانيون بطلب الأمان ، حيث كان عددهم لا يسمح بمقابلة الجيش الصفوى المحاصر لهم ، فأمنهم ذو الفقار على حياتهم، وتسلم منهم القلعة دون قتال[3] .

وبعد ذلك تقدم الجيش الصفوى بقيادة الشاه عباس صوب قلاع ايروان الثلاث ، حيث كانت حامية ايروان مزودة بثلاث قلاع ، إحداها تعرف

(١) ملحقات تاريخ روضة الصفا ، ج ٨ ، ص : ٣٤٨
(٢) زندگانى شاه عباس أول ، ج ٥، ص: ٢٦
(٣) ملحقات تاريخ روضة الصفا ، ج : ٨ ، ص : ٣٥٠

باسم القلعة القديمة ، وقد بنيت عام ٩٩١هـ ، وكانت تقسم بمنعتها وصعوبة الوصول إليها، وفيها يقيم قائد الحامية شريف باشا، وثانيها قلعة (كوزچى)؛ وهى قلعة صغيرة تقع فى الجنوب الغربى من المدينة ، وثالثها قلعة جديدة أمر ببنائها شريف باشا على عجل فى عام ١٠١٢ هـ لتساعد فى صد جيش الشاه عباس، وكانت هذه القلاع تضم حوالى اثنى عشر ألف جندى بقيادة شريف باشا (١) .

تقدم الجيش الصفوى ليحاصر القلاع الثلاث والاستيلاء عليها، كما أصدر أوامره لفرقة المدفعية بالتمهيد للفرق الثلاث وذلك بضرب القلاع ومحاولة القضاء على التحصينات التى قد تعوق تقدم فرق المشاه .

حدث أثناء احتدام المعارك بين جيش الشاه عباس والجيش العثمانى بقيادة شريف باشا، أن وردت الأنباء بوفاة السلطان محمد الثالث، وتولى ابنه السلطان أحمد(٢) وله من العمر ستة عشر عاما . وقد صحب ذلك حدوث بعض الاضطرابات والفتن فى العاصمة العثمانية ، فكانت هذه الأنباء مثبطة للروح القتالية لدى الجنود العثمانيين الذين فقدوا الأمل فى سرعة وصول الإمدادات العسكرية من جانب العاصمة لانشغالها بالاضطرابات والفتن ، فى حين انتهز الجيش الصفوى هذه الفرصة وشدد من هجماته على القلاع الثلاث واستولى على القلعتين الصغيرتين أولا وذلك فى يوم الجمعة الثامن والعشرين من شهر ذى الحجة عام ١٠١٢ هـ ثم ركز أفراده هجومهم على القلعة القديمة حتى سقطت فى أيديهم . واستسلم من بقى منهم على قيد

---

(١) زندگانى فى شاه عباس أول ، ج : ٥ ، ص : ٣٠

(٢) كان ذلك عام ١٠١٢ هـ (١٦٠٣م)

الحياة، فتم أسرهم، وكان من بينهم القائد شريف باشا وعدد كبير من مساعديه العسكريين ، وذكر بعض المؤرخين أن عدد القتلى من الجنود العثمانيين بلغ مايقرب من أربعة آلاف جندى[1] ، أما شريف باشا فقد أحسن الشاه عباس معاملته وبصورة لم يكن يتوقعها شريف باشا نفسه، مما جعله يدخل فى المذهب الشيعى ويستأذن الشاه عباس فى السفر إلى مشهد والإقامة بجوار ضريح الإمام ، فأذن له ، وسافر شريف إلى مشهد وظل بها حتى توفى [2].

وأثناء انشغال الشاه عباس بمحاصرة ايروان، أصدر أوامره إلى اللهوردى خان حاكم فارس بالتقدم على رأس جيش كبير صوب آذربايجان ليقدم العون للجيش المحارب هناك ، فأعد اللهورديخان جيشه، وتقدم به صوب آذربايجان، ولكنه فى الطريق تعارك مع حاكم بغداد العثمانى ، واستطاع محاصرة بغداد ، والتغلب على حاكمها ، ولكنه لم يبق بها ، وآثر مواصلة السير نحو آذربايجان، حيث تدور المعارك الرئيسية بين الجيش الصفوى وبين الحاميات العثمانية فى مدن آذربايجان المختلفة .

— ٣ —

الجولة الحربية الثانية بين جيش الشاه عباس والجيش العثمانى بقيادة چغال أوغلى :

بعد أن حقق الشاه عباس تحرير تبريز والعديد من مدن آذربايجان ، آثر أن يستريح بعض الوقت ، ويلتقط أنفاسه حيث أقبل الشتاء ، ومن عادة الجنود فى هذا الفصل اللجوء إلى الراحة نظراً لشدة البرد وتساقط الثلوج فى

(١) ملحقات تاريخ روضة الصفا، ج: ٨ ، ص: ٣٥٥

(٢) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

منطقة آذربايجان ، لذا سمح للعديدين من أفراد جيشه بالسفر إلى مناطقهم الأصلية لزيارة ذويهم والاطمئنان عليهم (١) ، ثم يعودون بعد ذلك لاستئناف جولة جديدة من الحروب مع الحاميات العثمانية الباقية فى مدن آذربايجان .

أما بالنسبة للدولة العثمانية ، فقد هالها استرداد الشاه عباس لنهاوند ثم تبريز وعدد من مدن آذربايجان مثل نخجوان وإيروان وچغور سعد ، فأمر السلطان أحمد بإعداد جيش عظيم يتولى قيادته الصدر الأعظم والسردار الأكبر سنان باشا المعروف باسم چغال أوغلى،وذلك ليؤدب عباس ويسترجع جميع المناطق التى استولى عليها الجيش الصفوى ، ثم يواصل تقدمه ويسخر إيران كلها ويقضى على الدولة الصفوية .

وتحرك الجيش العثمانى وسار بهمة حتى وصل إلى مدينة قارص على الحدود الإيرانية العثمانية ، وهناك توقف چغال أوغلى لكى ينظم جيشه الكثيف العدد ، وليضع خطته التى يبدأ بها الهجوم على أراضى آذربايجان ، وليختار الطريق الذى سيسلكه للقضاء على الشاه عباس وجيشه .

وكانت أخبار هذه الحملة تصل أولا بأول إلى علم الشاه عباس ، حيث أرسل بعض جواسيسه إلى اسطانبول لإطلاعه على كل تحرك تركى ضده ، فاستطاع بعض هؤلاء الجواسيس مراقبة جيش چغال أوغلى ومعرفة كل أخباره ، وإرسالها فورا إلى الشاه عباس ، حتى يتخذ حذره، وأخيراً وصلته الأنباء بأن الجيش العثمانى سوف يتوجه صوب ايروان ونخجوان حتى يلتقى بالجيش الصفوى هناك ويقضى عليه (٢) ، فوجد الشاه عباس نفسه فى

---

(١) زندگانى شاه عباس أول ، ج : ٥ ، ص: ٣٧

مأزق ، إذ كيف يلتقى بالجيش العثمانى الكثيف العدد والعتاد ، وعدد كبير من جنده قد سافروا إلى ذويهم ، لذا نراه يؤثر التراجع إلى تبريز ، وذلك ليغرى چغال أوغلى بالتقدم داخل أراضى آذربايجان ، وبالتالى لا يكون قريباً من الأراضى العثمانية حتى يصعب إمداده بالرجال والعتاد فى وقت قصير [1] كما أن الشاه عباس أقدم على إحراق كل مظاهر الحياة ووسائل المعيشة في الطريق الذى سيسلكه چغال أوغلى فى هجومه على آذربايجان ، وردم جميع آبار المياه حتى لا يجد الجيش العثمانى أثناء تقدمه غذاء وماء ، وبالتالى تكون الطبيعة خير سلاح يتصدى للجيش العثمانى ويكبده خسائر كثيرة فى الأرواح نتيجة للجوع والعطش ، كما أمر الشاه عباس بترحيل جميع سكان المدن الواقعة على الطريق المتوقع أن يسلكه جغال أوغلى ، وأن يتم إسكانهم بمدن إيران الداخلية ، وقدر البعض عدد من أمر الشاه بترحيلهم بحوالى عشرين ألف نسمة ، كان بينهم عدد كبير من الأرمن ، حيث أسكن بعضهم فى ضاحية جديدة بنيت بجوار أصفهان ، وعرفت الضاحية الجديدة باسم « جلفا الجديدة » .

وللمزيد من الاستعداد أمر الشاه عباس ببناء قلعة جديدة فى تبريز ، وذلك مكان القلعة . التى أمر بهدمها يوم استرداد المدينة فبنيت القلعة على عجل حيث تم بناؤها فى عشرين يوماً فقط ، وذلك فى المدة ما بين الثامن والعشرين من ذى الحجة عام ١٠١٣ هـ (١٦٠٤ م) إلى الثامن عشر من المحرم ١٠١٤ هـ ، وأمر بحفر خندق عظيم يحيط بها ، كما جهزها بمعدات ومؤن تكفى المعسكرين فيها مدة ثلاث سنوات [2] .

---

(١) ملحقات تاريخ روضة الصفا ، ج : ٨ ، ص : ٢٦٢

(٢) زندگانى شاه عباس أول ، ج ٥ ، ص : ٣٧

وعندما استكمل چغال أوغلى استعداداته الحربية ، ونظم عساكره ، تقدم من قارص قاصدا ايروان ونخجوان على الرغم من قسوة الأحوال الجوية وتساقط الثلوج ، فتكبد جيشه العديد من المشاق ، وزاد من هذه المشاق أنهم وجدوا كل شيء فى طريقهم قد أحرق بأمر الشاه عباس . فلم يجدوا أى زاد أوماء بالطريق ، مما دفعهم للتذمر والامتناع عن مواصلة السير ، فاضطر چغال أوغلى للعودة صوب وان بعد أن تحمل الكثير من الخسائر فى الأرواح والمعدات(١) .

وهكذا نجحت خطة الشاه عباس فى استدراج چغال أوغلى وتركه للطبيعة القاسية تحاربه ، وبذلك يحقق نصراً كبيراً دون الدخول فى مواجهة قد يكون الخاسر فيها ، نظراً لكثرة عدد الجيش العثمانى ووفرة أسلحته .

* * *

كانت هزيمة چغال أوغلى وتراجعه ، من العوامل المشجعة للشاه عباس لكى يعاجل الجيش العثمانى ، ويهاجمه فى وان قبل أن يستكمل تنظيم صفوفه المبعثرة ، وقبل أن تصله أى إمدادات عسكرية يعوض بها خسائره فى الأرواح والعتاد ، لذا أصدر الشاه عباس أوامره إلى قائده العام اللهوردى خان بالتقدم السريع صوب وان ومهاجمة الجيش العثمانى المرابط هناك ، وأخذه على غرة ، وعندما اقتربت جيوش القزلباش من بلدة وان فوجىء بمقدمهم چغال أوغلى ، ورأى أن الحكمة تقضى بعدم خروجه لمقابلتهم ، بل يجب احتماؤه بقلعة وان ، فى حين يضرب بقية قواده حصارا حول المدينة من عشرة اتجاهات ، ويتولون الدفاع عنها دون المخاطرة بالهجوم والتقدم لصد الجيش الصفوى ، وعلى الرغم

---

(١) تاريخ إيران از مغول تاافشارية ، ص: ٣٢٧

من كل هذه الاستعدادات فقد بادر الصفويون بالهجوم على مشارف المدينة حتى انتصروا على القوات العثمانية التى تولت الدفاع خارج الأسوار ، مما أجبر هذه القوات على التراجع إلى داخل المدينة للاحتماء بأسوارقلعتها[1].

وأثناء اشتداد المعارك وصلت الأنباء إلى قائد الجيش الصفوى بأن الإمدادات فى طريقها إلى چغال أوغلى ؛ فأصدر أوامره إلى بعض وحداته بالانسلاخ من المعركة والإسراع باعتراض طريق الإمدادات العثمانية ، حتى لا تكون سندا للجيش المحاصر ، ونجحت الوحدات الصفوية فى التغلب على القوات العثمانية القادمة لنجدة الجيش العثمانى فى وان ، كما قامت بعدذلك بمهاجمة جيش چغال أوغلى من الخلف ،[2] مما أشعر چغال أوغلى بأنه فقد كل فرصة للانتصار ، كما أصبح لا قبل له على مواصلة الحرب نتيجة لمقتل عدد كبير من جنوده وانقطاع الإمدادات العثمانية ، مما اضطره إلى الهرب عن طريق بحيرة وان متجها صوب الأراضى العثمانية ، ومعه عدد كبير من قواده ومستشاريه[3]، وقد لحقتهم الهزيمة الثانية فى آذربايجان .

وبعد انتهاء المعركة عاد الجيش الصفوى بقيادة اللهورديخان إلى تبريز حيث يوجد الشاه عباس الذى خرج لاستقبالهم والحفاوة بهم ، وتهنئتهم على النصر الكبير الذى أحرزوه على الجيش العثمانى .

. . .

بعد فرارچغال أوعلى عبر بحيرة وان، أخذ يجمع حوله الجيوش من جديد،

---

(١) ملحقات تاريخ روضة الصفا ، ج ٨ ، ص : ٣٧١

History of Persia Vol, II p, 178. (2)

(٣) ملحقات تاريخ روضة الصفا ، ج ٨ ، ص : ٣٧١

ويستعد لجولة أخرى يحقق فيها النصر على الجيش الصفوى ، وقبل التقدم صوب آذربايجان راسل جميع رؤساء القبائل الذين انتصر عليهم الشاه عباس، وأدخلهم تحت حكمه . ودعاهم فى هذه الرسائل إلى مساندته ومشاركته فى محاربة الشاه عباس، ثم تقدم نحو آذربايجان وعسكر على مقربة من مدينة سلماس .

كان الشاه عباس موجوداً فى ذلك الوقت فى مدينة (خوى) حيث كان يشرف على بناء قلعة جديدة ، فإذا به يتوجه صوب مدينة (مرند) ليكون قريباً من المكان الذى عسكر فيه جيش چغال أوغلى . ومن هنـــاك أرسل عيونه وجواسيسه لكى يستطلعوا أحوال الجيش العثمانى القادم للانتقام من الهزائم السابقة . فأخبره هؤلاء العيون بأن الجيش العثمانى يبلغ زهاء المائة ألف جندى . مما جعل الشاه عباس يتوجس خيفة من لقاء الأتراك ، وجَدَّ فى جمع أكبر عدد من الجنود حتى وصل تعداد جيشه إلى ما يقرب من اثنين وستين ألف جندى [1] . وعلى الرغم من ذلك فقد فكر فى التراجع صوب تبريز وإحراق كل مظاهر الحياة بين مرند وتبريز . وذلك لكى يصل جيش چغال أوغلى إلى تبريز منهوك القوى ، فيستطيع الجيش الصفوى الظفر به ، والانتصار عليه . ولكن قواده رفضوا فكرة التراجع حتى لا يكون ذلك حافزا للجيش العثمانى على مهاجمتهم . فاقترح اللهورديخان القائد العام للجيش الصفوى فى ذلك الوقت أن يلزم الجيش الصفوى الدفاع ، وألا يبادر بالهجوم . فاعترض بعض القواد قائلين : إن إحجامنا عن التقدم معناه تشجيع العثمانيين على مواصلة التقدم كما أن الحلم فى بعض المواضع ذلة ! [2] .

وأمام إصرار القواد ، أمر الشاه عباس ببدء الهجوم ، ورأى أن يقود

---

(١) لغت نامه شمارة ٧٦ ، ص : ٤٢

(٢) ملحقات تاريخ روضة الصفا ج ، ٨ ، ص : ٣٧٥

الحملة بنفسه . ولكن اللهورديخان رفض ذلك قائلا : « .. من الحكمة أن يظل الشاه بعيدا عن المعركة . فإذا قدر وهزم الجيش الإيرانى ، فإن بقاء الشاه عباس على قيد الحياة ، سيحيى الأمل فى رد الهزيمة والعودة إلى النصر ، أما إذا شارك الشاه فى المعركة وأصيب بمكروه ، فمعنى هذا القضاء التام على إيران أمام الخطر العثمانى الزاحف . أضف الى ذلك أن السلطان العثمانى لن يحارب المعركة بنفسه، فلماذا يشارك الشاه عباس بنفسه فى هذه المعركة؟ »(١)

وفى يوم الثلاثاء الرابع والعشرين من جمادى الآخرة عام ١٠١٤ هـ (٢) تقدم الجيش الصفوى بقيادة اللهورديخان لملاقاة جيش جغال أوغلى، ودارت معركة طاحنة وصفها رضا قليخان هدايت بقوله: « .. التقى الجيشان، ودارت حرب طاحنة وصلت إلى حد الالتحام بالسيف والخنجر وأصبح القتلى تلالا . وسارت الدماء جداولا . وكانت أصوات مدافع الجيش العثمانى تصل إلى الأفلاك ، كما كانت أصوات طبول الحرب الصادرة عن جيش القزلباش تدوى كالرعد وسط الجبال . وارتفع الغبار فى ساحة المعركة ؛ حتى لم يعد يرى غير السيف البراق والدم المراق »(٣)

وأخيرا استطاع الجيش الصفوى تحقيق نصر مؤزر على الجيش العثمانى وقد غنم الكثير من آلات الحرب والعتاد والجواهر ، وما يقرب من مائة قطعة من النسيج. وقد وزع الشاه عباس على جنده جميع الغنائم عدا

---

(١) سفر نامه آنتونيو دوگوه ٣٠ص٢٩٠، ٢٩١، وذلك نقلا عن زندگانى شاه عباس أول ، جـ ٥ ، ص : ٤٥

(٢) ملحقات تاريخ روضة الصفا ، جـ ٨ ص: ٣٧٤

(٣) المرجع السابق ، ص : ٣٧٥

قطع النسيج التى ضمها إلى حوزته الخاصة .[1]

وبالنسبة لجغال أوغلى فقد تراجع بعد هزيمته الثالثة صوب ديار بكر . وهناك أسلم الروح بعد انقضاء المعركة بيومين فقط . وقال معظم المؤرخين بأنه مات كمداً نتيجة هزائمه المتكررة أمام الجيش الصفوى . ولكن انتونيو دى جوفيا ذكر أنه مات منتحرا،حيث بلغه كذبا بأن السلطان أحمد قد أمر بإهداردمه ، إذ أن الشاه عباس كان قد استولى على بعض الرسائل التى كانت ترسلها زوجة چغال أوغلى إلى زوجها وهو فى ساحة المعركة ، وأمر الشاه عباس بتقليد خط الزوجة وأسلوبها ، وإرسال رسالة على لسانها إلى زوجها چغال أوغلى تتحدث فيها عن إهدار السلطان لدمه ، وأن عقوبة الإعدام ستنفذفيه بمجرد قدومه إلى العاصمة العثمانية . وماأن تسلم چغال أوغلى الرسالة حتى ظنها من زوجته وسارع بالانتحار حتى ينهى حياته بيديه مؤثراً الانتحار على تنفيذ عقوبة الإعدام . وهكذا حقق الخطاب المزور الذى أرسله الشاه عباس الغرض منه وتخلص الشاه عباس من خصم عنيد .

• • •

— ٤ —

مفاوضات الصلح :

بعد أن حقق الجيش الصفوى انتصارات باهرة على جيش جغال اوغلى العثمانى ، أصبحت الفرصة مهيأة للجيش الصفوى بالتقدم لاحتلال باقى القلاع التابعه للعثمانيين فى آذربايجان ، فتقدم هذا الجيش نحو گنجه منتهزا فرصة ثورة

---

(١) تاريخ ايران از مغول تا افشاريه ، ص٢٣٨

حاكمها العثمانى ضد الشاه عباس ، واستطاع القضاء عليه وتحطيم قلعة گنجه وذلك فى الثامن والعشرين من صفر عام ١٠١٥ هـ (١٦٠٦)[١] ، ثم واصل الجيش الصفوى تقدمه نحو قلعة تفليس لتسخيرها ، فأحسن المحتمون بها استقبال الجيش الصفوى وأعلنوا الدخول فى طاعة الشاه عباس دون حرب أو عراك[٢] .

وأمام هذه الانتصارات وتساقط قلاع آذربايجان الواحدة تلو الأخرى ، أدرك الصدر الأعظم الجديد درويش باشا أن مصلحة الدولة العثمانية تقضى بالكف عن منازلة الشاه عباس، بل يجب الدخول فى صلح بين الدولتين،فلعل الظروف فى المستقبل تسمح بأن تشن الدولة العثمانية هجوما واسعا تحقق فيه مالم تستطع تحقيقه جيوش جغال أوغلى ، فأرسل درويش باشا رسالة إلى الشاه عباس يقترح فيها أن يكتب الشاه للسلطان أحمد الأول للدخول فى صلح ، وأن الحكمة تقضى نبذ الخلافات بين الدولتين ، فاستجاب الشاه عباس لطلب الصدر الأعظم درويش باشا ، وأرسل رسولا من قبله إلى السلطان أحمد ، محملا بالعديد من الهدايا ومعه رسالة تتضمن اقتراح الشاه عباس بالدخول فى صلح مع السلطان العثمانى بنفس شروط معاهدة ٩٦٩ هـ والتى وقعت بين الشاه طهماسب الأول والسلطان سليمان القانونى[٣] .

ولم ينتظر الشاه عباس استجابة السلطان أحمد وموافقته على شروط الصلح التى عرضها فى رسالته ، بل أخذ يعمل جادا على تسخير الأجزاء الباقية من

---

(١) زندگانى شاه عباس اول ، ج ٥ ، ص : ٥٠

(٢) ملحقات تاريخ روضة الصفا ، ج ٨ ، ص : ٣٨٠

(٣) تاريخ إيران أز مغول تا افشارية ، ص : ٣٢٨

آذربايجان لسيطرته ، والقضاء على كل قلعة مازالت تابعة للدولة العثمانية ، فسارعت بعض هذه القلاع بإعلان تبعيتها للشاه عباس دون قتال أو عراك ، فقد ثار سكان بادكوبه ودربند على حكامهم العثمانيين ، وتغلبوا عليهم ، ثم تقدموا للشاه عباس معلنين دخولهم فى طاعته ، وهكذا تحقق للشاه عباس احتلال هاتين المدينتين بلا قتال ، وأهم القلاع التى دانت له فى منطقة دربند ، قلعة (باب الأبواب) الشهيرة بحصانتها ومنعتها(١) .

ولكن بعض قلاع آذربايجان رفضت التسليم ، فأعد الشاه عباس عدته لاحتلالها بالقوة المسلحة ، وأهم هذه القلاع قلعة « شماخى » عاصمة إقليم شيروان ، وكانت قلعة تمتاز بصعوبة الوصول إليها ، مما جعل الخوف يسيطر على قواد الجيش الصفوى من مهاجمتها ، وحاولوا التمرد والامتناع عن القيام بهذه المهمة البالغة الصعوبة ، ولكن الشاه عباس أمر عددا من قواده بمهاجمة هذه القلعة دفعة واحدة ، حيث يهاجمها اللهورديخان من الجانب الشمالى، ويهاجمها الله‌قليخان من الجانب الغربى ، ويتولى ذو الفقار خان مهاجمة بقية جوانبها ، كما يتولى سلاح المدفعية ضربها من بعيد والتمهيد للجيوش المتقدمة لتقوم بواجبها خير قيام(٢) ، وأخذ الحصار يضيق حول تلك القلعة الحصينة تدريجيا ، حتى استطاع بعض الجنود الصفويين اقتحام أحد أسوارها والدخول إليها. ودار القتال داخل القلعة وخارجها بشراسة وعنف ، حتى تمكن الجيش الصفوى من تحقيق النصر ، والاستيلاء على هذه القلعة الحصينة فى يوم الثلاثاء غرة ربيع الأول عام ١٠١٦هـ (١٦٠٧ م)(٣)

(١) ملحقات تاريخ روضة الصفا ، جـ ٨ ص : ٣٨٦ - ٣٨٨

(٢) المرجع السابق ، ص : ٣٨٤

(٣) زندگانى شاه عباس أول ، جـ ٥ ، ص : ٥٣

وإلى جانب مهاجمة هذه القلاع الخاضعة للدولة العثمانية ، فإن الشاه عباس كان حريصا على تأديب جميع القبائل التى تعاونت مع العثمانيين ، لذا نراه يأمر جيشه بشن الهجوم من وقت إلى آخر على القبائل الكردية الثائرة ضده ، والمتعاطفة مع العثمانيين بسبب وحدة المذهب السنى فيما بينهما ، ثم انتهز الشاه عباس فرصة لجوء عدة آلاف من الجلاليين الثائرين ضد الدولة العثمانية ، وأسكنهم فى المناطق الكردية ، لكى يتولى هؤلاء الجلاليون مساعدة الشاه عباس فى القضاء على أى فتنة كردية ، ولكن أمير خان زعيم طائفة برادوست الكردية رفض إقامة هؤلاء الجلاليين فى أماكن تجمع طائفته ، وتحصن فى قلعة « دمدم » المنيعة ، فكلف الشاه عباس جيشه بمحاصرة تلك القلعة فى السادس والعشرين من شهر شعبان عام ١٠١٧هـ (٥ ديسمبر ١٦٠٨[١]) ولجأ الجيش الصفوى إلى وسيلته المعهودة فى محاصرة أى قلعه حيث قطع إمدادات المياه عنها ؛ مما أدى إلى تضيق الخناق على المحاصرين ، وأخيراً دخل الجيش الصفوى فى حرب طاحنة مع الأكراد المتحصنين بالقلعة ، واستطاع التغلب عليهم ، وقتل جميع من ظلوا أحياء بالقلعة بعد فتحها ، كما أخضع الشاه عباس لسيطرته قبادخان المكرى الكردى واستولى على قلعته « كاودولى »[٢] .

بهذه الانتصارات التى أحرزها الشاه عباس وجيشه ، أصبحت منطقة آذربايجان كلها خاضعة لسلطانه ، ولم يعد فى مقدور أى حاكم إقليمى الجهر بمعاداته للبيت الصفوى وللشاه عباس ، لذا أدرك الصدر الأعظم مراد باشا الذى تولى ذلك المنصب بعد درويش باشا بأن المصلحة تقتضى منه السعى الجاد من أجل عقد معاهدة صلح بين الدولتين العثمانية والصفوية ، بعد أن تعثرت

---

(١) خلاصة تاريخ الكرد وكردستان ، ص : ٢٠٣

(٢) ملحقات تاريخ روضة الصفا ، جـ ٨ ، ص ٣٩٨ - ٤٠٠

محاولات الصدر الأعظم السابق لانعدام الثقة بين الطرفين . فأرسل مراد باشا رسولا إلى الشاه عباس وطلب منه تكرار مراسلة السلطان أحمد لعقد صلح فيما بينهما ، وقد جاء فى رسالة الصدر الأعظم للشاه عباس مايلى: « الآن وقد استعاد شاه إيران جميع الولايات التى كان العثمانيون قد احتلوها أيام آبائه ، فمن الخير أن يسعى للصلح وأن يراسل السلطان العثمانى فى أمر الصلح ونبذ الحرب التى تضعف الدولتين الإسلاميتين الكبيرتين ، مما يرضى أعداء الإسلام من ملوك أوربا»[1] » . فقبل الشاه عباس رجاء الصدر الأعظم العثمانى، وأرسل عام ١٠١٨هـ رسالة إلى السلطان أحمد يدعوه إلى نبذ الحرب وعقد صلح بين الطرفين بنفس شروط معاهدة عام ٩٦٩هـ .

بعد أن توجه رسول الشاه عباس إلى العاصمة العثمانية ، تحرك مراد باشا على رأس جيش كبير العدد قاصدا إيران، بحجة الدخول فى مفاوضات الصلح ، ولكن كثرة عدد الجنود المصاحبين له ، جعلت الشاه عباس يشك فى نواياه الحقيقة ، وهل جاء قاصدا الصلح أم متذرعا بالسلام ، ومضمرا نية الهجوم إذا واتته الفرصة ، وبخاصة إذا خدع الشاه عباس بطلب الصلح ، ولم يعد العدة للقتال،ولكن لانعدام الثقة بين الجانبين أمر الشاه عباس باستنفار الجيوش الصفوية ، وحسن استعدادها لمجابهة أى خطر مرتقب .

وأمام الاستعداد الضخم الذى بذله الشاه عباس وجيشه . بدأ الخوف يتسرب إلى قلب الصدر الأعظم مراد باشا ، وتوقف عند الحدود العثمانية الإيرانية ، وأرسل رسالة إلى الشاه عباس يخبره بأنه متقدم لعقد صلح حقيقى وليس فى نيته الغدر ، وأنه منتظر من الشاه مايثبت رغبته فى الصلح حتى

---

(١) زندگانى شاه عباس أول ، جـ ٥ ، ص : ٦٢

يواصل مسيرته صوب تبريز حيث يقيم الشاه عباس. فأرسل الشاه إلى مراد باشا هدية عبارة عن زجاجة من العطر مطعمة بالذهب، وكانت من المصنوعات الهندية النادرة التى أهداها الشاه محمد سليم بن محمد أكبر سلطان الهند إلى الشاه عباس(١).

وبعد تبادل عدة رسائل بين الصدر الأعظم وبين الشاه عباس تقدم مراد باشا إلى تبريز، وأعلن موافقة السلطان العثمانى على إبرام معاهدة بين الطرفين على غرار معاهدة ٩٦٩ هـ بين الشاه طهماسب الأول والسلطان سليمان القانونى، وقد تم توقيع هذه المعاهدة عام ١٠٢٠ هـ (١٦١٢ م)، ونصت هذه المعاهدة على ما يلى:

ا — الاعتراف بأن حدود إيران هى ما كانت عليه أيام حكم السلطان سليم الأول، وبذلك يكف العثمانيون عن جميع الادعاءات التى يربطونها بفتوحات كل من السلطانين مراد الثالث ومحمد الثالث(٢).

ب — أن يعلن الشاه عباس استعداده لتصدير مائتى حمل من الحرير سنويا إلى الدولة العثمانية. (ولكن الشاه لم يف بتصدير الحرير المتفق عليه)(٣).

جـ — أن تقوم كل دولة بتحديد ممثلين عنها، لكى تجتمع اللجان المشتركة لتحديد الأراضى الخاصة بكل دولة منهما.

وحدث بعد توقيع المعاهدة أن تمرد بعض جنود مراد باشا، وخرجوا على طاعته واعتدوا على أهالى تبريز، فسارع الجيش الصفوى بالتصدى لهم،

---

(١) ملحقات تاريخ روضة الصفا، ج: ٨، ص: ٤٠٤

(٢) لغت نامة، شمارهٔ ٧٦، ص: ٤٢

(٣) المرجع السابق، ص: ٤٣

والفتك بهؤلاء المتمردين ، وقتل عددا كبيرا منهم ، ولم يؤثر هذا الحادث على المعاهدة التى جد الطرفان فى توقيعها،وبعد ذلك عاد مراد باشاإلى الأراضى العثمانية ، ولكن ما أن وصل إلى ديار بكر حتى وافته منيته ، وذلك فى التاسع والعشرين من جمادى الآخرة عام ١٠٢٠هـ ، وهكذا أسلم الروح بعد أن لاحت فى الأفق بوادر فترة هدوء فى العلاقات بين الدولتين المتصارعتين، فإلى متى يستمر هذا الهدوء؟

— ٥ —

الجولة الحربية الثالثة بين الجيشين الصفوى والعثمانى :

نصت معاهدة ١٠٢٠ هـ على أن تجتمع لجان مشتركة لتقوم بتحديدالحدود الفاصلة بين أراضى الدولتين العثمانية والصفوية ، وقامت كل دولة باختيار مفاوضيها ، وأخيراً اجتمعت اللجان المشتركة فى مدينة سلماس بآذربايجان ، ونجح المفاوضون فى تحديد الحدودفى كل من آذربايجان وأرمينيا ، كما اتفقوا على تقسيم بلاد الكرج بين الدولتين[1] ، ولكن هذا القرار الأخير لم يرق لبعض حكام الكرج السابقين ، ومنهم طهمورث خان حاكم ولاية كاخت التى نصت الاتفاقية على تبعيتها لإيران ، فأخذ يتحين الفرص للانقضاض على حكام المنطقة من قبل الشاه عباس ، وقد واتته الفرصة فى عام ١٠٢٣ هـ وذلك بتدبير مشترك بين طهمورث خان وعدد من باشوات الدولة العثمانية، لأنه لم يكن يجرؤ على هذا العمل إلا إذا كان مستندا على حماية الدولة العثمانية له[2] .

---

(١) زندگانى شاه عباس أول ، ج : ٥ ، ص : ٦٩

(٢) تاريخ إيران أز مغول تا افشاريه ، ص : ٣٢١

وأمام هذا الخطر أمر الشاه عباس جيشه بالإسراع صوب بلاد الكرج لتأديب طهمورث خان ، ومن أيدوه فى ثورته ، فتقدم الجيش الصفوى فى عام ١٠٢٥ هـ (١٦١٦م) ، وعبر نهر الأرس ، ودخل فى حروب طاحنة مع جيوش طهمورث خان ، وأشاعوا القتل العام فى مدينة كاخت ، وكان مسلك جيش الشاه عباس يتسم بغاية العنف والقسوة ، لدرجة أن الكرجيين مازالوا حتى اليوم يتحدثون عن الشاه عباس ويطلقون عليه اسم « الملعون »[١]. ومن الأعمال التى فعلها جنود الشاه كذلك أنهم أحالوا جميع كنائسها إلى مساجد[٢]، كما رحلوا عددا منهم إلى منطقة فرح آباد ومنطقة شرف بمازندران . بعد ذلك واصل الجيش الصفوى تقدمه فى مناطق كرجستان (بلاد الكرج) لإخضاع جميع الثائرين من حكامها، وكانت حملات الصفويين مركزة على المناطق التابعة لدولتهم كما حددتها اتفاقية عام ١٠٢٠ هـ ، ولكن هذا الجيش كان يضطر أحيانا لمطاردة بعض هؤلاء الأمراء فى المنطقة التابعة للدولة العثمانية ، إذا فروا إليها .

الملاحظ أن هذه الاضطرابات ومطاردة الثائرين حدثت ومفاوضات تعيين الحدود مستمرة بين الطرفين ، فكان لهذه الأحداث أثرها على تعثر المفاوضات ، حيث اتهم الجانب العثمانى الجانب الصفوى بافتعال هذه الهجمات لتقويض المباحثات ، فحاول الشاه عباس توضيح موقفه من الحرب الدائرة فى كرجستان ، وأنه لم يأمر جيشه بنقض المعاهدة الموقعة بين الطرفين فى عام ١٠٢٠ هـ ، وإنما أمر جيشه بإخضاع الثائرين فى المناطق الخاضعة لسلطانه فقط ، وليس

---

(١) انقراض سلسله صفويه . ص : ٧٥

(٢) ملحقات تاريخ روضة الصفا ، ج : ٨ ، ص : ٤١٦ - ٤٢٠ ، وتاريخ إيران أز مغول تا افشاريه ، ص : ٣٣١

فى نيتهم الهجوم على الأراضى العثمانية ، وليؤكد الشاه صدق نيتـه أمر بالإفراج عن جميع الأسرى الأتراك الذين اعتقلوا أثناء حروبه ضد الجيش التركى فى آذربايجان[1] .

استطاع الشاه عباس إقناع الصدر الأعظم العثمانى نصوح باشا بوجهة نظرة فى محاربة طهمورث خان وغيره من أمراء منطقة الكرج ، مما أثار عددا من باشوات الدولة العثمانية ضد نصوح باشا ، واتهموه بالتواطؤ مع الشاه عباس وأثاروا ضده الخليفة العثمانى ، فأمر بإعدام نصوح باشا وتعيين صدر أعظم جديد هو محمد باشا[2] ، وأمام هذا الحادث المفاجىء زادت صيحات المطالبة بالثأر وإعلان الحرب ضد الشاه عباس ، ومحاولة وضع حد لتطاوله على حلفاء الدولة العثمانية فى بلاد الكرج ، وتولى محمد باشا الصدر الأعظم إعداد العدة وتجهيز الجيش للهجوم على أذربايجان لتأديب الجيش الصفوى المحارب فى منطقة الكرج وما جاورها ، وأخيرا تقدم الجيش العثمانى فى شهر شعبان عام ١٠٢٥ﻫ (١٦١٦ م) ، وكان جيشا كثيف العدد والعتاد تولى الصدر الأعظم جمعه من الأمصار التابعة للخلافة العثمانية ، وواصل هذا الجيش تقدمه داخل آذربايجان الإيرانية حتى وصل إلى قلعة إيروان وحاصرها .

طال حصار الجيش العثمانى لقلعة ايروان ، دون أن يتمكن من فتحها ، وظل الحصار قائما حتى جاء الشتاء وتساقطت الثلوج واشتد البرد ، مما أضعف الروح القتالية لدى الجنود العثمانيين ، كما استطاع الجيش الصفوى قطع طريق الامدادات عن هذا الجيش العثمانى المتقدم ، وبالتالى بدأ الجنود العثمانيون يشعرون بأنهم أصبحـوا محصورين لامحاصرين ، لذا شعروا بأنهم لن

---

(١) زندگانى شاه عباس أول ، جـ : ٥ ص : ٧٢

(٢) أحمد بن زين دحلان : الفتوحات الإسلامية بعد مضى الفتوحات النبوية ، جـ ٢ ص ١٢٧ . طبع القاهرة ١٣٢٣ ﻫ

يستطيعوا مواصلة الحصار بدون مؤن منتظمة، فآثروا التراجع مهزومين وعادوا أدراجهم صوب مدينة وان.[1]

وأمام هزيمة الصدر الأعظم محمد باشا، اتهمه أعداؤه السياسيون بالخيانة والتكاسل عن تحقيق النصر على الشاه عباس، وتم عزله وتولى مكانه خليل باشا. ثم تبادل كل من السلطان العثمانى والشاه عباس الرسائل من أجل عقد معاهدة صلح بين الطرفين، ولعلها كانت محاولة لكسب الوقت من جانب العثمانيين الذين كانوا يبذلون استعدادات قصوى لجمع جيش جديد يتولى قيادته الصدر الأعظم خليل باشا، ويتقدم به صوب آذربايجان، متذرعا بالرغبة فى عقد معاهدة صلح بين الطرفين، وفعلا تقدم خليل باشا بجيش عظيم نحو آذربايجان، فبادر الشاه عباس بإحراق كل المحاصيل ووسائل المعيشة فى الطريق الواقع بين ديار بكر وتبريز بل أمر بإحراق تبريز ذاتها، وإخلائها من جميع المؤن، وترحيل جميع سكانها إلى داخل الأراضى الإيرانية، كما أمر قائد حاميتها بالتخلى عنها، والإقامة مع عساكره على الطريق الموصلة بين تبريز وقزوين، ولعله قصد بذلك أن يقوم هذا الجيش باعتراض تقدم الجيش العثمانى نحو قزوين إذا فعل ذلك بغرض الاندفاع منها إلى قلب إيران واسقاط الدولة الصفوية، أما الشاه عباس فقد عسكر بجيشه فى مدينة أردبيل ليكون على مقربة من ميدان المعارك فى آذربايجان عامة وتبريز على وجه الخصوص.

تقدم الجيش العثمانى قاصدا تبريز، وقد انضم إليه عدد كبير من أمراء الكرجيين الذين آلمهم ما أصاب ديارهم على أيدى الجيش الصفوى، وتمكنوا من دخول تبريز بلا مقاومة، وكانت مفاجأة لهم أن وجدوا المدينة خربة،

---

(١) ملحقات تاريخ روضه الصفا، ج ٨، ص ٤٢٠ - ٤٢٣، وتاريخ إيران ز مغول تا افشاريه، ص: ٣٣٣

خاوية ، لاتصلح للسكنى ، ولايوجد بها مايقتات به الجنود ، وعلى هذا لم يستطيعوا البقاء بها إلا لمدة خمسة أيام فقط ، ثم تخلوا عنها وعسكروا إلى جوارها (1) وبدءوا يخططون لمواصلة الهجوم بغية احتلال جميـــع مدن إيران .

وأثناء هذه الاستعدادات ، أرسل خليل باشا رسولا من قبله صوب الشاه عباس ، وحمّله رسالة حدد فيها شروطه لعقد صلح بين الدولتين ،ونصح الشاه بقبولها حتى يكف عن مواصلة التقدم وإسقاط الدولة الصفوية ، وهذه الشروط هى (2) .

١ ـ أن يرسل الشاه عباس مقدارا من الحرير يتراوح مابين مائتين إلى ثلاثمائة حمل كخراج سنوى يدفع للسلطان العثمانى .

٢ ـ أن يعيد الشاه عباس إلى حوزة الدولة العثمانية جميع الأجزاء الغربية من آذربايجان ، وأرمينيا وشكّى وشروان وبـــلاد الكرج وقراباغ، وهى الولايات التى استعادها الشاه عباس ، بعد أن كانت تحت تصرف العثمانيين منذ عهد السلطان محمد خدابنده .

٣ ـ أن يرسل الشاه عباس أحد أبنائه كرهينة يقيم فى اسطانبول ، كما فعل فى بداية حكمه ، حيث وافق على إرسال حيدر ميرزا ابن أخيه حمزة ميرزا ، بعد معاهدة عام ٩٩٨ هـ .

والملاحظ أن هذه الشروط نبعت من إدراك خليل باشا أن الجيش الصفوى لن يقوى على مجابهته ، وأن الهزيمة واقعة بهم دون أدنى ريب ،

---

(1) زندگانى شاه عباس أول ، جـ ٥ ، ص : ٨٣ ، ٩١

(2) المرجع السابق . ص : ٨٥ ، ٨٦

فليس أمامهم إلا القبول والإذعان لشروطه ، وقد بدأ الصدر الأعظم بالتركيز على الحرير الإيرانى ذى الشهرة الكبيرة ، وبخاصة أن الشاه عباس كان قد تعهد فى معاهدة ١٠٢٠ هـ على أن يزود السلطان العثمانى بمائتى حمل من الحرير ولكنه لم يف بوعده ولم يرسل أى حمل منه مما جعل خليل باشا يطالبه بالتعهد بتوريد الكمية المتفق عليها سابقا ، بل وزيادتها إلى ثلاثمائة حمل مما يؤثر على هذه التجارة الإيرانية الرائجة مع العالم المسيحى الأوربى ، ويؤثر على العلاقات الودية بين الشاه عباس وملوك أوربا الحريصين على هذا الحرير الإيرانى ، كما أن الشرط الثانى الخاص بإعادة أراضى آذربايجان وأرمينيا وغيرها إلى حوزة الدولة العثمانية ، ليس من المعقول أن يوافق الشاه عباس عليه و إلا ، فلم كانت الحروب السابقة ؟ ولم أزهقت أرواح الكثيرين من جنود الدولة الصفوية فى سبيل استعادتها من الدولة العثمانية ؟ . وبالنسبة للشرط الثالث ، فقد سبق أن طالبت به الدولة العثمانية عام ١٠٠٧ ، ورفضه الشاه عباس على الرغم من أنها كانت تسيطر على آذربايجان والعراق العجمى (1) فهل يعقل أن يقبله الشاه عباس وقد أحرز العديد من الانتصارات عليهم ؟ .

وكان الرد المنطقى أن يرفض الشاه عباس هذه الشروط التى تعد وثيقة استسلام وخضوع إذا قبلها ، واكتفى بإبداء استعداده لإرسال مائة حمل من الحرير مرة واحدة كهدية منه إلى السلطان العثمانى ، وليس بمثابة خراج واجب الدفع فى كل عام .

وأمام هذا الرفض أصبحت المعركة حتمية بين الطرفين ، فبذل العثمانيون المزيد من الاستعداد لمجابهة الجيشين الصفويين المعسكرين فى كل من أردبيل

---

(١) أنظر ص: ٣٢٦ من هذا الكتاب

وطريق تبريز قزوين ، فى حين كان الشاه عباس يسارع بإجلاء سكان أردبيل خوفا من سقوطها فى أيدى العثمانيين ويعد العدة لإحراقها . وفجأة يبرز من بين الجيش الصفوى قائد يدعى عليبك ، ويقنع بقية القواد بضرورة الهجوم المباغت على الجيش العثمانى المعسكر بجوار تبريز ، حتى ولو لم يأذن الشاه عباس بذلك ،(١) وفعلا أسرع قواد عباس بالتحرك بجيوشهم من أردبيل إلى تبريز وانضم إليهم الجيش الآخر المعسكر فى طريق قزوين ، وعلى مقربة من تبريز نظموا صفوفهم ، وقسموا أنفسهم إلى أجنحة يتولى كل جناح مهاجمة جانب من جوانب معسكر القـــوات العثمانية ، وفجأة هجموا من جميع الجهات على القوات العثمانية بصورة مباغتة وقبل أن يستكملوا استعداداتهم للتقدم ، بل وقبل أن يكتشفوا تقدم الجيوش الصفوية للهجوم عليهم فكانت المفاجأة القاتلة للجنود الأتراك ، مما كبدهم خسائر جسيمة فى الأرواح ، وصلت إلى خمسة عشر ألف قتيل ،(٢) وهكذا منى خليل باشا وجيشه بهزيمة لم يكن يتوقعها أحد على الإطلاق.

وهكذا منيت الجيوش العثمانية بقيادة خليل باشا بهزيمة نكراء ، كما هزمت جيوشها بقيادة كل من على باشا فى عام ١٠١٢ هـ ، وچغال أوغلى فى عام ١٠١٤ هـ ، ومحمد باشا فى عام ١٠٢٥ هـ ، مما جعل ميزان القوة فى منطقة آذربايجان يتحول إلى صالح الشاه عباس ، وتفقد الدولة العثمانية القدرة على مجابهة الجيش الصفوى فى آذربايجان طول بقية حكم الشاه عباس ، كما حرصت الدولة العثمانية بعد هذه الهزيمة على توقيع معاهدة جديدة ، ليسود السلام فى منطقة آذربايجان ولتتفرغ لحروبها فى أوروبا ، لذا أرسل خليل باشا فى طلب

---

(١) زندگانى شاه عباس أول ، ج ٥ ، ص : ٩٢

(٢) تاريخ إيران از مغول تا افشاريه ، ص : ٣٣٢

الصلح ؛ فقبل عباس توقيع معاهدة جديدة وذلك فى التاسع من شوال عام ١٠٢٧ هـ (٢٧ من سبتمبر عام ١٦١٨ م) (١) ، وقد تضمنت هذه المعاهدة نفس شروط معاهدة ١٠٢٠ هـ ، مع تعهد الشاه بالوفاء بتصدير مائة حمل من الحرير سنويا (٢) .

وبهذه المعاهدة الجديدة انتهت الجولة الثالثة من الحروب بين الدولتين الصفوية والعثمانية فى آذربايجان ، وساد الهدوء هذه المنطقة حتى آخر حياة الشاه عباس ، ولكنه انتقل بعد ذلك إلى ساحة أخرى ، وهى منطقة العراق العربى .

* * *

— ٦ —

الجولة الرابعة واستيلاء الشاه عباس على بغداد :

وبعد أن هدأت الحروب الدائرة فى آذربايجان ، واطمأن الشاه عباس على تثبيت حكمه فى كل من آذربايجان وأرمينيا وبلاد الكرج ، بدأ يهتم بمعالجة بعض المشاكل الأخرى ، من هذه المشاكل استرداده جزيرة هرمز وغيرها من الموانى الهامة التى كان البرتغاليون يسيطرون عليها فى منطقة الخليج ، واسترداده كذلك قندهار التى كانت تحت حكم ملوك الهند (٣) ،

(١) خلاصة تاريخ الكرد وكردستان ، ص : ٢١١

(٢) لغت نامه : شمارة ٧٦ ، ص : ٤٣

(٣) سنتعرض للحديث عن هذه الأحداث بعد قليل .

وبعد أن فرغ من استرداد قندهار توجه صوب خراسان ، ليتفقد أحوالها ، بعد انشغال دام عدة سنوات بسبب حروبه فى آذربايجان وغيرها من المناطق فى إيران ، وأقام بهراة فترة حتى وصلته أنباء حدوث فتن واضطرابات فى العاصمة العثمانية ، حيث تم اغتيال السلطان عثمان الثانى عام ١٠٣١ هـ (١٦٢٢م) وأعيد تنصيب السلطان مصطفى الأول مرة أخرى [١] . كما وقعت اضطرابات أخرى فى مدنية بغداد ، حيث ثار أحد القواد فيها ويدعى بكر الصوباشى على حاكمها العثمانى يوسف باشا ، وقتله ، وسيطر على بغداد معلنا تحديه للحكومة المركزية فى اسطانبول ، مما دفع السلطان العثمانى لإرسال جيش عثمانى بقيادة حافظ باشا حاكم ديار بكر لكى يتولى تأديبه والإطاحة به ، فسارع بكر الصوباشى بمخاطبة الشاه عباس ، وحثه على الإسراع نحو بغداد لكى يسلمها له ويكون تابعا لسلطانه [٢] .

شعر الشاه عباس بعد أن تسلم رسالة بكر الصوباشى ، بأنها فرصة ثمينة لا يجب أن يضيعها من يديه ، وذلك لكى يعيد بغداد إلى حكم الدولة الصفوية بعد أن سيطر عليها العثمانيون عام ٩٤٠ هـ فى زمان الشاه طهماسب الأول [٣] ولكى تصبح مزارات الشيعة فى كربلاء والنجف تحت تصرفه ، ويكون الطريق مفتوحا أمام شيعة إيران لزيارة هذه المزارات المقدسة .

أسرع الشاه عباس بالعودة إلى أصفهان حيث اجتهد فى جمع أكبر عدد من الجنود وتقدم بهم صوب بغداد متذرعا بالرغبة فى زيارة العتبات الشيعية المقدسة ، ومخفيا الغرض الحقيقى من تقدمه ، وعندما وصل إلى مشارف بغداد

---

(١) الفتوحات الإسلامية بعد الفتوحات النبوية ، جـ : ٢ ص : ١٣١

(٢) المرجع السابق ونفس الصفحة

(٣) ملحقات تاريخ روضة الصفا ، جـ ٨ ، ص : ٤٣٢

عسكر هناك ؛ وأرسل إلى بكر الصوباشي عددامن رسله لكي يسلمهم مفاتيح مدينة بغداد وحملهم إليه هدية عبارة عن عمامة القزلباش، على اعتبار أنه أصبح من رجاله المقربين ، ولكن حدث مالم يكن يتوقعه الشاه عباس، إذ أقدم بكر الصوباشي على قتل رسل الشاه عباس ووطيء عمامة القزلباش بقدميه، وذلك لأنه كان قد استعاد صلته بالدولة العثمانية قبل قدوم الشاه عباس ، وثبتوه على حكم بغداد [1] .

أمام هذا الغدر الذى تعرض له الرسل الإيرانيون ، أمر الشاه عباس بشن الهجوم على بغداد ، وتقدم جيشه وحاصرها، فأمر بكر الصوباشي بإطلاق مدافع قلعة بغداد عليهم ، كما راسل حافظ باشا والى دياربكر ، ليطلب منه النجدة ، فأرسل حافظ باشا بعض قواته لمساعدته ، ولكن الجيش الصفوى استطاع قطع الطريق على هذه القوات ، ومنعها من الوصول إلى بغداد ، مما جعل الأمور تسوء بالنسبة لبكر الصوباشي ومن معه ، ولكنهم واصلوا الدفاع ولم يستسلموا ، مما دفع الشاه عباس إلى اللجوء للمكر والخديعة لاحتلال المدينة كما يقول بعض المؤرخين [2] .

وتفصيل ذلك أن الشاه عباس استطاع أن يستميل إليه محمد بن بكر الصوباشي ، واتفق معه على التعاون المشترك فيما بينهما فى الاستيلاء على بغداد مقابل أن يعينه الشاه عباس حاكما عليها بعد إقصاء أبيه عن حكمها ، واتفقا على أن يفتح محمد بن بكر أبواب القلعة بالليل ، ليندفع جنود القزلباش إلى داخل القلعة ، ويستولوا عليها ، وقد تم تنفيذ هذه الخيانة فى ليلة الثالث

---

(١) الفتوحات الإسلامية بعد مضى الفتوحات النبوية ، جـ ٢ ، ص : ١٣١

(٢) المرجع السابق ، ص : ١٣٢ ، وخلاصة تاريخ الكرد وكردستان ، ص : ٢١٢

والعشرين من شهر ربيع الأول عام ١٠٣٢ هـ (١٦٢٣ م) [١] ، حيث فوجىء جنود الحامية بالجيش الصفوى يقف بينهم ، وقد باغتهم وقتل عددا كبيرا منهم ، مما أفقدهم اتزانهم . وخارت قواهم المعنوية ، وفترت قوتهم القتالية ، فتحقق النصر لجيش الشاه عباس . وتمكنوا من أسر بكر الصوباشى واقتياده مكبلا بالقيود صوب الشاه عباس الذى أغلظ القول معه ، وعنفه على غدره به وقتله رسله . ثم أمر بوضعه فى قارب ملىء بالزفت والكبريت وأن تضرم فيه النيران ؛ ليلتهب فى دجلة أمام الناس [١].

وكان محمد بن بكر الصوباشى يتوقع أن يعهد إليه الشاه عباس بحكم بغداد ، ولكن الشاه عباس أمر بإرساله إلى خراسان ، وأمر بقتله هناك [٣] . وهكذا جنى ثمار غدره وخيانته لأبيه ، وهل يعقل أن يبقيه الشاه عباس فى بغداد ، لكى يثور ضده ويخونه كما خان أبيه من قبل ؟ وهل يعقل كذلك أن يحافظ الشاه عباس على عهده معه ويبقيه على قيد الحياة ، وهو الذى سفك دماء أبنائه وتخلص منهم حتى لا ينافسه أحد فى الانفراد بالعرش [٤] ؟

فى نفس الوقت الذى شغل فيه الشاه عباس بفتح بغداد ، وتثبيت حكمه فيها ، أمر بعض قواده بالتوجه صوب الأجزاء الشمالية من العراق ، فتوجه بعضهم لفتح الموصل وتوجه آخرون لفتح كركوك . واستطاعوا إنجاز المهام التى كلفوا بها ، وهكذا استطاع جيش الشاه عباس السيطرة على معظم مناطق

---

(١) زندگانى شاه عباس أول ، جـ ٥ ، ص : ١١٦

(٣) الفتوحات الاسلامية بعد الفتوحات النبوية ٢ ص : ١٣٢

(٣) المرجع السابق ونفس الصفحة

(٤) أنظر ص : ٢٣١ ، وما بعدها من هذا الكتاب

العراق العربى ، مما أشعر الشاه عباس بالفخر والاعتزاز ، وقد ظل فترة فى النجف ثم عاد أدراجه صوب العاصمة أصفهان .

أما عن السلطان العثمانى مراد الرابع (١٠٣٢ — ١٠٤٩ هـ = ١٦٢٣ — ١٦٤٠)م[١] فقد أصدر أوامره إلى حافظ باشا حاكم ديار بكر ، لكى يتوجه صوب بغداد على رأس جيش كبير لطرد الجيش الصفوى من بغداد وغيرها من مدن العراق[٢] فتقدم حافظ باشا ، واستولى على كل من كربلاء والحلة ، ثم تقدم صوب بغداد فى التاسع من شهر صفر عام ١٠٣٤ هـ (١٦٢٥ م)[٣] ، وأخذ يناوش القزلباش المعسكرين فى حاميتها ، فسارع الشاه عباس بإرسال الإمدادات العسكرية إلى جنوده فى بغداد مما أطال فترة المناوشات بين الجانبين ، حتى وصلت إلى سبعة أشهر دون أن يحقق أحد الجانبين نصراً على الجانب الآخر ودون أن يدخلوا فى معركة فاصلة[٤] .

ثم أرسل حافظ باشا إلى العاصمة العثمانية يطلب إمدادات عسكرية ومؤنا ، وفعلا أرسلت الحكومة المركزية إليه كل ما طلب ، ولكن جنود القزلباش استطاعوا قطع الطريق على جيش الإمداد العثمانى ، بل وأخذوا يهاجمون جيش حافظ باشا من الخلف ، مما جعل مهمة الجيش العثمانى صعبة حيث يواجه قوات صفوية أمامه ، ويحارب قوات صفوية أخرى تشن هجمات على مؤخرته ، لذا تقدم حافظ باشا يطلب الصلح على أساس الاعتراف

---

(١) سلسله هاى إسلامى ، هى : ٢٠٩

(٢) ملحقات تاريخ روضة الصفا ، جـ ٨ ، ص : ٤٣٤

(٣) زندگانى شاه عباس أول ، جـ : ٨ ، ص : ١١٧ - ١٢١

(٤) ملحقات تاريخ روضة الصفا ، جـ ٨ ، ص : ٤٢٤

بسلطان الشاه عباس على بغداد والأماكن المقدسة فى العراق ، فوافق الشاه عباس على ذلك ، وهيأ للجنود العثمانيين طريق العودة دون الاعتداء عليهم.

وهكذا فشلت محاولات الدولة العثمانية فى استعادة بغداد ، حيث ظلت تابعة للبلاط الصفوى طوال الفترة الباقية من حكم الشاه عباس ، ولمدة عشر سنوات أخرى بعد وفاته ، حيث استطاع العثمانيون استردادها عام ١٠٤٨ هـ

. . .

تعقيب على العلاقات الصفوية العثمانية فى عهد الشاه عباس :

لقد مرت العلاقات الإيرانية العثمانية خلال حكم الشاه عباس [٩٩٦— ١٣٠٨ = ١٥٨٨ — ١٦٢٩ م] بثلاث مراحل متميزة ، بدأت المرحلة الأولى منذ تولى الشاه عباس الحكم وحتى عام ١٠١١ هـ ، وقد اتسمت هذه المرحلة بالخضوع والاستسلام ، حيث اعتلى الشاه عباس العرش والقوات العثمانية تسيطر على آذربايجان وكثيرا من أراضى منطقة العراق العجمى ، كما أن قواتهم تقدمت لاحتلال بقية أراضى الدولة الصفوية وإسقاط الشاه عباس وذلك عندما تقدم بجيوشه لصد الهجمات الأوزبكية على خراسان ، فحرص الشاه عباس على خطب ودهم وممالأتهم والتنازل لهم عن حكم جميع المناطق التى يحتلونها فى غربى إيران ، وكانت معاهدة ٩٩٨ هـ فى الحقيقة وثيقة خنوع واستسلام من جانب الشاه عباس .

أما المرحلة الثانية ، فهى مرحلة من الصراع المرير من أجل التحرير ، وفيها انتقلت الدولة الصفوية من دور الخانع المستسلم إلى دور الندية والمجابهة العسكرية ، وقد استمرت هذه الفترة منذ عام ١٠١١ هـ حتى عام ١٠٣٢ هـ

حيث كانت المعارك تدور رحاها داخل أراض إيرانية يحرص الشاه عباس على تحريرها وتخليصها من الاحتلال العثمانى ، دون التفكير فى الاعتداء على أراض عثمانية وقد استطاع الشاه عباس تحرير الأراضى التى تنازل عنها فى معاهدة ٩٩٨ هـ ، وبدأ يتعامل بندية مع العثمانيين ، مما رد للإيرانيين — كما يقولون — عزتهم وكرامتهم .

والمرحلة الثالثة وهى مرحلة الهجوم وقد بدأت عام ١٠٣٢هـ واستمرت حتى وفاة الشاه عباس عام ١٠٣٨ هـ ، وفيها استطاع احتلال أجزاء كبيرة من الأراضى العراقية ، واقتطاعها من السيطرة العثمانية ، ومن هذه الأراضى العراقية بغداد وكربلاء والنجف حيث توجد المزارات الشيعية المقدسة وكذلك الموصل وكركوك فى شمال العراق ، وقد كان لهذا الهجوم واحتلال تلك المناطق أثرها العميق فى شعور الإيرانيين بالاعتزاز والرفعة لاستيلائهم على المزارات الشيعية ولأنهم أصبحوا قادرين على منازلة العثمانيين واقتطاع أجزاء من الأراضى التابعة لدولتهم ، مما أعطى الهيبة لإيران ، ولمذهبها الشيعى ، وبخاصة أن العداء — كما يقول براون — أساسه مذهبى ، وليس اختلاف اللغة ولا الأصل(١) .

ولعل تطور هذه العلاقات وانتقالها إلى مرحلة الهجوم الصفوى على الأراضى العثمانية ، كان من أهم الأسباب التى جعلت الإيرانيين يمجدون الشاه عباس ويفاخرون به حتى اليوم ، كما جعلت أوربا المسيحية تهتم دائما بشخصية الشاه عباس الذى قدم لهم - عن طريق حروبه مع الدولة العثمانية - خدمات جليلة ، حيث أتاح للأوربيين الفرصة لالتقاط الأنفاس ، وتجميع الصفوف لمحاربة الدولة العثمانية ، ولولا هذه الحروب العثمانية الإيرانية لأتمت

---

(١) تاريخ ادبيات إيران ج : ٤ ، ص : ٢٥ ، ٢٦

الجيوش العثمانية اجتياح أراضى جميع الدول الأوربية ، ولتغير تاريخ أوربا كلها ، ولهذا كان الصراع الصفوى العثمانى المحور الأساسى للتقارب بين ملوك الدولة الصفوية ـ وبخاصة الشاه عباس ـ وبين عدد كبير من ملوك أوربا ، وسنرى أثر هـــذا الصراع على العلاقات الإيرانية الأوربية فى الفصل القادم .

ثالثا : حروب الشاه عباس مع الدولة المغولية في الهند

بدأت صلات الصفويين بمغول الهند منذ عهد الشاه اسماعيل الأول ، وساعد على تقويتها عداء الطرفين للأوزبك ، ومحاولتهما القضاء على هذا العدو المشترك ، وظلت صلات الود قائمة بين الدولتين إلى أن استولى الشاه طهماسب الأول على قندهار عام ٩٤٣ هـ (١٥٣٥ م) فأسند أمرها إلى ابن أخيه حسين ميرزا بن بهرام ميرزا بن الشاه اسماعيل الصفوى(١) ونتيجة لهذا الاعتداء ساءت العلاقة بين الدولتين ، وظلت على هذا السوء طوال عصر الشاه طهماسب ، وخلال فترة حكم كل من الشاه اسماعيل الثانى ، والسلطان خدابنده(٢) ، وإن لم يتفجر الموقف فى صورة حروب سافرة بين الجانبين .

وخلال هذه الفترة الطويلة كان الشاه جلال الدين أكبر ملك الهند(٣) ،

---

(١) ملحقات تاريخ روضة الصفا ، جـ ٨ ، ص ٣٦٣

(٢) زندگانى شاه عباس أول ، جـ ٤ ص : ٨٠

(٣) هو جلال الدين أكبر الأول حفيد بابر مؤسس دولة المغول فى الهند ، وهو من التركمان الجغتائيين ويصل نسبه من ناحية الأب إلى تيمور لنگ ، وقد حكم أكبر شاه فترة طويلة امتدت ما بين عامى ٩٦٣ - ١٠١٤هـ (١٥٥٦ - ١٦٠٥م) ، وولد أكبر عن أب سنى وأم شيعية . ولكنه شغل نفسه كثيرا بعلوم أهل السنة حتى التقى بأحد حكماء زمانه . فبدأ يدرك الكثير من المسائل الفلسفية والأسرار الصوفية ، فحاول التقريب كثيرا بين المسلمين والهندوكيين فى دولته ، لدرجة أنه حاول إيجاد مذهب جديد أطلق عليه المذهب الإلهى ، حيث يتم التوحيد بين جميع الأديان دون تفرقة ، ودعوته هذه جعلته متسامحاً مع الجميع ، مهما اختلفت مذاهبهم ، ولكن دعوته هذه لم تنجح فى حمل الناس =

يتلمس الفرص لكي يسترد قندهار ، حتى أنه فى عام ٩٩٥ هـ (١٥٨٧م) أمر قواته بالاستيلاء على السند والملتان ومنـــازل البطهان ، لتطل منها على قندهار ، التى كان يمنى النفس منذ أمد بعيد باسترجاعها من الفرس [١] ، وأخيراً واتته الفرصة عام ٩٩٨ هـ (١٥٩٠م) ، حين تعرضت الدولة الصفوية فى بداية حكم الشاه عباس لهجوم أوزبكى من الشرق وهجوم عثمانى من الغرب ، مما أدى إلى انشغال الشاه عباس بصد هذين الهجومين ، وإهماله تدعيم صلاته بحكام قندهار ، مما دفع كلا من مظفر حسين ورستم ميرزا ابنى حسين ميرزا حفيد الشاه اسماعيل ، للجوء إلى أكبر شاه ظنا منهما بأنه حليف الشاه عباس وسيمدهما بالعون والقوات لمساندتهما أمام أى هجمة أوزبكية ولكن خاب ظنهما ، حيث أمر أكبر باستبقائهما فى الهند ، وإسناد أمر قندهار إلى حاكم من أسرته يدعى شاهى بيك الجغتائى [٢] .

علم الشاه عباس بما أقدم عليه جلال الدين أكبر ، ولكنه لم يستطع أن يفعل أى شىء لانشغاله بمحاربة الأوزبك والعثمانيين ، لذا آثر أن يخطب ود أكبر ؛ لعله يساعده فى حروبه ضد الأوزبك أو لعله يرد إليه قندهار دون عراك أو نزال ، وإن لم يتحقق هذا أو ذاك ، فليترك مشكلة قندهار مؤقتا

= على تغيير معتقداتهم ، ونبذ الخلافات العقائدية فيما بينهم ، مما حكم على المذهب الإلهى بالموت . انظر : سلسله هاى إسلامى ص ٣٠٥ وما بعدها ، ودكتور أحمد محمود الساداتى : تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهند وباكستانية وحضارتهم الطبعة الثانية عام ١٩٧٠ ص : ٣٢٦ .

(١) تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهنــد وباكستانية وحضارتهم ، ص : ٣٢٣

(٢) ملحقات تاريخ روضة الصفا ، جـ ٨ ؛ ص . ٣٦٣

حتى يفرغ من باقى أعدائه فى الداخل والخارج ، وبعد ذلك ينتهز أى فرصة مواتية ليطرد الحاكم الهندى من قندهار ، ويعيدها إلى حوزته من جديد .

وأثناء هذه الفترة من الترقب كان الشاه عباس يلجأ أحيانا إلى أسلوب جمع المعلومات عن قوة أكبر وحكومته ، لعله يجد ما يشجعه على الهجوم فى أى وقت ، فقد أرسل الشاه عباس عدة رسل إلى بلاط أكبر ، ومنهم « يادكار سلطان روملو » الذى حمله العديد من التحف والهدايا ، وكلفه بجمع المعلومات الكافية عن حكومة أكبر أثناء إقامته فى بلاطه(١) ، وليخفى غرضه الحقيقى حمله رسالة إلى أكبر شاه يطلب فيها إعادة العلاقات إلى سابق عهدها من الازدهار وتقديم العون له فى محاربته للأوزبك ، كما كان الحال خلال عصر الشاه اسماعيل الأول فى حروبهما المشتركة ضد الأوزبك(٢) .

أحسن أكبر استقبال مبعوث الشاه عباس ، واستبقاه فى الهند مدة خمس سنوات كاملة ، ولكنه امتنع عن تقديم أى عون عسكرى لمساندة الشاه عباس فى حروبه مع الأوزبك ، حيث كان قد عقد معاهدة صداقة بينه وبين الأوزبك ، ولهذا لم يكن من الحكمة أن يساند الشاه عباس وينقض معاهدته معهم ، وبخاصة أن مسلك عباس مع قواده وكبار رجال دولته مع أصحاب المذاهب المختلفة ، لم يعجب أكبر شاه ، لذا نجده يكتفى بإرسال رسالة ينصح فيها الشاه عباس بالحسنى مع الجميع ، وبضرورة التخلى عن أسلوب البطش برجال دولته ، وعدم سفك الدماء بلا جريرة ، كما يجب الابتعاد عن التعصب المذهبى ، وأن يكون عطوفا مع الخلق جميعا ، مهما اختلفت مذاهبهم(٣) .

---

(١) تاريخ إيران از مغول تا افشاريه ، : ص ٣٥١

(٢) زندگانى شاه عباس أول ، جـ ١ : ص ٢١٧

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٣٢٠

ظل الشاه عباس وأكبر شاه يتبادلان الرسائل والهدايا حتى جاء عام ١٠١٤هـ (١٦٠٥م) وتوفى أكبر شاه، وتولى مكانه ابنه نور الدين جهانكير (١٠١٤ — ١٠٣٧هـ — ١٦٠٥ — ١٦٢٨م) [١]، فأراد الشاه عباس اختبار الموقف فى قندهار، نتيجة لانشغال حكومة المغول الهندية بوفاة ملك وتولى آخر، فأمر بعض قواته بالتقدم صوب قندهار، فتقدمت هذه القوات الصفوية واستطاعت الاستيلاء على (بست) من أعمال قندهار، مما أغضب شاهى بيك حاكم قندهار الهندى، فسير حملة لطردهم، ونشبت معركة بين الطرفين انتهم بهزيمة الجيش الهندى، فحاول شاهى جمع جيش جديد، ومعاودة الحرب، ولكنه منى بهزيمة ثانية، مما ثبت دعائم حكم الشاه عباس فى بست[٢].

بعد ذلك شغل الشاه عباس بحروبه فى آذربايجان وشروان، كما شغل جهانكير ببعض الأحداث فى الهند، مما أوجد نوعا من الفتور فى الملاقات، إلى أن جاء عام ١٠١٨هـ (١٦٠٩م) فأرسل الشاه عباس رسولا من قبله إلى بلاط جهانكير وحمله العديد من الهدايا والنفائس. وأعطاه رسالة تضمنت العزاء فى وفاة أكبر، والتهنئة بتولى جهانكير الحكم. فعادت الصلات الودية مرة أخرى، وكثر عدد الرسل المترددين بين العاصمتين الهندية والصفوية، كما كثرت الهدايا المتبادلة، لدرجة أن إحدى بعثات الصداقة الهندية وفدت إلى أصفهان وقد أحضرت معها قدرا كبيرا من الهدايا التى حملها أكثر من سبعمائة مبعوث هندى، وكان ذلك فى عام ١٠٢٦هـ[٣]

---

(١) سلسله هارى إسلامى، ص: ٣٠٥

(٢) ملحقات تاريخ روضة الصفا، جـ ٨، ص: ٣٦٤

(٣) زندگانى شاه عباس أول، جـ ٤، ص: ٦٣، ٩١

على الرغم من الصلات الودية والإكثار من تبادل السفراء ؛ لم يغب عن بال الشاه عباس ضرورة استعادة قندرها ، سلماً كان ذلك أم حرباً ! لذا كان حريصا على الإشارة إلى قندرها فى معظم الرسائل التى بعث بها إلى جانكير ، كما كان يفعل نفس الشيء فى رسائله لأبيه أكبر ، ولكنهما كانا يتجاهلان هذه الإشارات والتلميحات ، لذا أرسل فى عام ١٠٢٩هـ أحد سفرائه لكى يتفاوض مع وزراء جهانكير بشأن استعادة قندهار، ولكن محاولاته هذه باءت بالفشل كذلك . حيث كانت المفاوضات عقيمة وبلا جدوى .

وأمام فشل المحاولات السلمية ، بدأ الشاه عباس يفكر فى اللجوء إلى القوة لاسترداد قندهار ، لذلك سافر إلى خراسان ، ثم خرج محاطا بالعديد من جنوده إلى أطرافها معلنا أنه خارج للصيد والتجول فتوجه نحو حدود قندهار ، ومن هناك أرسل رسالة إلى واليها الهندى يخبره فيها برغبته فى التجول بأنحاء قندهار ، ولكن الوالى الهندى رفض طلبه قائلا . . من الأفضل أن تعود إلى خراسان مرة أخرى ؛ لأننى وقوادى لا نملك من تصرف غير منعكم ومقاومتكم . . » فانتهز الشاه عباس هذا الرفض وسارع بمهاجمة قندهار ، ومحاصرة قلعتها ، وكان ذلك فى يوم الأربعاء الثامن من رجب عام ١٠٣١هـ (١٦٢٢)[١] .

لاشك أن الشاه عباس قد أحسن اختيار الوقت الذى هاجم فيه قندهار ، وذلك لأنه أقدم على القيام بهذه الحملة وقد استطاع التخلص من هجمات الأوزبك والعثمانيين ، واسترد جميع المناطق التى كانوا قد استولوا عليها فى بداية سنى حكمه ، كما استطاع التغلب على القوات البحرية البرتغالية فى جزيرة هرمز

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٠٠ .

وغيرها من جزر الخليج العربي[1] ، ولاشك أن هذه الانتصارات أعطته ثقة كبيرة في نفسه وجنده ، وهذه الثقة كفيلة بأن تقوده من نصر إلى نصر ، وانتصاراته أيضا ستكون خير دعاية له لدى جنود قلعة قندهار ، مما يلقى الرعب في قلوبهم ويسهل مهمة الجنود الصفويين في الاستيلاء عليها ، كما أن الوقت كان مناسبا من حيث ظروف الدولة المغولية الهندية نفسها ، حيث ثارت خلافات حادة وعلنية بين جهانكير وابنه الأمير خرم المشهور باسم شاهجهان بسبب وشايات زوجة الأب المتكررة ، وحرصها على إبعاد شاهجهان عن ولاية العهد ، وإسنادها إلى الأمير شهريار أصغر أبناء جهانكير ، وزوج ابنتها من زوجها السابق الأمير شير افكن[2] .

واستثمر الشاه عباس هذا الخلاف لصالحه وسارع بالهجوم المباغت على قندهار واحتلها، وتأكدت توقعاته من حيث أن هذا الخلاف سيجعل العاصمة الهندية مشغولة عن قندهار ، فقد تخوف جهانكير من ترك العاصمة والتوجه صوب قندهار لطرد الصفويين ، حتى لا ينتهز ابنه شاهجهان الفرصة ويستولى على الحكم ، كما امتنع الابن عن تنفيذ أوامر أبيه للخروج على رأس حملة عسكرية لطرد الشاه وجيشه ، خوفا من أن تنجح زوجة أبيه في تنفيذ مخططها الرامي إلى إقصائه عن ولاية العهد . وهكذا كان هذا الخلاف الأساس الذى وفر لخطة الشاه عباس بالاستيلاء على قندهار فرص النجاح .

بعد أن نجح الشاه عباس في السيطرة على قندهار ، وثبت دعائم ملكه

---

(١) سنعرض لذلك أثناء الحديث عن العلاقات الصفوية البرتغالية في الفصل التالي

(٢) تاريخ المسلمين في شبه القارة الهند وباكستانية . ص : ٣٥٩

فيها وخطب فيها باسم الأئمة الإثنى عشرية[١] ، بادر بمراسلة جهانـكير ، ليلاطفه ويعيد جو الود فيما بينهما ، وليقطع عليه أى فرصة للمطالبة باستعادة قندهار مرة أخرى ، فما كان من جهانـكير إلا أن أحسن استقبال رسول الشاه عباس ، ولعل السبب فى ذلك تأكد جهانـكير من عدم قدرته على منازلة الشاه عباس وجيشه ، بعد أن رفض ابنه قيادة الحملة التى جهزها لمحاربة الصفويين وطردهم من قندهار ، فآثر إظهار الود والمداراة مادام لا يملك وسائل العراك ومقوماته ، ولهذا ظلت العلاقات بين الشاه عباس وجهانـكير متسمة بالود والمجاملات إلى أن توفيا ، حيث كانت وفاة جهانـكير عام ١٠٣٧ هـ ، ووفاة عباس عام ١٠٣٨ هـ .

• • •

وهكذا كانت العلاقات بين الشاه عباس وملوك الهند متسمة بالود فى أغلب فتراتها ، ولـكنه الود الذى يخفى تحتـــــه الترقب والانتظار أملا فى الاستئثار بحكم منطقة قندهار المتنازع عليها فيما بين الدولتين ، ولعل التسامح الدينى الذى كان يتميز به حكام الهند قد خفف من حدة العداء ، فلو كان أكبر متعصباً لانتهز فرصة الهجومين الأوزبكى والعثمانى ، وواصل زحفه على الأراضى الإيرانية بعد استيلائه على قندهار ، ولـكنه اكتفى باسترداد جزء من أراضيه كان الشاه طهماسب قد استولى عليه . أما الشاه عباس فـكان يحاول استثمار العلاقات الطيبة بين الدولتين لصالحه ، حيث طلب من أكبر أن يساعده فى حروبه ضد الأوزبك كما كان الحال أيام الشاه اسماعيل

---

(١) ملحقات تاريخ روضة الصفا ، جـ ٨ ، ص : ٤٢٩

الأول ، ولـكن أكبر رفض ذلك ، فظل الشاه عباس مظهراً الود ، مترقبا أى فرصة للاستيلاء على قندهار ، لـكى يسجل لنفسه مجداً ، بأنه أعاد إلى حكم الصفويين منطقة كان الشاه طهماسب قد استولى عليها ، وليسجل لنفسه مجدا آخر بأن يخطب للأئمة الإثنى عشرية على منابر قندهار بفضل استعادته لها !

الفصل الخامس

علاقات الشاه عباس بالدول الأوروبية

الفصل الخامس

علاقات الشاه عباس بالدول الأوربية

تقديم :

من أهم ما يلفت النظر فى عصر الشاه عباس ، ذلك الانفتاح السياسى الواسع على العديد من الدول الأوربية ، بعكس ما كانت عليه إيران قبل عصره ، حيث كان حكام الدولة الصفوية قبله يتحرزون من إجراء أى اتصال بالعالم المسيحى الأوربى ، وحتى إذا وفد إلى العاصمة الصفوية أى سفير أوربى ، قابله الشاه الصفوى بفتور شديد ، أو امتنع عن مقابلته.وعلى سبيل المثال فقد أرسلت الملكة اليزابيث ملكة انجلترا فى عام ٩٦٩ هـ (١٥٦٢ م) سفيرا لها يدعى « آنتونى جن كين سن » ليقابل الشاه طهماسب الأول ، ويقنعه بعقد أواصر الصداقة بين البلدين ،ولكن الشاه طهماسب قابله بفتور ، ولم يعطه الفرصة ليحقق أى هدف من زيارته ، مما جعله يعود أدراجه وقد فشل فى مهمته .

ولكن ما أن تولى الشاه عباس الحكم وأدرك أنه لن يستطيع مناهضة الدولة العثمانية إلا بالتعاون مع أعدائها الأوربيين ، وجدناه يحرص كل الحرص على الاتصال بجميع ملوك أوربا ويحاول عقد الكثير من المعاهدات بينه وبين هؤلاء الملوك ، وكانت هذه المعاهدات تُعْنَى فى المرتبة الأولى بالتأكيد على رغبة الشاه عباس فى التعاون المشترك من أجل مناهضة العثمانيين ومحاربتهم .

ولكى تتوطد هذه الصلات الجديدة أرسل الشاه عباس العديد من

سفرائه إلى جميع العواصم الأوربية تقريباً ، كما أرسل ملوك أوربا رسلهم وتجارهم لزيارة إيران ، وعقد معاهدات سياسية وصفقات تجارية مع الشاه عباس ، وقد أدى هذا الاتجاه إلى زيادة عدد الأوربيين بالعاصمة أصفهان وغيرها من المدن الإيرانية ، حيث حرص الشاه عباس على توفير كل متطلبات الأمن والراحة لهؤلاء الأوربيين .

ولكى نحكم على هذا الانفتاح السياسى والتجارى الإيرانى على أوربا يجب أن نعرض لعلاقات الشاه عباس لكل دولة أوربية على حدة ، ثم نرى بعد ذلك ماذا تحقق لإيران من وراء هذه العلاقات .

أولا : علاقات الشاه عباس مع البرتغال وأسبانيا

— ١ —

العلاقات قبل حكم الشاه عباس الأول :

من المعروف لدارسي هذه الحقبة التاريخية أن القوات البرتغالية تمكنت من بسط نفوذها على جزيرة هرمز بمدخـــل الخليج العربى عام ٩١٢ هـ (١٥٠٦ م) ثم سيطرت بعد ذلك على العديد من الموانى المجاورة ؛ مما جعل هذه القوات صاحبة الكلمة العليا فى التجارة البحرية بين دول الخليج والعالم الخارجى ، بعد أن كانت حركة التجارة فى يد العرب قبل ذلك . كما حرص البرتغاليون على بناء عدة قلاع حصينة فى هرمز والبحرين وكمبرون ، حتى يحكموا قبضتهم على كل مناطق الخليج . وكانت رئاسة هذه القلاع معقودة للمندوب البرتغالى فى جزيرة هرمز ، وهو بدوره تابع لرئاستهم العامة فى منطقة المحيط الهندى ومركزها ميناء جوا بالهند .

ولا شك أن مقدم القوات البرتغالية إلى منطقة الخليج وسيطرتهم على حركة التجارة فيه ، وكذلك شل حركة التجارة فى البحر الأحمر ، أدى إلى صراع بين هذه القوات وبين الدولة العثمانية حيث حرصت هذه القوات البرتغالية على قطع الصلات التجارية بين الهند وبين البلاد التابعة للدولة العثمانية . فحاول العثمانيون التصدى لهذه القوات وإبعادهم عن مدخل البحر الأحمر وعن منطقة الخليج العربى ، ولـكنهم لم يفلحوا فى ذلك ، ولعل هذا

لانشغالهم بالحروب والتوسع فى البلقان ، وعدم التفاتهم إلى للشرق الإسلامى بعد ظهور الدولة الصفوية فى إيران[1] .

أما فى الجانب الآخر وهو جانب الدولة الصفوية ، فنظرا لانشغال الشاه اسماعيل الأول بحروبه مع الأوزبك والعثمانيين فلم يدخل فى حرب مع هذه القوات البرتغالية ، على الرغم من أنها منعت حاكم هرمز من دفع الجزية التى كان يدفعها كل عام للحكومة الصفوية ، وأكثر من هـــذا أقدم الشاه اسماعيل على عقد اتفاقية معهم ، تنص على أن تساعده القوات البرتغالية فى حروبه ضد الدولة العثمانية فى مقابل إغماض عينيه عن المطالبة بجزيرة هرمز وميناء كمبرون .

وطوال فترة حكم الشاه اسماعيل الأول وحتى نهاية حكم السلطان محمد خدابنده ، والأمور على ماهى عليه من تسلط كامل للقوات البرتغالية على حركة الملاحة والتجارة بمنطقة الخليج ، ولم يحدث سوى دخول هذه القوات تحت سلطان ملك أسبانيا ، الذى استطاع إخضاع البرتغال لسلطانه فى عام ٩٨٨ هـ (١٥٨٠ م)[2] ونتيجة لهذا أصبح على إيران إذا أرادت أن تتعامل سياسياً مع هذه القوات ، أن تتعامل مع ملك أسبانيا وحكومتها على الرغم من أن جميع أفراد هـــذه القوات المرابطة فى منطقة الخليج كانوا من أصل برتغالى .

هكذا كان الوضع قبل عصر عباس ، فعلام كانت العلاقات خلال فترة حكم الشاه عباس الأول ؟

---

(١) عبد العزيز سليمان نوار (دكتور) : مصر والعراق . دراسة فى تاريخ العلاقات بينهما حتى نشوب الحرب العالمية الأولى . ص : ٥٥ وما بعدها ، القاهرة ١٩٦٨

(٢) تاريخ إيران از مغول تا افشارية ، ص : ٣٤٣

— ٢ —

تبادل السفراء بين الشاه عباس وملك أسبانيا :

كانت السنوات العشر الأولى من حكم الشاه عباس مزدحمة بالعمل الداخلى ، وبالتصدى لحملات الأوزبك فى الشرق، لذا لم يرد فى أقوال المؤرخين ما يفيد حدوث صلات جادة بين الشاه عباس وملوك أوربا طوال هذه السنوات العشر .

ولكن بعد أن أحرز الشاه عباس انتصارات حاسمة على الأوزبك ، وبدأ يستعد لمحاربة العثمانيين ، سارع ملوك أوربا وبابا روما بإرسال سفرائهم إلى العاصمة الإيرانية ، وكانت المحاور الأساسية التى تدور عليها مباحثاتهم دائما ، التعاون الحربى والسياسى ضد الدولة العثمانية ، ومطالبة الشاه عباس بحسن معاملة المسيحيين فى إيران ، وعقد صفقات تجارية بين إيران والدول الأوربية ، وكان الشاه عباس يرحب بمقدم هؤلاء السفراء لأنه كان فى حاجة ماسة لمساعدة ملوك أوربا ضد الدولة العثمانية ، وكان مستعدا لبذل كل المساعى المطلوبة ليحظى بهذه المساعدة ، لذا أرسل عددا من سفرائه إلى أوربا لحث ملوكها على التعاون المشترك . ومن الذين اهتم الشاه عباس بمراسلته وتبادل السفراء معه ، ملك أسبانيا وهو المشرف فى نفس الوقت على القوات البرتغالية المرابطة فى منطقة الخليج العربى ، بسبب خضوع البرتغال لسيطرته منذ عام ٩٨٨ هـ (١٥٨٠م) كما سبق أن ذكرت فمن هم أهم السفراء الذين تم تبادلهم بين الشاه عباس وفيليب الثالث ملك أسبانيا ؟

أولا : سفراء ملك أسبانيا إلى بلاط الشاه عباس :

يبدو أن أول بعثة أسبانية وصلت إلى إيران كانت عام ١٠٠٧هـ(١٥٩٨م).

ورأس هذه البعثة قسيسان برتغاليان هما : (آلفونسو كوردرو) مبعوث كنيسة الفرنسيسكان، و (نيكولادى ملو) مبعوث كنيسة الدومينيكان وهوفى نفس الوقت قسيس القوات البرتغالية المرابطة فى جزيرة هرمز ،وقيل إن الشاه عباس أحسن وفادتهما والوفد المصاحب لهما،فقدما للشاه الهدايا، وبلغاه تهنئة ملك أسبانيا على انتصارته فى خراسان ،ثم طلبا منه السماح لمسيحيى إيران ببناء الكنائس ومزاولة شعائرهم الدينية[1]، فشكرهم الشاه على الهدايا والتهنئة،ووعدهم بحسن معاملة مسيحيي إيران. ولكن بقاء هذه البعثة فى إيران لم يطل كثيراً،حيث كان الشاه عباس يعد العدة لإرسال بعثة من قبله إلى أوربا برئاسة حسين على بيات وانتونى شرلى ، فعادت البعثة الأسبانية مع البعثة الإيرانية المسافرة إلى أوربا عن طريق روسيا وألمانيا .

ثم وفد إلى بلاط الشاه عباس مبعوث أسبانى آخر يدعى (آنتونيودى جوفيا). وقد جاء هذا السفير إلى إيران ثلاث مرات مبعوثا من قبل فيليب الثالث، فكانت بعثته الأولى عام ١٠١١ هـ (١٦٠٢) ، حيث وفد معه عدد كبير من المبشرين المسيحيين ، وبعد استقبال الشاه عباس لهم فى مشهد ، أعلنوا أنهم جاءوا للتفاوض بشأن إعادة البحرين إلى سيادة أسبانيا — وكانت القوات الإيرانية قد استردتها عام ١٠١٠هـ (١٦٠١ م) — وكذلك لإنهاء الحصار المفروض حول ميناء كمبرون ، ثم السماح للمبشرين بالعمل فى إيران والتصريح لهم ببناء كنيسة يؤدى فيها المسيحيون شعائرهم[1] . فلم يقبل الشاه عباس

---

(١) تاريخ روابط إيران واوربادر دورهٔ صفويه ، قسمت أول ، ص : ١٩

(١) عباس إقبال : قسمتى از ما جراى خليج فارس ، مجلهٔ يادگار ، سال چهارم ، شمارهٔ سوم ، ص : ٢٩

التفاوض بشأن إعادة البحرين فى حين أصدر أوامره إلى قواده بفك حصار ميناء كمبرون، ثم قال لمبعوث ملك أسبانيا، وهو يعاتبه على مساعدتهم له فى موقفه من الدولة العثمانية : أما بخصوص السماح بإنشاء كنيسة بإيران، فإننى شخصياً موافق على بنائها، ولكنى أخشى معارضة رجال الدين، ولكن إذا حدث وساعدتم إيران فى حزوبها ضد الدولة العثمانية، ففى هذه الحالة يمكن السماح ببناء عدة كنائس لا كنيسة واحدة، وذلك دون خشية من اعتراض رجال الدين![1].

وبعثة انتونيودوجوفيا الثانية كانت عام ١٠١٧ هـ (١٦٠٨م)، وقد كرر هذا المبعوث نفس المطالب التى طالب بها فى بعثته الأولى، وهى إعادة البحرين وتسهيلات تمنح للمسيحيين، وكذلك قصر تجارة إيران فى منطقة الخليج على تجار أسبانيا والبرتغال، وذلك فى مقابل المزيد من الوعود الصادرة من فيليب الثالث بمساعدة إيران فى حروبها ضد الدولة العثمانية، ولكن الشاه عباس الذى سمع الكثير من الوعود، ولم ير أى مساعدة من ملك أسبانيا أو غيره من ملوك أوربا أراد أن يتحقق من هذه الوعود التى قدمها المبعوث الأسبانى وهل هذه الوعود صادرة عن السفير، أم أنها صادرة عن ملك أسبانيا، لذا أمر أن يصحب هذا السفير فى عودته أحد كبار رجاله على رأس وفد إيرانى يتوجه لمقابلة ملك أسبانيا للتأكد من صحة هذه العهود، وكان هذا المبعوث الإيرانى هو (دنكيز بيك)[2].

ظل انتونيودنكيز فى أسبانيا حتى عام ١٠٢٢هـ (١٦١٢ م) وبعدها

---

(١) إيران در زمان صفويه، ص : ١٠٩

(٢) المرجع السابق، ص : ١١٣، وقسمتى از ما جراى خليج فارس ص ٣٤، وزندگانى شاه عباس أول ٧ ٤ ص ١٧٣ وما بعدها.

عادوا إلى إيران ، فكانت هذه هى البعثة الثالثة لانتونيو دوجوفيا ، ونظرا لوجود الشاه عباس فى مازندران ، فإن المبعوث الأسبانى لم يلتق به إلا فى الثلاثين من المحرم عام ١٠٢٢هـ وذلك عندما عاد الشاه عباس إلى عاصمته أصفهان ، ولاحظ السفير الأسبانى أن الاستقبال كان غاية فى الفتور، ثم أهمله الشاه عباس ، وبدأ يوجه حديثه بعنف شديد إلى مبعوثه دنكيز بيك ، ولم يطل الوقت حتى أصدر الشاه عباس أوامره بقتل دنكيز بيك[1] ، مما جعل الخوف يدب فى فى قلب السفير الأسبانى ، لذا سارع بالهرب الى جزيرة هرمز حيث يوجد مركز قيادة القوات البرتغالية فى منطقة الخليج العربى ، وكانت هذه البعثة آخر بعثاته الى بلاط الشاه عباس .

---

(١) من الأسباب التى أصدر الشاه عباس بمقتضاها الأمر بإعدام دنكيز بيك ما يلى :

(ا) قام دنكيز بيك بفض رسالة الشاه عباس إلى فيليب الثالث ، وذلك بناء على رغبة ممثل أسبانيا فى ميناء جوا حيث يوجد مركز تجارة البرتغال فى الهند .

(ب) لم يراع القتيل نظام البروتوكول المتبع بالنسبة للسفراء ، وارتدى ملابس الحداد السوداء بدلا من الملابس الإيرانية الرسمية يوم وفاة ملكة أسبانيا .

(حـ) باع القتيل رسالة الشاه عباس المرسلة إلى البابا لتاجر ، حتى يسافر التاجر إلى روما ويدعى أنه مبعوث الشاه ، ويحقق من وراء ذلك الادعاء مكاسب عديدة .

(د) أساء دنكيز بيك معاملة جميع مرافقيه فى الرحلة ، مما دفع بعضهم إلى اعتناق الدين المسيحى والبقاء فى أسبانيا ، وعدم العودة إلى إيران .

[انظر : ملحقات روضة الصفا ، جـ ، ص : ٤١٢ ، تاريخ روابط إيران وأوربا در دورة صفويه ، ص ٤١ ، ٤٢] .

أما المبعوث الأخير الذى أرسله ملك أسبانيا إلى بلاط الشاه عباس قبل اندلاع الحرب بين القوات الإيرانية والبرتغالية عام ١٠٣١ هـ (١٦٢٢م) فكان (دون جارسيا دى سيلفا فيجورا) وكان موعد وصول البعثة إلى إيران فى الثالث والعشرين من جمادى الأولى عام ١٠٢٧ هـ (١٦١٨م) [١]، وقد وفد هذا الرسول ليتباحث مع الشاه عباس فى عدة أمور أهمها ؛ استعادة البحرين وكمرون (استولت القوات الإيرانية على البحرين فى عام ١٠١٠هـ، وعلى كمبرون فى عام ١٠٢٣ هـ) ، والسماح للمسيحيين بمزاولة عبادتهم بحرية ودون قيود ، ثم النظر بعين العطف إلى مواطنى البرتغال وأسبانيا الذين يفدون إلى إيران ، وكذلك عقد صفقات تجارية ، تعطى للتجار البرتغاليين والأسبان فرصة الإشراف على تجارة إيران فى منطقة الخليج العربى ، وأخيراً عدم السماح لقراصنة البحر الإنجليز وتجارهم بمنافسة القوات البرتغالية فى منطقة الخليج . وذلك كله فى مقابل مساعدة إيران فى حروبها مع الدولة العثمانية ، حيث سترسل السفن الحربية البرتغالية والأسبانية لمهاجمة البحرية العثمانية فى البحر الأحمر وتغلقه فى وجه التجارة العثمانية[٢] .

وجاء دون جارسيا إلى إيران ، والشاه عباس يتفاوض مع العثمانيين بشأن توقيع معاهدة صلح جديدة ، توقف الحرب الدائرة فى منطقة آذربايجان وقد تم توقيع هذه المعاهدة الجديدة فى عام ١٠٢٧هـ أثناء وجود هذا المبعوث الأسبانى فى إيران ، وفى نفس الوقت كانت الصلات بين ايران وشركة الهند الشرقية الإنجليزية قد بدأت ، وكان الشاه عباس حريصا على التعاون مع هذه الشركة لتكون خير عون له فى تصديه لظلم القوات البرتغالية فى منطقة الخليج

---

(١) تاريخ إيران از مغول تا افشاريه ، ص : ٣٣٤

(٢) زندگانى شاه عباس أول ، جـ ٤ ، ص ١٩٢ - ١٩٤ ، ١٩٦ - ٢٠٠

العربى ، ونتيجة لهذه الأسباب ؛ حكم على بعثة دون جارسيا بالفشل ، لذا كان استقبال الشاه له فاترا ، وردوده فى غاية الشدة والعنف، فبالنسبة للبحرين لم يقبل الحديث عنها مطلقا ، وقال بخصوص كمبرون : لنتكلم بصراحة ، إن هذا الميناء جزء من الأراضى الإيرانية . . . لذا لن أسمح لأحد قط بأن يسيطر عليه مرة أخرى(١) وبالنسبة للتجارة الإيرانية ، فذكر له أنه سيبيع الحرير الإيرانى لأى تاجر يدفع أعلى ثمن ، ولن يقصر بيعه على تجار أسبانيا والبرتغال، كما لا يسمح له بمخاطبته بشأن أصدقائه الجدد ، وهم تجار شركة الهند الشرقية الإنجليزية ، أما بخصوص إرسال سفنهم صوب البحر الأحمر لإغلاقه فى وجه تجارة الدولة العثمانية ، فلم تعد إيران فى حاجة إلى ذلك ، حيث وقعت إيران والدولة العثمانية معاهدة صلح ، وخمدت نار الحروب بينهما .

وعندما أدرك دون جارسيا بأنه لن يحقق شيئا من وراء بعثته هذه ، سارع بالعودة إلى هرمز ، ويبدو أن ذلك كان دون استئذان من الشاه عباس مما جعله يعتبر توجهه المفاجىء إلى هرمز بمثابة قطع العلاقات الودية بين البلدين(٢) .

. . .

ثانيا : سفراء الشاه عباس لدى البلاط الأسبانى .

سبق أن ذكرنا بأن الشاه عباس بعد انتصاره على الأوزبك ، بدأ يفكر فى مخاطبة الدول الأوربية لتسانده فى صراعه مع الدولة العثمانية ، وكان أول من فكر فى الاتصال به من ملوك أوربا ، ملك أسبانيا والمشرف على الحامية البرتغالية فى منطقة الخليج ، وذلك لتواجد قواته على مقربة من إيران من

---

(١) تاريخ روابط إيران وأوربا . . . ص : ٦٣

(٢) قسمتى از ما جرى خليج فارس ، ص : ٣٧

جانب ولتطويقها ممتلكات الدولة العثمانية في الجزيرة العربية من جانب آخر . ولإمكان قيام هذه القوات البرتغالية التابعة له بتهديد التجارة العثمانية فى البحر الأحمر ، ولهذا بدأ يعد العدة لإرسال بعثة دبلوماسية إلى أسبانيا ، وبعض الدول الأوربية المتصارعة مع الدولة العثمانية ، وتم اختيار أفرادالبعثة فعقدت رئاستها إلى حسينعلى بيك بيات ، ولكن التصرف الفعلى كان فى يد أنتونى شرلى[1] ، وقد حدد الشاه عباس أهداف البعثة فى هدفين أساسيين ، أولهما عقد معاهدات مع جميع ملوك الدول الأوربية التى سيزورونها للعمل المشترك ضد الدولة العثمانية ، وثانيهماتسويق الحرير الإيرانى .

خرجت البعثة من إيران فى الخامس عشر من ذى الحجة عام ١٠٠٧ هـ (٩ يونيو ١٥٩٩)[2] وضمت إلى جانب حسينعلى بيك وأنتونى شيرلى عددا من المرافقين من بينهم أحد رجال الدين الشيعى للإشراف على مسلك أفراد البعثة من الوجهة الدينية ، كما انضم إلى البعثةالقسيسان البرتغاليان اللذان وفدا من قبل ملك أسبانيا للتباحث مع الشاه عباس ، وسلكت البعثة طريق مازندران ثم روسيا ومنها إلى دول وسط أوربا ، وأخيراً توجهت البعثة إلى روما حيث حدث سوء تفاهم بين انتونى شرلى وحسينعلى بيك بيات ، مماجعل أنتونى شرلى ينفصل عن البعثة ويقطع صلته بإيران ، وأخيراً توجه حسينعلى ورفاقه الإيرانيون إلى أسبانيا فوصلوها فى أوائل عام ١٠١٠هـ ، وقضت البعثة هناك مدة شهرين استأذن بعدها حسينعلى فى العودة إلى إيران دونأن يكمل رحلته فى باقى دول أوربا ، حيث كان مكلفا بتوصيل رسائل الشاه عباس إلى كل من ملوك إنجلترا وفرنسا وغيرهما[3] .

---

(١) إيران در زمان صفويه ، ص : ١٠١

(٢) تاريخ إيران از مغول تا افشاريه . ص ٣٤٣

(٣) قسمتى از ما جراى خليج فارس ، ص : ٣٤

ولعل السبب الذى جعل حسينعلى بيك بيات يسرع بالعودة دون أن يحقق أى هدف من رحلته ، اعتناق ثلاثة من رفاقه الدين المسيحى وتعميدهم فى أسبانيا بحضور الملك والملكة[1] ، وكذلك قتل رجل الدين الشيعى المرافق للبعثة على يد أحد الأسبان المتعصبين[2] .

هكذا عادت البعثة الدبلوماسية الأولى التى أرسلها الشاه عباس دون أن تحقق أى هدف سافرت من أجله ، لذا توقفت بعثات الشاه عباس إلى

---

(٣) الثلاثة الذين اعتنقوا الديانة المسيحية ، ورفضوا العودة مرة أخرى إلى إيران ، هم :

(ا) عليقلى بيك ابن أخى السفير حسين على بيك بيات ، وكان اعتناقه المسيحية موضع ألم وغصة للسفير الإيرانى ، وقد حضر فيليب الثالث بنفسه حفلة تعميده ، وقبلَ أن يكون بمثابة الأب الروحى له ، وغير اسمه بعد اعتناقه المسيحية إلى (دون فيليب)

(ب) أروج بيك ، وكان يمثل سكرتير أول البعثة الايرانية ، وقد قبلت ملكة أسبانيا أن تكون أمًّا روحية له يوم تعميده ، وعرف بعد ذلك باسم (دون جوان إيران) وقد ألف كتابا هاما عن إيران بعد ذلك قسمة إلى ثلاثة أبواب تحدث فيها عن وصف مختصر لايران ، ثم شرح أحوال سلاطين إيران وحروبهم مع الخلافة العثمانية وأخيراً تحدث عن رحلة حسين على وانتونى شرلى منذ خروجها من إيران ، حتى دخولهم إلى اشبونه .

(ح) بنيادبيك ، وهو أحد أعضاء البعثة ، وأصبح اسمه بعد اعتناق المذهب الكاثوليكى (دون ديجو)

لمعرفة المزيد عن قصة هؤلاء ، يرجع إلى تاريخ روابط إيران وأوربا در دورهٔ صفويه ، قسمت أول ، ص ٣٠ — ٣٢ ، زندگانى شاه عباس أول ج ٤ ، ص : ١٦٤ — ١٦٥ ، وتاريخ ادبيات إيران ج ٤ (بروان) ص : ١٩ - ٢٠

(٤) إيران در زمان صفويه ، ص : ١٠٦

أسبانيا مدة ست سنوات ، ولم يعاود الكرة إلا عام ١٠١٦ هـ (١٦٠٧م) .

عندما اشتدت وطأة الحرب فى آذربايجان بين الشاه عباس والدولة العثمانية سارع بإرسال بعثة دبلوماسية ثانية إلى أوربا، وعقد رئاستها لروبرت شرلى ، فخرجت البعثة من أصفهان عام ١٠١٦ هـ ولكنها لم تصل إلى أسبانيا إلا بعد عامين ، وعندما مثل روبرت فى بلاط ملك أسبانيا ، سلمه رسالتين مطولتين من الشاه عباس ، وفيهما يدعوه إلى التعاون للقضاء على عدوهما المشترك المتمثل فى الدولة العثمانية ، وذلك فى مقابل تسهيلات تجارية يقدمها الشاه عباس لتجار البرتغال. وأسبانيا ، فكان جواب ملك أسبانيا غاية فى الاقتضاب ، كما كان استقباله فاترا ، واكتفى بالقول بأنه سيعمل على حث البابا وملوك أوربا على محاربة العثمانيين وإرسال سفنهم الحربية لسد مدخل البحر الأحمر أمام التجارة العثمانية مع الهند[1] .

ولعل ملك أسبانيا سلك هذا المسلك مع روبرت شرلى ، لأن الشاه عباس كان قد رفض رجاء هذا الملك باستعادة سيطرة القوات البرتغالية على البحرين ، وأمام هذا الفتور اضطر روبرت شرلى إلى ترك العاصمة الأسبانية ، والتجول فى أوربا ثم العودة إلى إيران عام ١٠٢٤ هـ (١٦١٥ م) دون أن يحقق أهداف المهمة التى سافر من أجلها ، وهكذا أصاب الفشل مهمة روبرت شرلى الأولى ، كما أصاب الفشل مهمة أخيه أنتونى شرلى من قبل !

ولكن على الرغم من هذا الفشل ، وكذلك فشل بعثات انتونيو دوجوفيا المبعوث الأسبانى إلى إيران ، فقد أقدم الشاه عباس على معاودة إرسال روبرت شرلى مرة أخرى إلى أسبانيا ، كما أرسل ملك أسبانيا دون جارسيا

(١) زندگانى شاه عباس اول ، ج ٤ ، ص : ١٨٠ - ١٨٨

إلى إيران ، وهذا يفيد بأن اليأس لم يتطرق إلى أحدهما ، فلم ييأس عباس — المتلهف إلى أى عون أوربى ضد الدولة العثمانية — من مساعدة فيليب له ، كما لم ييأس فيليب فى استرداد البحرين من الشاه عباس(١) .

غادر روبرت شرلى إيران عام ١٠٢٤ هـ متوجها صوب أسبانيا فوصلها عام ١٠٢٦ هـ وقضى هناك خمس سنوات ، وخلال هذه الفترة كانت العلاقات بين الدولتين تسير من سىء إلى أسوأ ، وتستعد كل منهما للنزال والعراك فى منطقة الخليج العربى ، مما أضفى على بعثة روبرت الثانية المزيد من الصعاب ، فلم يستطع أن يحقق الهدف الذى سافر من أجله على الرغم من طول المدة التى قضاها فى العاصمة الأسبانية . فاضطر لترك أسبانيا والسفر إلى إنجلترا عام ١٠٣١هـ (١٦٢٣م) ، ولم يعد إلى إيران إلا فى عام ١٠٣٦ هـ .

هذه هى أهم البعثات الدبلوماسية التى أرسلها الشاه عباس الأول إلى أسبانيا وقد وجدت إلى جانبها بعثات أخرى أقل أهمية ، من بينها سفر دنكيز بيك بصحبة انتونيو دى جوفيا عام ١٠٢٠ هـ ثم عودته معه إلى إيران لينفذ فيه حكم الإعدام بمجرد لقائه بالشاه عباس ، كما سبق أن أشرنا إلى ذلك.

وهكذا فشل جميع سفراء إيران ، وكذلك جميع سفراء أسبانيا فى تحقيق التعاون بين الشاه عباس وفيليب الثالث ، ولاشك أن هذا الفشل كان ينتج أحيانا عن بعض المناوشات الحربية فى منطقة الخليج بين الجيشين الصفوى والبرتغالى ، إلى أن تفاقم الموقف فى النهاية وانتهى الأمر بالقطيعة والحرب .

* * *

(١) قسمتى از ما جراى خليج فارس . ص : ٣٥

— ٣ —

المعارك الحربية قبل تحرير هرمز :

على الرغم من تبادل السفراء بين البلاطين الصفوى والأسبانى المشرف على القوات البرتغالية فى الخليج ، فإن الشاه عباس كان ينتهز أى فرصة سانحة ويمد نفوذه على أى منطقة خاضعة للوجود البرتغالى فى منطقة الخليج العربى ، وقد أثر هذا الموقف على مدى نجاح السفراء فى تحقيق الأهداف التى سافروا من أجلها سواء إلى البلاط الصفوى أو إلى البلاط الأسبانى ، وظل الموقف يتفاقم بالتدريج حتى انتهى العقد الثالث من القرن الحادى عشر الهجرى ، فالتقى الجيشان الصفوى والبرتغالى فى معركة فاصلة حول فرض السيادة على جزيرة هرمز ، وانتهت المعركة بطرد القوات البرتغالية من جميع الأراضى التابعة للشاه عباس الأول، ولكن ما المعارك التى دارت بين الجيش الصفوى والقوات البرتغالية قبل استرداد الإيرانيين لجزيرة هرمز ؟

أولا : فتح البحرين

كانت البحرين تابعة لحاكم جزيرة هرمز ، وهو الذى يعين من قبله من يصرف أمورها ، واستمر هذا الوضع بعد قدوم القوات البرتغالية إلى منطقة الخليج العربى فى أوائل القرن العاشر الهجرى ، واستيلائها على كل من هرمز والبحرين ، ونظرا لأهمية البحرين بالنسبة لمنطقة الخليج كلها ، فقد أنشأت القوات البرتغالية فيها مركزا رئيسيا لقواتهم المشرفة على حكم المناطق الساحلية العربية من الخليج ، وأقاموا فيها كذلك دارا للتجارة (١).

---

(١) قسمتى از ما جراى إقليم فارس ، ص : ٢٧ ، تاريخ ايران از مغول تا افشارية ، ص : ٣٢٢

وفى عام ١٠١٠ توفى فرخ شاه حاكم جزيرة هرمز وتولى مكانه ابنه فيروز شاه الذى استوزر شرف الدين لطف الله ، فقام هذا الوزير بتعيين أخاه ركن الدين مسعود حاكما على البحرين . وبعد أن تسلم الحاكم الجديد زمام الأمور فى البحرين شعر بأن القوات البرتغالية المرابطة هناك وكذلك تجارهم يتحكمون فى كل شىء ، ففكر فى التخلص منهم ، وفى الاستقلال بحكم البحرين (١) ولكن كيف يتأتى له ذلك ، وليس لديه من القوة ما يستطيع أن يجابه به قوات حاكم هرمز والقوات البرتغالية المرابطة فى منطقة الخليج العربى ؟ لهذا فكر فى مخاطبة الإيرانيين لكى يساعدوه فى تحقيق ما يصبو إليه ، فتحدث مع أحد وجهاء فارس ويدعى « معين الدين فالى » فى الأمر ، فنقل معين الدين الخبر إلى حاكم فارس اللهورديخان الذى رحب بالفكرة ، لا ليساعد ركن الدين مسعود ، ولكن ليفرض سلطانه على البحرين ويجعلها تابعة للشاه عباس (٢) .

تقدمت الجيوش الإيرانية التى أعدها اللهورديخان نحو البحرين بقيادة معين الدين فالى ، وتمكنت من دخولها بعد مقاومة ضعيفة حيث اعتقد سكانها أنهم جاءوا لمساعدة حاكمهم ركن الدين مسعود ، وفجأة هجم الجنود الصفويون ذات ليلة على دار هذا الحاكم واغتالوه ، مما أدخلهم فى عراك مع قواته ، ولكن النصر كان حليف الجيش الإيرانى ، وهكذا تمت لهم السيطرة على البحرين فى منتصف شهر رمضان من عام ١٠١٠ هـ (٣)

وعندما وصلت أنباء الهجوم الصفوى على البحرين واغتيالهم لحاكمها

(١) ملحقات تاريخ روضه الصفا ، جـ ٨ ، ص : ٣٣٣
(٢) تاريخ ايران از مغول تا افشاريه ، ص : ٣٢٢
(٣) زندگانى شاه عباس اول ، جـ ٤ ، س : ٣٢٢

إلى جزيرة هرمز، سارع حاكمها، وقائد القوات البرتغالية المرابطة فيها بتجهيز جيشين ؛ أحدهما برى وتولى قيادته الوزير شرف الدين لطف الله، وهو فى نفس الوقت أخو حاكم البحرين الذى اغتيل، وثانيهما بحرى يضم عددا من سفن البرتغال الموجودة فى منطقة الخليج[1]، وتقدم الجيشان وحاصرا البحرين، وأمام شدة الحصار فكر حاكم فارس اللهورديخان فى حيلة تخفف من وطأته؛ ففتح جبهة جديدة أمام القوات البرتغالية بأن أمر جماعة من جنده بحصار ميناء كمبرون، ونجحت الخطة حيث انسحبت بعض السفن الحربية البرتغالية من الحصار المضروب حول البحرين وتوجهت صوب ميناء كمبرون[2]، مما مكن القوات الإيرانية فى البحرين من وضع يدها على الجزيرة، والتغلب على القوات المعادية الباقية، كما ظفرت بعدد من المدافع الحربية، تم إرسالها الى الشاه عباس فسر بها سرورا عظيما حيث كان يستعد لمنازلة العثمانيين[3].

وهكذا كانت البحرين أول جزء فى منطقة الخليج العربى يستطيع جيش الشاه عباس انتزاعه من القوات البرتغالية، بعد استعمار برتغالى دام مايقرب من مائة عام، وقد حاول فيليب الثالث التباحث مع الشاه عباس عن طريق جميع السفراء الذين أرسلهم إلى إيران، لاسترداد البحرين، ولكن الشاه عباس رفض تلبية هذا المطلب على الدوام.

ثانيا : استرداد ميناء كمبرون :

يقع ميناء كمبرون على مسافة فرسخين فقط من جزيرة هرمز، وقد سارعت

---

(١) قسمتى از ما جرى خليج فارس، ص : ٢٨

(٢) المرجع السابق ونفس الصفحة.

(٣) زندگانى شاه عباس اول، ج ٤، ص : ١٦٧

القوات البرتغالية بفرض سيطرتها عليه بمجرد قدومها إلى منطقة الخليج[1] ، وذلك لتستخدمه مرفأ لسفنها الحربية الكبيرة ، إذ أن شواطىء جزيرة هرمز لم تكن تصلح لاستقبال مثل هذه السفن[2] ، وفى بداية حكم الشاه عباس شيد البرتغاليون فيه قلعة كبيرة ، فأصبح الميناء منذ ذلك الوقت يمثل قاعدة بحرية برتغالية ترسو فيه ما بين خمس وعشرين وثلاثين سفينة حربية تتولى حماية القلعة ، وتحصل الرسوم الجمركية من أى سفينة غير برتغالية تدخل إلى الخليج[3] .

فى أثناء الحديث عن فتح البحرين ذكرنا أن قوات اللهورديخان حاصرت هذا الميناء عام ١٠١٠ هـ لتخفف الحصار عن القوات الإيرانية المسيطرة على البحرين ، ثم انسحبت هذه القوات عندما انتهى حصار البرتغاليين للبحرين ولكن القوات الإيرانية عادت وحاصرت ميناء كمبرون للمرة الثانية فى عام ١٠١١ هـ ، واستمر الحصار حتى أصدر الشاه عباس أوامره بفك الحصار استجابة لمطلب انتونيودو جوفيا السفير الأسبانى ، ورغبة من الشاه فى حث ملك أسبانيا على تقديم العون له ضد الدولة العثمانية .

بعد ذلك احتدم النزاع الصفوى العثمانى ، وحدثت معارك عنيفة بينهما فى منطقة آذربايجان ، فحرص الشاه عباس على خطب ود البرتغاليين والأسبان حتى يساعدوه ضد العثمانيين ، ولكنه لم يظفر منهم إلا بالوعود دون التنفيذ ، فلما ما أن انتهى من الجولة الحربية الثانية مع العثمانيين حتى أعد قائده اللهورديخان حملة كبيرة تولى قيادتها ابنه إماما مقليخان ، وسيرها فى عام ١٠٢٢ هـ

---

(١) تاريخ روابط ايران وأوروبا در دورة صفويه ، ص : ٥٣

(٢) ايران در زمان صفويه ، ص : ١٢٢

(٣) زندگانى شاه عباس أول ، ج ٤ ، ص : ١٩٥ - ١٩٦

(١٦١٣ م) للاستيلاء على ميناء كمبرون ولكن الحملة فشلت فى أداء مهمتها. ثم توفى اللهورديخان فى نفس العام، وتولى ابنه إمامقليخان حكم ولاية فارس من بعده، فعاود الكرة بعد عام واحد من توليه وهاجم كمبرون واستطاع انتزاعها من البرتغاليين، فهدم قلعتهم، وبنى قلعة أخرى جديدة مكانها، كما بنى على مقربة من ميناء كمبرون، ميناء جديدا عرف باسم «بندر عباس» تيمنا بطرد البرتغاليين من الميناء القديم وبناء الميناء الجديد فى فترة حكم الشاه عباس الأول (١) .

وهكذا كان ميناء كمبرون ثانى ميناء يستطيع جيش الشاه عباس طرد القوات البرتغالية منه، فزاد هـذا من سوء التفاهم بين إيران والقوات البرتغالية فى منطقة الخليج العربى، وظل الموقف يزداد سوءا حتى التقت القوات الإيرانية بالقوات البرتغالية فى معركة تاريخية فى جزيرة هرمز.

* * *

— ٤ —

إخراج القوات البرتغالية من جزيرة هرمز :

أولا : القطيعة بين إيران وأسبانيا :

ارتبط وجود القوات البرتغالية فى منطقة الخليج بالتسلط والاحتكار التجارى، ومحاولة الاستيلاء على مقدرات شعوب المنطقة، مما جعل وجودهم يتسم بالغلظة والقسوة الشديدة مع جميع سكان المناطق التى نزلوا بها، سواء أكانوا من الإيرانيين أو العرب، وقد أدت هذه القسوة إلى نفور الجميع

---

(١) قسمتى ازما جراى خليج فارس، ص : ٣٢

منهم [1] ، لذا أقدم بعضهم على قتل عدد من البرتغاليين ، كما امتنعوا فى مناسبات كثيرة عن تزويد سفنهم بما تحتاج إليه من مؤن وأغذية [2]، ولكن على الرغم من كل ذلك ، كان الشاه عباس يغمض عينيه عن كثير من فظائعهم على أمل أن يساعدوه فى قتاله ضد العثمانيين ، ولكنهم خيبوا رجاءه ، ولم يقدموا له أى عون ، مما زاده نفورا منهم ، ورغبة فى الخلاص من وجودهم متى سنحت الفرصة لذلك .

ومما زاد من نفور الشاه عباس منهم ؛ فرض سيطرتهم على حركة الملاحة والتجارة فى منطقة الخليج ، إذ لم يكن فى مقدور أى سفينة أجنبية دخول الخليج العربى إلا إذا حصلت على ترخيص خاص من العمال البرتغاليين فى جزيرة هرمز ، وكان إعطاء هذا التصريح أمرا غاية فى الصعوبة [3] ، والهدف من عدم إعطاء هذا التصريح احتكار التجارة فى أيدى البرتغاليين والأسبان فقط . فكان هذا الموقف يغضب الشاه عباس دائما ، إذ أنه حريص على أن يكون فى إيران انفتاح اقتصادى ، وأن يفد إليها التجار من كل بقاع الأرض ، ولذا قال لأحد سفراء أسبانيا محتجا على رغبة ملكها فى أن يحتكر البرتغاليون تجارة الحرير : « إننى سأبيع الحرير لأى تاجر يدفع أعلى ثمن ! »

وبعد ذلك أقدم الشاه عباس على تشجيع مندوبى شركة الهند الشرقية الإنجليزية على زيارة إيران ، ولعقد صفقات تجارية معها ، بل إنه أمر بعد ذلك بأن تحتكر هذه الشركة إنتاج جنوبى إيران كله من الحرير ، ولعله أراد بمثل هذه الصفقات التجارية أن يظهر عداءه للقوات البرتغالية ، وأن يضربهم

---

(١) نهضة الاعيان ... ص : ١٣

(٢) زندكانى شاه عباس اول ، ج٤ . ص : ٢٠٣

(٣) تاريخ روابط ايران وأوربا در دورهٔ صفويه ، ص ٦٥

بمنافسيهم الإنجليز الذين حرصت القوات البرتغالية دائما على عدم السماح لهم بالظهور فى منطقة الخليج، وعدم عقد أى صفقات تجارية بينهم وبين إيران.

ومن العوامل التى ساعدت الشاه عباس على اتخاذ هذا الإجراء ، تلك الهزائم التى لحقت بالقوات البرتغالية المرابطة فى الهند ، من جراء المعارك التى دارت بينها وبين القوات الإنجليزية فى ميناء سورات الهندى طوال الفترة من عام ١٠٢١ هـ إلى عام ١٠٢٤ هـ (١٦١٢ — ١٦١٥ م) [١] ، وكان لهذه الهزائم أثرها الكبير على بداية أفول هيبة البرتغاليين فى المحيط الهندى ، وبداية بزوغ نجم شركة الهند الشرقية الإنجليزية ، مما شجع الشاه عباس بعد ذلك على طلب العون من مندوبى هذه الشركة لطرد القوات البرتغالية من منطقة الخليج العربى .

ومن العوامل التى ساعدت كذلك على أن يرفض الشاه عباس أى تعاون مع أسبانيا والبرتغال ، أنه وقع معاهدة صداقة وصلح مع العثمانيين عام ١٠٢٧ هـ ،وبمقتضى ذلك لم يعد فى حاجة لمساعدة القوات البرتغالية ، وبالتالى لم يعد مجبرا على التظاهر بالود معهم [٢] .

وهكذا كانت العلاقة بين الشاه عباس وإيران من جانب والقوات البرتغالية وفيليب الثالث من جانب آخر ، تسير من سىء إلى أسوأ ، وفجأة وصلت إلى القطيعة بعد أن تسلم الشاه عباس رسالة من فيليب الثالث أرسلها بعد فشل بعثة دون جارسيا ، وفيها تحدث عن ضرورة استرجاع البحرين وميناء كمبرون وعدم تعرض عباس لجزيرتى قشم وهرمز ، ثم قال : .... إذا كان

---

(١) ايران در زمان صفويه ، ص ١٣١٠

(٢) تاريخ روابط ايران وأوربا در دورة صفويه ٦٦٠

الشاه عباس لا يوافق البرتغاليين فى مطالبهم، فإن علاقات الصداقة بين البلدين ستقطع ، وإذا أقدمت القوات البرتغالية فى تلك الحالة على ارتكاب أمر لا يتسم بالود والصداقة ، فليست أسبانيا مسئولة ! فتملك الشاه عباس الغيظ من هذا التحذير ، ومزق الخطاب ، وأقسم على استرداد هرمز نفسها وطرد القوات البرتغالية منها [1] .

وهكذا تفجر العداء صراحة بين الطرفين ، وأخذ كل طرف منهما يعد العدة للحرب ، فأرسل ملك أسبانيا إلى مندوبه فى هرمز يأمره بالاستعداد للحرب قائلا : « إذا لم تتخل إيران عن الأماكن التى تحتلها ، فيجب أن تبدأ الحرب » ، وكان ذلك عام ١٠٢٩ هـ (١٦٢٠ م) [2] .

وعلى الجانب الآخر أصدر الشاه عباس أوامره إلى إمامقليخان حاكم إقليم فارس ببذل كل الاستعدادات لخوض المعارك الفاصلة بين إيران والقوات البرتغالية فى منطقة الخليج العربى .

ثانيا : الاستعداد للحرب :

بعد أن وصلت العلاقات الإيرانية الاسبانية إلى حد القيطعة ، بدأ كل جانب يبذل المزيد من الاستعداد لأى تطور مفاجىء للأحداث ، ومن وسائل الاستعداد التى بذلتها القوات البرتغالية الحرب الدعائية، حيث أشاعت بأن قائد الأسطول البرتغالى الموجود فى ميناء جوا بالهند قد تحرك بسفنه صوب جزيرة هرمز استعدادا لتأديب كل من تسول له نفسه مهاجمة الجزيرة وأنه لن يكتفى بالفتك بالسفن الإنجليزية التى ستساعد الشاه عباس فحسب ،

---

(١) قسمتى از ما جراى خليج فارس ، ص : ٣٨

(٢) ايران در زمان صفويه ، ص : ١٣٢

بل سيستولى على جميع السواحل الإيرانية المطلة على الخليج ، كما أشاعوا بأن السفن البريطانية التى وعدت شركة الهند الشرقية الإنجليزية بإرسالها ، لن تصل إلى ميناء جاسك المطل على بحر عمان مطلقا [١].

أما على الجانب الإيرانى ، فقد بدأ الشاه عباس يعد جيشه لخوض معركة شرسة مع القوات البرتغالية فى جزيرة هرمز وغيرها بمنطقة الخليج العربى ، ولكن على الرغم من هذه الاستعدادات فقد شعر بأن القوات الإيرانية لن تستطيع التصدى للقوات البرتغالية حيث لا يتوافر لإيران أسطول بحرى يستطيع مجابهة السفن الحربية البرتغالية ، ولذا عزم على أن يتفاوض مع شركة الهند الشرقية الإنجليزية المتطلعة لأن ترث دور البرتغاليين فى منطقة الخليج [٢]. وكان هدف الشاه عباس من هذه المفاوضات الاعتماد على سفن الشركة الإنجليزية فى مهاجمة السفن البرتغالية ، حيث كان يخطط للهجوم ، وبأن يكون من اتجاهين : برى وتقوم به القوات الإيرانية ، وبحرى وتضطلع به سفن الشركة الإنجليزية .

وأمام هـــذه الرغبة ، كلف الشاه عباس حاكم فارس إمامقليخان بالتفاوض مع مندوبى الشركة الإنجليزية ، واستمرت المفاوضات مدة عام كامل ، حيث كان مندوبو الشركة الإنجليزية مترددين فى قبول عروض الشاه عباس ، وذلك لأن انجلترا وأسبانيا كانتا على علاقات طيبة فى ذلك الوقت، ولا يمكن للشركة أن تقدم على هذا العمل دون إذن مسبق من ملك انجلترا ، ومن المؤكد أنه لن يأذن لهم بذلك ، كما كانت الشركة الإنجليزية تخشى الفشل فى مهاجمة القوات البرتغالية ، وهذا الفشل سيصيبها بانتكاسة

---

(١) زندگانى شاه عباس اول ، ج ٤ ، ص : ١٠٨

(٢) قسمتى از ما جراى خليج فارس ، ص : ٣٨

كبيرة فى منطقة المحيط الهندى كله ، بعد أن رسخت دعائمها بعد انتصارهم على البرتغاليين فى معارك سورات .

وأمام هذا التردد هددهم إمامقليخان، بأنهم إذا لم يوافقوا على المشاركة فى مهاجمة القوات البرتغالية ، فإن الشاه عباس سيلغى جميع الامتيازات التجارية التى أعطاها لهم ، وسيمنع عنهم الحرير الإيرانى ، ولكن إذا شاركوا الجيش الإيرانى فى طرد البرتغاليين من جزيرة هرمز ، فسيقصر بيع الحرير الإيرانى على الشركة الانجليزية دون غيرها(١) . وأمام هذا التهديد اضطرت الشركة الإنجليزية للموافقة على المشاركة فى محاربة القواب البرتغالية فى منطقة الخليج، وأمام هذه الموافقة التقى إمامقليخان بمندوبى الشركة فى ميناب، وكان ذلك فى الرابع والعشرين من شهر صفر عام ١٠٣١ هـ (٨ من يناير ١٦٢٢ م) واتفقوا على الشروط التالية (٢) :

١ — أن تكون تكاليف الحرب مناصفة بين الطرفين .

٢ — أن يتم تقسيم الغنائم مناصفة بين الطرفين كذلك .

٣ — خضوع جزيرة هرمز بعد إخراج البرتغاليين منها للإشراف المشترك.

٤ — تقسيم جمارك جزيرة هرمز مناصفة بين إيران والشركة الإنجليزية مع إعفاء البضائع الانجليزية التى ترد باسم الشاه عباس أو حاكم فارس من الرسوم الجمركية .

---

(١) المرجع السابق ، ص . ٤٠

(٢) ايران در زمان صفويه ، ص : ١٣٦ ، زندگانى شاه عباس اول ، ج ٤ ، ص : ٢١٦ ، وتاريخ ايران از مغول تا افشاريه ؛ ص : ٣٣٥

٥ — أن تتسلم إيران جميع الأسرى المسلمين ، كما تتسلم الشركة الإنجليزية جميع الأسرى المسيحيين .

ولكن حدث بعد توقيع الاتفاق بين الشركة وإيران ، أن اعترض بحارة الشركة الإنجليزية قائلين : « إن مهاجمة القوات البرتغالية ليس عملا تجاريا، كما أنهم لم يُستأجروا لأى سخرة ... » ولكن الشركة استطاعت أن تقنع بحارتها، وتقضى على اعتراضاتهم، وذلك بمزيج من الوعود والتهديدات(١) .

وعندما علم البرتغاليون باتفاق الشركة الإنجليزية وإيران على مهاجمتهم حاولوا تهدئة الأمور . ومناشدة الجميع الهدوء والتريث فرفض إمامقليخان عروضهم، مما جعلهم يحاولون مع مندوبى الشركة الإنجليزية قائلين بأن وحدة الدين المسيحى بينهما ترفض العداء بين الجانبين ، ولكن الشركة الإنجليزية المتطلعة إلى أن ترث البرتغاليين فى منطقة الخليج رفضت عروض البرتغاليين فى الامتناع عن مهاجمتهم(٢) .

بعد ذلك أخذ الجانبان يستعدان أكثر وأكثر ، فأمر قائد القوات البرتغالية فى هرمز قواته بالتأهب الجيد وإعداد مدافع القلعة لصد أى هجوم متوقع ، فى حين أصدر الشاه عباس أوامره إلى قائده إمامقليخان بالتحرك صوب شاطىء الخليج بجيش قوامه خمسة عشر ألف جندى ، ثم انتظار أوامر الشاه عباس لبدء الهجوم فى أى وقت(٣) .

وبعد أن تقدم إمامقليخان إلى المكان الذى حدده له الشاه عباس ، نجح فى تحريك بعض العرب من سكان رأس الخيمة ضد القوات البرتغالية

(1) History of Persia vol. II p. 192

(٢) ايران در زمان صفويه ، ص : ١٣٧

(٣) زندگانى شاه عباس ، ج : ٤ ، ص: ٢٠٩

فيها ، واستطاع هؤلاء العرب طردهم منها [1]، وكان الهدف من وراء ذلك قطع طريق الإمدادات عن القوات البرتغالية المتمركزة فى جزيرة هرمز فى حالة حصار القوات الإيرانية والإنجليزية لهذه الجزيرة .

ومن استعدادات الشركة الانجليزية ، إرسالها بعض سفنها إلى ميناء جاسك فى جنوبى إيران والمطل على بحر عمان ، وذلك لكى تكون على مقربة من منطقة الصراع .

وهكذا أصبح جميع الأطراف مستعدين لبدء القتال ، ولكنهم كانوا فى انتظار شارة البدء بإطلاق النار !

. . .

ثالثاً : اندلاع الحرب وإخراج البرتغاليين من هرمز :

بعد الانتهاء من الاستعداد الإيرانى الإنجليزى، اتفق الرأى على التمهيد للهجوم على جزيرة هرمز بإجراءين تمثل الأول فى الاتفاق مع عرب الشارقة وعمان على الثورة ضد الوجود البرتغالى والامتناع عن تزويد البرتغاليين الموجودين فى جزيرة هرمز بالمؤن الغذائية[2] مما يؤثر فى مقدرتهم على تحمل أى حصار قد يفرض عليهم من قبل القوات الإيرانية الإنجليزية. واستجاب عرب الشارقة وعمان لهذا المطلب ، وثاروا ضد البرتغاليين ؛ وهذا دليل على النفور المشترك بين الإيرانيين والعرب من وجود هذه القوات البرتغالية المتسلطة على كل شىء ، وبخاصة أنها حرمت العرب فى الخليج من الإشراف

---

(١) قسمتى از ما جراى خليج فارس، ص. ٤٠ شمارۀ سوم ، سال چهارم مجلۀ يادكار

(٢) المرجع السابق ، ص : ٢٤ ، شمارۀ چهارم .

الكامل على النشاط التجارى بين موانيه والعالم الخارجى كما كان عليه الأمر قبل قدوم هذه القوات البرتغالية إلى المنطقة[1] .

والإجراء الثانى تمثل فى التخطيط للاستيلاء على جزيرة قشم القريبة من جزيرة هرمز والتى تمدها بالمياه العذبة الصالحة للشرب وذلك لعدم توافرها فى جزيرة هرمز . وقد استطاعت القوات الإيرانية الإنجليزية محاصرة جزيرة قشم ، وضربها بالمدافع وقد حاول البرتغاليون المرابطون بالجزيرة صد القوات المحاصرة ، ولكنهم فشلوا فى ذلك ، ممـــا أجبرهم على طلب التسليم بالشروط التالية[2] :

١ — تأمين حياة البرتغاليين المرابطين بالجزيرة .

٢ — تقوم السفن البريطانية بنقل هؤلاء البرتغاليين إلى جزيرة هرمز ، ومعهم أسلحتهم وأمتعتهم .

٣ — عدم الإضرار بالإيرانيين الذين كانوا يحاربون فى صفوف القوات البرتغالية بجزيرة قشم .

وافقت القوات الإيرانية الإنجليزية على هذه المطالب ، ولكنهم بعدأن تسلموا الجزيرة فى ربيع الأول عام ١٠٣١ هـ ، استولوا على جميع أسلحة القوات البرتغالية ومعداتهم ، كما أسرت القوات الإنجليزية قائد القلعة ونقلته أسيراً إلى مركزها الرئيسى فى ميناء سورات الهندى . وأقدمت القوات الإيرانية

---

(١) جمال زكريا قاسم [دكتور] . الادعاءات الايرانية فى الخليج العربى أصول المشكلة وتطورها التاريخى ، ص ١٦٢ وما بعدها . [بحث مستخرج من المجلة المصرية للدراسات التاريخية . المجلد العشرون] ، القاهرة ١٩٧٣

(٢) تاريخ روابط ايران وأوربا در دورة صفويه ، ص : ٧٧

على سفك دماء جميع الإيرانيين الذين كانوا يعملون فى خـــدمة القوات البرتغالية بالجزيرة .

وهـكذا نجح الإجراءان التمهيديان فى قطع إمدادات الغذاء والمياه عن جزيرة هرمز ، وقد حاولت القوات البرتغالية استعادة جزيرة قشم ، ونجحت فعلا فى استرداد جزء صغير منها ، وهو الجزء المقابل لجزيرة هرمز ، ولـكن سرعان ما أخرجتهم القوات الإيرانية من هذا الجزء ، وبعد ذلك بدأت السفن الإنجليزية تأخذ طريقها نحو سواحل جزيرة هرمز ثم انتظرت هناك بعض الوقت حتى وصلت قوات إمامقليخان البرية ، وعندما اكتمل توافد القوات الإيرانية والإنجليزية ؛ بدأوا فى فرض الحصار حول جزيرة هرمز ، وكان ذلك فى السابع والعشرين من شهر ربيع الأول من عام ١٠٣١هـ (٩ من فبراير ١٦٢٢ م)[١] ، وقد كانت هذه القوات تتوقع أن تواجه بمقاومة عنيفة من القوات البرتغالية بالجزيرة ولـكنهم فوجئوا بالتزامهم جانب الدفاع ، وعدم لجوئهم إلى الهجوم ، وقد شجع هذا الموقف القوات المشتركة على الإسراع بالهجوم ، وإحـكام الحصار حول الجزيرة .

وبعد أيام قليلة من فرض الحصار قامت السفن البريطانية بإنزال ثلاثة آلاف جندى إيرانى إلى أرض الجزيرة ، فقام هؤلاء الجنود بالإستيلاء على المدينة بدون مقاومة تذكر ، وذلك لأن القوات البرتغالية كانت قد تخلت عن المدينة واحتمت داخل القلعة التى احتدم القتال حولها ، حيث حرصت القوات الإيرانية على تحطيم أسوارها ، بينما ركزت البحرية الإنجليزية على إغراق السفن البرتغالية ، وقد نجحت فى إغراق عدد منها ، وكان من بين

---

(١) زندگانى شاه عباس اول ، حـ ٤ ، ص : ٢٢٢

السفن التى أغرقت سفينة أمير البحر البرتغالى فى منطقة الخليج والتى كانت تعرف باسم (سان پدرو)[1].

وأمام وطأة الحصار وشدته حاولت القوات البرتغالية اللجوء إلى الحيلة والدهاء، فطلبت من القوات الايرانية عقد صلح بين الطرفين فى مقابل جزية وغرامة تدفعهما تلك القوات إلى حاكم فارس إمامقليخان، ولكنه رفض هذا العرض، فلجأت القوات البرتغالية إلى محاولة استمالة القوات الانجليزية بحجة وحدة الدين المسيحى بينهما، ولكن مندوبى شركة الهند الشرقية الإنجليزية المتطلعين إلى إنهاء الوجود البرتغالى فى المنطقة، رفضوا التصالح معهم[2]. وكان الهدف الأساسى الذى تهدف إليه القوات البرتغالية من دعوة الصلح هذه، كسب الوقت وعقد هدنة حتى تصلهم الإمدادات العسكرية من مركزهم الرئيسى فى ميناء جوا الهندى.

بعد ذلك أحكم الإيرانيون والبحرية الإنجليزية حصارهم لقلعة هرمز وحطموا الكثير من أسوارها، واستولوا على بعض أبراجها، كما منعوا عنهم كل إمداد غذائى مما أشاع اليأس فى نفوس البرتغاليين، فطلبوا التسليم، وذلك فى التاسع من جمادى الآخرة عام ١٠٣١هـ (٢١ من ابريل عام ١٦٢٢م)، بعد أن خربت مدينة هرمز، تلك المدينة التى كانت تفوق فى ذلك الوقت لندن وامستردام معا، وأصبحت خرابا يبابا[3] وبعد اتمام السيطرة على الجزيرة، قامت البحرية الإنجليزية بنقل ثلاثة آلاف برتغالى كانوا بالجزيرة إلى مسقط وموانى ساحل عمان، وهكذا انتهى الوجود البرتغالى فى جزيرة هرمز بعد أن استمر أكثر من قرن من الزمان.

---

(١) تاريخ روابط ايران وأوروپا در دورهٔ صفويه، ص: ٨٢

(٢) المرجع السابق، ص: ٨٣

(٣) نهضة الأعيان . . . ص: ١٣

أما عن الغنائم العسكرية التى غنمتها القوات المشتركة فتتمثل فى خمسين مدفعا ثقيلا ، وأربعة مدافع صغيرة ، وخمسة عشر مدفعا خفيفا ، ومائة وخمسين عربة مدفع.وطبقا للاتفاقية المعقودة بين الطرفين ، تم تقسيم الغنائم مناصفة بينهما ، ولكن الشركة الإنجليزية قامت ببيع نصيبها من هـــذه الغنائم العسكرية بأسعار رمزية إلى إيران[1] .

ولاشك أن سقوط جزيرة هرمز كان ضربة قاصمة أصابت الوجود البرتغالى فى منطقة الخليج فقد كانت هذه الجزيرة أكبر تجمع لهم بالمنطقة بعد فقدهم البحرين عام ١٠١٠ هـ وكمبرون عام ١٠٢٢ هـ ، وقشم فى ربيع الأول من عام ١٠٣١ هـ ، كما أن سقوط هذه الجزيرة أنهى حكم سلسلة ملوكها الذين حكموا الجزيرة عدة قرون وكانوا يتمتعون بنوع من الحكم الذاتى ، فقد تم إرسال آخر حكامها ويدعى محمود شاه أسيرا إلى إيران[2] ، وأصبح الإشراف على الجزيرة شركة بين إيران والإنجليز .

ويمكن إجمال أسباب هزيمة القوات البرتغالية فيما أورده دون جارسيا فى سفره وهو يعلق على تلك الأحداث ، حيث قال : « إن تصميم البرتغاليين على محاربة إيران كان أمرا لا يتسم بالتعقل، وذلك لأن إيران فى ذلك الوقت كانت غاية فى القوة ، ومن ناحية أخرى فإن الإنجليز سيساعدونهم ، أضف إلى ذلك أن البرتغاليين لم يكن لديهم قوات إضافية كبيرة فى هذه المنطقة ، كما لم يكن لهم إلا عدد محدود من الجنود فى الهند ، وعلى هذا فإن هزيمتهم كانت أمرا حتميا[3] .

(١) قسمتى از ماجراى خليج فارس ، ص ٢٥ (شماره چهارم) .

(٢) المرجع السابق ، ونفس الصفحة

(٣) سفر نامه دون جارسيا ، نقلا عن إيران در زمان صفويه ، ص: ١٣٢

ومما لاشك فيه ، بأن مشاركة البحرية الإنجليزية فى إخراج البرتغاليين من جزيرة هرمز، كانت مبعث افتخار للبريطانيين ، فقد قال بيرسى سايكس الإنجليزى الجنسية :

« كان سقوط هرمز بمساعدة الإنجليز أمرا ذا أهمية قصوى للإنجليز ، حيث أعتبره أهم حدث قام به الإنجليز منذ ظهورهم فى الشرق وقد أدى هذا بالتأكيد إلى تحسين وضعهم ومركزهم إلى أقصى حد ممكن ، وذلك عندما وصلت أنباء هذا الانتصار إلى الهند ، كما أنهم حظوا دون أدنى ريب بالثقة فى إيران ، إذ لا يجرؤ فرد فى الجيش الإيرانى على تجاهل الدور الذى قام به الإنجليز فى هذا الشأن ، ومما لاشك فيه أن الشاه عباس كان متأكدا تمام التأكد من عدم مقدرته على استرداد هرمز دون المساعدة الإنجليزية[1] .

وهكذا استطاعت إيران أن تخرج القوات البرتغالية من جزيرة هرمز ، ولكنها لم تقم وحدها بهذا الإجراء بل شاركتها فى ذلك قوات بريطانية تابعة لشركة الهند الشرقية الإنجليزية .

وهكذا بدأ الوجود الإنجليزى يظهر فى منطقة الخليج العربى ، فى صورة شركة تجارية أولا ، ثم تحول بعد ذلك إلى وجود عسكرى يفرض سلطانه على كل دول الخليج، يستنزف خيراتها ويعذب شعوبها طوال حقبة طويلة من الزمن ، كما شجع مقدم الإنجليز إلى المنطقة ،على مقدم الهولنديين من بعدهم، مما جعل منطقة الخليج تعيش فترة الصراع بين الدول البحرية الثلاث وهى البرتغال وانجلترا وهولندا ، وقد ظهر أثر هذا الصراع فى الفترة الأخيرة من حكم الشاه عباس الأول ، وخلال فترات حكم من تبعوه من البيت الصفوى .

---

(١) History of persia vol II. p.194

العلاقات بين إيران والبرتغاليين بعد الاستيلاء على هرمز :

بعد أن سيطرت القوات الإيرانية الإنجليزية على جزيرة هرمز، حرص الشاه عباس على إهمال تلك الجزيرة ونقل النشاط التجاري الذي كانت تتمتع به إلى ميناء بندر عباس الذي بني على مقربة من ميناء كمبرون، ولعل الشاه عباس لجأ إلى ذلك لأنه توقع أن تحاول القوات البرتغالية استعادة الجزيرة، وأمام هذا الإهمال المتعمد من الشاه عباس، بدأت جزيرة هرمز تفقد أهميتها كمركز تجاري نشط، وكمكان يزخر بالثروة والشهرة راج عنه في وقت من الأوقات ذلك المثل القائل : إذا كان العالم خاتما فهرمز فصه[1] .

وبدأ بندر عباس يتخذ دوره كأكبر ميناء إيراني مطل على الخليج العربي ومازال محتفظا بهذا الدور حتى اليوم .

أما عن البرتغاليين فقد حاولوا تدعيم مركزهم في مسقط ، فأقدموا على بناء مركز تجاري كبير هناك ، كما شيدوا عـــددا من القلاع الحصينة ، ولكنهم مع ذلك كانوا مهددين باندلاع الثورة من العرب العمانيين الذين كانوا ينظرون إليهم نظرة غيظ واشمئزاز[2]؛ لذا نجدهم يحاولون استعادة هرمز أكثر من مرة ، ففي عام ١٠٣٢ هـ (١٦٢٣ م) أرسل نائب السلطنة البرتغالي في جوا بالهند إمدادات عسكرية إلى القوات المرابطة في مسقط على أمل استعادة جزيرة هرمز ، ولكن الإيرانيين كانوا قد أعدوا عدتهم لصد

---

(١) تاريخ إيران از مغول تا افشاريه : هامش ص : ٣٤٢

(٢) نهضة الأعيان . . . ص : ١٣ - ١٤

هذه الحملة ، كما شاركت القوات البحرية الإنجليزية وحلفاؤها من الهولنديين في التصدى لهذه القوات البرتغالية ، مما جعل هذه الحملة تفشل في تحقيق أهدافها[١] .

وفي جمادى الأولى من عام ١٠٣٤ هـ (١٦٢٥ م) حاول البرتغاليون مرة أخرى محاصرة هرمز واستعادتها ، فحدثت معركة حامية بين القوات البرتغالية من جهة ، والقوات الإنجليزية والهولندية من جهة أخرى ، ولم يستطع أحد من الطرفين إحراز نصر مؤكد ، مما اضطر القائد البرتغالى بفك الحصار وعودته بسفنه صوب مركزهم الرئيسى في جوا بالهند[٢] .

وأمام فشل جميع المحاولات البرتغالية لاسترداد هرمز ، آثر البرتغاليون ممالأة الشاه عباس وخطب وده . وذلك للمشاركة في حركة التجارة بمنطقة الخليج ، بعد أن زاد نشاط منافسيهم من الإنجليز وحلفائهم الهولنديين . فعرضوا على إيران الدخول في معاهدة صلح يتعهدون بموجبها بعدم التعرض لما كان تحت أيديهم من الأراضى الإيرانية ، في مقابل السماح لهم بإنشاء قلعة ومركز تجارى في كنك في شمال شرقى ميناء لنكه على ساحل لرستان وأن يسمح لهم بصيد اللؤلؤ في سواحل البحرين ، كما تعفى البضائع البرتغالية التى ترد إلى ميناء كنك من الضرائب ، وكذلك اقتسام جمارك هذا الميناء[٣] .

فوافق الشاه عباس على مطالبهم ، ويقال إنه كان يعطيهم سنويا ، ما

---

(١) قسمتى از ما جراى خليج فارس (شماره چهارم) ص : ٢٨

(٢) المرجع السابق ونفس الصفحة .

(٣) تاريخ روابط إيران وأوربا در دورهٔ صفويه ، ص : ٨٨

يقابل خمسة وعشرين ألف جنيه من عائدات ميناء كنك سنويا[(١)]

ولعل موافقة الشاه عباس على هذه المطالب ترجع - كما يقول معظم المؤرخين - إلى عدم رغبته فى قطع صلاته بالبرتغاليين قطعا كاملا، وذلك على أمل الاستعانة بهم إذا حدث بينه وبين الإنجليز والهولنديين أى خلاف ، فيلجأ إليهم كما لجـــأ إلى الانجليز من قبل وساعدوه فى إخراجهم من هرمز[(٢)] .

وبعد توقيع هذه المعاهدة سارت العلاقات فى مسارها الطبيعى ، ولم تحدث حروب أو مناوشات بين الجانبين طوال الفترة الباقية من حكم الشاه عباس وحتى انتهت عام ١٣٠٨ هـ (١٦٢٩ م) .

---

(١) إيران در زمان صفويه ، ص : ١٤٠

(٢) قسمت از ما جراى خليج فارس ، (شمارهٔ چهارم) ، ص : ٢٨ ، وزندگانى شاه عباس اول، جـ : ٤ ، ص : ٢٣٠ ، وغيرهما

ثانيا : علاقات الشاه عباس مع بريطانيا

— ١ —

بعثات الأخوين شرلى :

أولا : مقدمهما إلى إيران :

بعد أن حقق الشاه عباس الاستقرار، فى داخل إيران، وأحرز انتصارات حاسمة على المعسكر السنى الأوزبكى فى خراسان وماوراء النهر، بدأت الوفود الأوربية تفد إلى إيران على أمل التعاون مع هذا الحاكم الجديد الذى أثبت كفاءة فى الإدارة والحرب.

ومن بين هذه الوفود والبعثات الأوربية بعثة بريطانية وفدت عام ١٠٠٧ هـ (١٥٩٩ م) وكانت مكونة من خمسة وعشرين بريطانيا برئاسة الأخوين أنتونى وروبرت شرلى[١]، وذكر البعض بأن هذه البعثة جاءت بتكليف من الكونت اسكس الشخصية البريطانية الشهيرة فى ذلك الوقت[٢]. وقيل إن التسامح الدينى الذى كان يبديه الشاه عباس تجاه المسيحيين كان من العوامل المشجعة على وصول هذه البعثة[٣] التى جاءت لتحقق هدفين أساسين هما[٤] :

(١) تاريخ إيران از مغول تا افشاريه، ص : ٣٢٠

(٢) تاريخ روابط إيران واوربا در دورهٔ صفويه : ص : ١١٨

(٣) إيران در زمان صفويه، ص : ١٩٤

(٤) زندگانى شاه عباس اول، ج ٤، ص : ٢٣٩

١ — دعوة الشاه عباس للاتحاد مع ملوك أوربا ضد العدو المشترك وهو الدولة العثمانية .

٢ — محاولة الحصول على امتيازات وتسهيلات تجارية للتجار البريطانيين الراغبين فى التعامل التجارى مع إيران .

حدث أن وصلت البعثة البريطانية إلى قزوين والشاه عباس موجود فى خراسان . وعندما بلغه خبر مقدمهم أصدر أوامره إلى عماله بقزوين بأن يحسنوا وفادتهم ، ويبالغوا فى إكرامهم حتى يعود الشاه إلى قزوين . وبعد أن أنهى الشاه عباس مهمته فى خراسان عاد الى قزوين ، فوجد جميع أعضاء البعثة البريطانية يقفون على مشارف المدينة مع مستقبليه من كبار رجال الدولة الصفوية ، فصافحهم الشاه وصحبهم معه إلى داخل قزوين ، وأنعم عليهم بإنعامات كثيرة منها مائة وأربعون من الخيل، ومائة بغل ، ومائة جمل ومبلغ عظيم من المال[1] ثم صحب أفراد البعثة البريطانية معه إلى العاصمة أصفهان ، حيث قضوا فى ضيافة الشاه ستة أشهر .

ونظراً لأن معظم أفراد البعثة كانوا من الجنود والخبراء العسكريين فقد أمر الشاه عباس بالإفادة من خبرتهم فى تدريب الجيش الإيرانى ، وإعادة تنظيمه حسب التنظيمات الأوربية الحديثة ، كما أشرف بعضهم على إقامة مصانع للأسلحة النارية فى أصفهان وهذه المصانع هى التى أمدت الجيش الإيرانى بالمدافع والبنادق التى مكنته من منازلة الجيوش العثمانى فى آذربايجان بعد ذلك .

وفى أثناء مناقشات الشاه عباس مع أعضاء البعثة البريطانية حول طرق

---

(١) تاريخ إيران از مغول تا افشاريه ، ص : ٣٢٠

التعاون بينه وبين ملوك أوربا ، اتفق الرأى على إرسال سفير من قبله يطوف أوربا ، ويلتقى بملوكها ، ويوقع معهم معاهدات صداقة وتعاون مشترك لمحاربة الدولة العثمانية ، كما اتفق على أن تضم البعثة الإيرانية إلى أوربا أنتونى شرلى وبعض رفاقه .

ثانياً : بعثة أنتونى شرلى إلى أوربا[1] :

خرجت البعثة من أصفهان عام ١٠٠٧ هـ (أى فى نفس العام الذى وفد فيه أنتونى إلى إيران ورأس البعثة كل من حسينعلى بيك بيات وأنتونى شرلى وسلكت طريق روسيا ووسط أوربا حتى وصلت إلى روما ، وهناك حدث خلاف بين أنتونى وحسينعلى أدى إلى انشقاق أنتونى ورفاقه الإنجليز عن البعثة الإيرانية ، واختلفت الآراء حول سبب انشقاق أنتونى ورفاقه ، إذ ذكر البعض بأن أحد رفاقه سرق بعض رسائل الشاه عباس إلى ملوك أوربا ، وسلمها إلى الوزير الأعظم العثمانى ، وعندما شعر أنتونى بأنه فى خطر نتيجة هذه الخيانة ، خشى على نفسه من المعاقبة ، وهرب من روما إلى فينيسيا ثم التحق بعد فترة بخدمة ملك أسبانيا[2] . ولكن أروج بيك أحد رفاق الرحلة ، وأحد الأربعة الذين أعلنوا دخولهم فى الدين المسيحى بمجرد وصول البعثة إلى أسبانيا ، ذكر فى سفره بأن أنتونى باع لبعض التجار الإنجليز فى ميناء البلطيق جزءا من الهدايا التى كان الشاه عباس قد أرسلها مع البعثة لتقدمها هدية إلى ملوك أوربا فكان هذا التصرف من بين الأسباب التى أدت إلى الخلاف بينه وبين حسينعلى بيك بيات[3] .

---

(١) سبق الحديث عنها بتفصيل أكبر أثناء الحديث عن علاقات عباس مع أسبانيا والبرتغال .

(٢) إيران در زمان صفويه ، ص : ١٠٥

(٣) المرجع السابق ، ص : ١٠٦

قصارى القول أن صلة أنتونى شرلى بإيران قد انقطعت بعد هذه الحادثة، كما أثر ذلك على موقف أخيه روبرت شرلى الذى بقى فى إيران مع خمسة من رفاق البعثة البريطانية ، فبدأ عباس يعامله بجفوة ، مما جعله يبذل قصارى جهده ليستعيد ثقة الشاه عباس به ، فشارك فى تدريب الجيش الصفوى ، وفى المعارك التى دارت بين إيران والعثمانيين عامى ١٠١٣ — ١٠١٤ هـ تولى روبرت رئاسة إحدى فرق الجيش الصفوى ، وقاتل بحماس شديد ، حتى أنه جرح فى هذه المعارك ثلاثة جروح(١) ، مما جعل الشاه عباس يثق فيه من جديد ويكلفه بمهمة جديدة فى أوربا .

ثالثاً : بعثة روبرت شرلى الأولى الى أوربا(٢) :

غادر روبرت إيران فى عام ١٠١٦هـ وطاف ببعض بلاد أوربا، ثم استقر فى أسبانيا حتى عام ١٠٢٠ هـ ، وبعد ذلك توجه إلى بريطانيا ، وقابل جيمس الأول ملك انجلترا ، وسلمه رسالة من الشاه عباس الأول ، جاء فيها :

إن روبرت شرلى إنجليزى الجنسية ، ولكنه محل اعتبارنا واهتمامنا ، ويعمل فى خدمتنا منذ فترة ، وقد أرسلته سفيرا من قبلنا إليكم ، كما أنه سيذهب لمقابلة سائر الملوك المسيحيين(٣) .

بعد ذلك تحدث مع ملك انجلترا فى رغبة الشاه عباس فى عقد معاهدة صداقة بينهما ، وتمثلت بنود هذه المعاهدة المقترحة فيما يلى(٤) :

---

(١) History of Persia, vol II,p. 181.

(٢) سبق ذكر بعض التفاصيل عن بعثتى روبرت إلى أوربا أثناء الحديث عن العلاقات مع أسبانيا والبرتغال

(٣) إيران در زمان صفويه ، ص : ١٩٥ ، ١٩٦

(٤) زندگانى شاه عباس اول ، ج ٤ ، ص : ٢٤٥ ، ٢٤٦

١ ـ تقديم تسهيلات تجارية للرعايا البريطانيين .

٢ ـ السماح بإنشاء مركزين تجاريين بريطانيين فى ميناءين من موانى إيران المطلة على الخليج .

٣ ـ الموافقة على إقامة مبعوثين سياسيين إنجليزيين فى هذين الميناءين .

٤ ـ رغبة الشاه عباس فى شراء سفن إنجليزية ، بحيث تحمل مفككة إلى موانى إيران ، ويتم تركيبها هناك .

٥ ـ استعداد الشاه عباس لقصر بيع الحرير الإيرانى على التجار الإنجليز كما يقصر نقله على السفن الإنجليزية لتقله إلى أوربا عن طريق رأس الرجاء الصالح دون نقله عبر الأراضى العثمانية .

٦ — الرغبة فى عقد معاهدة عسكرية مع ملك انجلترا .

بعد ذلك أمر ملك انجلترا بتكوين لجنة رباعية من كبار موظفى شركة الهند الشرقية لدراسة هذه المقترحات ، وتقديم تقرير عنها ، ولكن على الرغم من كل هذه التسهيلات والعروض السخية التى قدمها الشاه عباس فى رسالته ، فإن التجار البريطانيين رفضوا الموافقة عليها بحجة أن الطريق إلى إيران طويل ، والمنافع غير محققة ، كما أن التجار البريطانيين الذين يتعاملون مع الدولة العثمانية غير راضين عن توقيع مثل هذه المعاهدة التى يقترحها الشاه عباس خوفا من أن تؤثر على علاقاتهم التجارية بولايات الدولة العثمانية .

وأمام هذا الرفض اضطر روبرت شرلى إلى العودة صوب إيران دون أن يظفر بتحقيق الهدف الأساسى الذى سافر من أجله إلى إنجلترا ، وأخيراً وصل إلى أصفهان فى عام ١٠٢٤ ﻫ (١٦١٥ م)

رابعا : بعثة شرلى الثانية إلى أوربا .

عاد روبرت شرلى إلى إيران عام ١٠٢٤هـ ولم يمكث بها كثيراً ، حيث كلفه الشاه عباس بالسفر مرة ثانية إلى أوربا . فغادر إيران فى نفس عام ١٠٢٤هـ، ومكث فى أسبانيا حتى نهاية عام ١٠٣١ هـ ، ثم توجه إلى انجلترا فى أوائل عام ١٠٣٢هـ (١٦٢٣م) ، حيث تباحث فى عقد معاهدة مع جيمس الأول ، على أن تتضمن المعاهدة هذين البندين[1]

١ — أن تتعهد انجلترا بأن تكون جميع سفنها العاملة فى منطقة الخليج فى مساعدة الإيرانيين ضد البرتغاليين المرابطين فى موانى الخليج ، بشرط أن تتحمل الخزانة الإيرانية تكاليف هذه السفن .

٢ — أن تتعهد إيران بتقديم خمسة وعشرين ألف جندى إيرانى للعمل على هذه السفن على أن يكونوا تحت إمرة الحكومة البريطانية .

وقبل أن توقع هذه المعاهدة ، توفى جيمس الأول ، وتولى مكانه شارل الأول الذى ماطل فى توقيعها ، حتى وفد إلى بريطانيا نقد عليبيك السفير الإيرانى موفدا من قبل الشاه عباس ليساعد روبرت شرلى فى مهمته ، ويحاول إقناع التجار البريطانيين المعارضين للتعاون مع إيران على حساب التبادل التجارى مع العثمانيين ، ولكن نقد عليبيك بدلا من تسهيل مهمة شرلى ، فقد طعن فى صحة الرسائل التى حملها روبرت ، وادعى أنه ليس موفدا من قبل الشاه عباس ، وكان ذلك بتحريض من رجال شركة الهند الشرقية الإنجليزية ، مما حدا بملك انجلترا أن يصدر أوامره بوقف المفاوضات ، وتكليف مبعوث بريطانى بأن يصحب كلا من روبرت شرلى ونقد عليبيك ويتوجهوا صوب بلاط الشاه

(١) تاريخ روابط إيران وأوربا در دورة صفويه ، ص : ١٣٧ - ١٤٠

عباس للتأكد من صحة الرسائل التي قدمها إليه روبرت شرلي ،والتحقق من صدق الادعاءات التي أثارها نقد عليبيك[1] .

وفي طريق العودة إلى إيران عن طريق رأس الرجاء الصالح ، أقدم نقد عليبيك على الانتحار بتناول السم في جنوب أفريقيا خوفا من أن يسفك الشاه عباس دمه لما فعله مع روبرت شرلي ، ثم واصلت السفينة رحلتها إلى إيران حاملة روبرت شرلي ومبعوث ملك انجلترا وهو سير دور مر كوتن وقد وصلا إلى ايران في ربيع الثاني عام ١٠٣٦ هـ (٩ يناير ١٦٢٧م) .

وبعد فترة وجيزة من عودة روبرت إلى إيران اجتهد بعض رجال البلاط الإيراني في تشويه صورته لدى الشاه عباس ، الذي غضب عليه وأمر بإخراجه من إيران ، مما أشعر روبرت بالمرارة والألم ، فدهمه المرض في قزوين ، وتوفي في شهر شوال من عام ١٠٣٦ هـ ، ثم لحق به بعد شهر واحد سير دور مركوتن ، ودفن كلاهما بمدينة قزوين[2] . وفي رأيي أن تغير الشاه عباس على روبرت شرلي يرجع إلى جانب الوشاية ، إلى أن الشاه عباس قد استنفذ أغراضه من استخدام روبرت شرلي كمبعوث خاص له في أوربا ، إذ كان هدفه الأكبر من إيفاده إلى أوربا إثارة الملوك المسيحيين ضد الدولة العثمانية وحثهم على التعاون المشترك مع الشاه عباس لمحاربة ذلك العدو المشترك، والآن وقد تم عقد صلح بين الشاه عباس والعثمانيين وهدأت المعارك بين الجانبين ، فلم يعد الشاه في احتياج لمجهودت روبرت بعد ذلك ، ولعل تغيره عليه راجع كذلك إلى تحسن صلات الشاه عباس التجارية والسياسية بشركة الهند

---

(١) زندگانى شاه عباس اول ، ج ٤ ، ص ٢٦١ وما بعدها

(٢) تاريخ إيران از مغول تا افشاريه ، ص : ٣٤٩

الشرقية الإنجليزية ، والتي كان رؤساؤها ومندوبوها لا يستريحون لروبرت شرلي ، ولا يحبون التعامل معه ، بل حاولوا في كل مرة سافر فيها إلى إنجلترا إفساد مهمته لدى البلاط البريطاني ، فأراد الشاه عباس التخلص منه إرضاءً لهم، وتوثيقا لعلاقاته التجارية والسياسية معهم .

وهكذا انتهى دور روبرت شرلي في الحياة ، دون أن يحقق التعاون الكامل الذي كان ينشده الشاه عباس مع ملوك أوربا المسيحيين ، فلم يحدث أن استجاب أي ملك أوربي تباحث معه روبرت شرلي ، وأرسل جيوشه تحارب مع الجيش الصفوي ضد الجيوش العثمانية ، وإذا كان روبرت شرلي قد فشل في هذه المهمة ، كما فشل أخوه أنتوني من قبل فإنهما ورفاقهما قدموا خدمة جليلة للشاه عباس ، وهي تطوير النظم العسكرية في الجيش الصفوي ، وتسليحه بالأسلحة النارية التي ساعدته على الصمود أمام الجيوش العثمانية ثم الانتصار عليها .

* * *

— ٢ —

العلاقات بين الشاه عباس وشركة الهند الشرقية الإنجليزية :

تم توقيع عقد تأسيس شركة الهند الشرقية الإنجليزية في ١٤ من جمادى الآخرة عام ١٠٠٩ هـ (٣١ من ديسمبر عام ١٦٠٠)[١] ، ومنذ تأسيسها وحتى عام ١٠٢٤ هـ ونشاطها قاصر على تدعيم الصلات التجارية البريطانية مع الهند دون غيرها من البلاد المطلة على الخليج الهندي ، ولكن حدث في

---

(١) تاريخ إيران از مغول تا افشاريه ، ص : ٣٤٦

عام ١٠٢٤ هـ تكدس فى البضائع الإنجليزية بميناء سورات ، وهنا بدأت الحاجة تدعو إلى البحث عن أسواق جديدة يتم فيها تصريف هذه البضائع المكدسة ، وبخاصة الأصواف التى لا تلائم جو الهند الحار .

أولا : بعثة ريتشارد استيل :

وبينما كانت الشركة الإنجليزية منهمكة فى البحث عن أسواق جديدة لتصريف بضائعها ، وفد إلى سورات شاب إنجليزى يدعى ريتشارد استيل ، قدم لتوه من إيران ، وأدرك مدى احتياج الإيرانيين للأصواف نظرا لشدة البرودة هناك ، فعرض على مجلس إدارة الشركة الإنجليزية فكرة بيع الصوف الإنجليزى المكدس إلى الإيرانيين ، فسر الجميع لهذا الرأى ، وعلى الفور أصدر رئيس الشركة أوامره بأن يتوجه ريتشارد استيل ومعه جون كروثر لتفقد سوق إيران ، ومعرفة مدى احتياجه للبضائع الإنجليزية ، ومحاولة مقابلة الشاه عباس ، والحصول منه على تسهيلات تجارية للشركة الإنجليزية[١] .

وهكذا كانت بعثة ريتشارد التى وصلت إلى ايران عام ١٠٢٤/١٠٢٥هـ (١٦١٦م) أول محاولة إنجليزية جادة للتجارة مع إيران[٢] ، وقد أحسن الشاه عباس استقبال ريتشارد ورفاقه وبالغ فى إكرامهما ، وتفاوض معهما بشأن التبادل التجارى بين الشركة الإنجليزية وإيران ، وعلى الفور أصدر أوامره إلى جميع عماله ورعاياه بأن يحسنوا وفادة التجار الإنجليز ، كما سمح للسفن الإنجليزية بالقدوم إلى الموانى الإيرانية الجنوبية ، لشراء الحرير الإيرانى وبيع الصوف الإنجليزى ، وأعطى المندوبيْن الإنجليزييْن الحق فى تفقد موانى إيران

---

(١) زندگانى شاه عباس اول ، حـ٤ ، ص : ٢٥٦

(2) History of Persia, Vol II P. 189

المطلة على الخليج واختيار واحد منها لترسو فيه السفن الإنجليزية ، فوقع اختيارها على ميناء جاسك الذى يبعد تسعين كيلو مترا عن جزيرة هرمز ، لتكون سفنهم بعيدة عن تطاول القوات البرتغالية(١) .

ومما يدعو إلى الدهشة أن روبرت شرلى البريطانى الجنسية ، عاد من رحلته الأولى فى أوربا والمندوبان البريطانيان موجودان فى أصفهان ، وإذا به لايحسن لقاءهما ، بل عاملهما بكل تجاهل ، ولعل ذلك راجع الى موقف مندوبى الشركة من عروضه فى انجلترا عندما زارها فى عام ١٠٢٠ هـ ، ولكن على الرغم من مسلك روبرت معهما ، فقد أمر الشاه عباس على التعامل مع الشركة الإنجليزية ، ومنحها الكثير من التسهيلات(٢)

ثانيا : بعثة ادوارد كنوك :

ماأن عاد ريتشارد استيل وجون كروثر إلى سورات حيث يوجد مركز الشركة الإنجليزية ، ونقلا إلى الجميع ترحيب الشاه عباس بالاتجار مع الإنجليز ، حتى سارعت الشركة بتجهيز البضائع التى ستصدرها إلى إيران ، وخرجت القافلة البحرية برئاسة ادوارد كنوك ، ورست السفن الإنجليزية فى ميناء جاسك فى أوائل عام ١٠٢٦هـ (١٦١٧م) ، وسافر أعضاء البعثة بعد ذلك إلى أصفهان ومنها إلى بلاد الكرج حيث رحب الشاه عباس بقدمهم(٣) ، وسمح لهم بإقامة دور إنجليزية فى كل من أصفهان وشيراز ، كما اتفق ادوارد كنوك مع الشاه عباس على أن تشترى الشركة جزءاً من

---

(١) تاريخ روابط إيران وأوربا در دورة صفويه ، قسمت اول ، ص : ١٣٢ ، ١٣٣

(٢) المرجع السابق ، ص : ١٣٢

(٣) تاريخ إيران از مغول تا افشاريه ، ص : ٣٤٧

الحرير الإيرانى؛ بشرط أن تدفع ثلث الثمن نقدا ، والباقى تتم مقايضته ببضائع إنجليزية تصدرها الشركة إلى إيران، كما سمح لهم الشاه عباس بالتجوال فى جميع أرجاء إيران، والاتجار مع جميع مدنها لا مع الموانى الجنوبية فقط كما كان الأمر بالنسبة للاتفاق السابق مع ريتشارد استيل ، أضف إلى ذلك أنه سمح لأعضاء البعثة بالاحتفاظ بأسلحتهم حتى يستطيعوا الدفاع عن أنفسهم إذا دعت الضرورة لذلك(1) .

وبعد أن كللت مساعى ادوارد كنوك بالنجاح فى أصفهان توجه صوب جزيرة هرمز على أمل الحصول على بعض التسهيلات للسفن البريطانية والسماح لها بدخول الخليج ، ولكنه توفى هناك(2) ، لذا قال البعض بأن البرتغاليين دسوا له السم لكى يتخلصوا منه ، نتيجة لضيقهم الشديد من التقارب الإيرانى الإنجليزى .

ثالثا : بعثة توماس باركر :

بعد وفاة إدوارد كنوك تم تعيين توماس باركر مندوبا عن الشركة الإنجليزية فى إيران فحضر إلى إيران فى عام ١٠٢٧هـ ، والتقى بالشاه عباس ، وتباحث معه بشأن شراء المزيد من الحرير الإيرانى مقابل بيع الملابس الصوفية الإنجليزية فى إيران ، فوافق الشاه عباس بشرط أن تشترى الشركة الإنجليزية ستمائة حمل من الحرير الإيرانى ، بنفس الشروط التى سبق الاتفاق عليها مع ادوارد كنوك .

وفى أثناء سير المفاوضات وفد إلى ايران أحد مندوبى الشركة ويدعى

---

(١) زندگانى شاه عباس ، ج ٤ ، ص : ٢٥٧

(٢) إيران در زمان صفويه ، ص : ٢٠٢

جيلز هويس[1] ، وتشاور مع توماس باركر فى شروط الشاه عباس ، ووافقا فى النهاية على قبولها ، ثم طلبا من الشاه احتكار إنتاج ايران كلها من الحرير. وهنا ثارت ثائرة التجار الأرمن فى جلفا بأصفهان، لأن موافقة الشاه على بيع الحرير كله إلى الشركة الإنجليزية ، سيحرمهم من المشاركة فى هذه التجارة التى تدر عليهم أرباحا هائلة ، مما اضطر الشاه لعرض الحرير الإيرانى فى مزاد علنى ، فامتنع مندوب أسبانيا وكذلك مندوب الشركة الإنجليزية عن دخول المزاد، وفى نفس الوقت عرض الأرمن سعرا يفوق سعره فى العام الماضى فحظوا بالصفقة واشتروا الحرير الإيرانى كله فى عام ١٠٢٨هـ[2] ، وإن ذكر البعض بأنه على الرغم من عرض الأرمن السخى ، فقد اضطر الشاه عباس إلى أن يبيعه بأقل من السعر المقدم من الأرمن ، للشركة الإنجليزية خطباً لودها ، وأملا فى مساعدتها لقواته فى طرد القوات البرتغالية من جزيرة هرمز[3] .

رابعا : المشاركة فى طرد القوات البرتغالية من جزيرة هرمز .

نتيجة للتقارب بين الشاه عباس والشركة الإنجليزية ، ومحاباتها فى عقد صفقات الحرير الإيرانى، بدأت العلاقات الإيرانية البرتغالية تتسم بالسوء والتوتر، مما أدى إلى التفاوض بين إيران والشركة الإنجليزية للتخلص من الوجود البرتغالى فى منطقة الخليج العربى ، وانتهى الأمر - كما سبق أن فصلنا ذلك - باشتعال المعارك حول جزيرتى قشم وهرمز ، ومما يلفت النظر أن الشركة الإنجليزية قد اتخذت قرار المشاركة فى الحرب دون إذن مسبق من ملك انجلترا وحكومتها مما جعل الحكومة البريطانية تعقد محاكمة لرئيس الشركة الذى

---

(١) زندگانى شاه عباس اول ، جـ ٤ ، ص : ٢٦٥

(٢) المرجع السابق ،ص : ٢٦٦

(٣) إيران در زمان صفويه ،ص : ٢٠٣ ، ٢٠٤

دافع عن نفسه بأنه اتخذ القرار أملا فى تنمية التجارة البريطانية وتفوقها على المنافسة البرتغالية الأسبانية ، كما أنه اضطر إلى ذلك أمام تهديد إمامقليخان حاكم فارس بحرمان البريطانيين من التعامل التجارى مع إيران ، وعلى الرغم من هذا التبرير فقد أصدرت المحكمة قرارها بإدانة الشركة وتغريمها مبلغ عشرين ألف جنيه استرليني حتى لا تقدم على مثل هذا العمل مرة أخرى دون إذن مسبق من الملك والحكومة البريطانية [1].

ولعل الحكومة البريطانية لجأت إلى هذه المحاكمة الصورية والغرامة حتى تسترضى ملك أسبانيا الذى كان على وفاق فى ذلك الوقت مع ملك انجلترا ، وحتى تتظاهر بأنها غير راضية عن مسلك الشركة ولا تؤيده ، على الرغم من المكاسب العظيمة التى تحققت لبريطانيا على الأمد الطويل من طرد القوات البرتغالية من جزيرة هرمز ، ويمكن إجمال هذه المكاسب فى النقاط التالية:[2] :

١ — لم يكن الإنجليز يقدرون قبل ذلك على مواجهة البرتغاليين فى الخليج مطلقا .

٢ — كانت المصالح الإنجليزية والمؤسسات البريطانية فى الخليج عرضة دائما لغزوات القوات البرتغالية ، كما لم يكن فى استطاعة شركة الهند الشرقية الإنجليزية منافسة المركز النشط للبرتغال وأسبانيا فى هرمز .

٣ — الحصول على امتيازات وتسهيلات تجارية كبيرة من الشاه عباس الأول .

---

(١) ايران در زمان صفويه ، ص: ٢٠٥

(٢) انقراض سلسله صفويه ... : ٤١٣

٤ — وجود بعض السفن الحربية التابعة للشركة الإنجليزية بصفة منتظمة في مياه الخليج ، لكي ترد بسرعة على أى حملة انتقامية تقوم بها القوات البرتغالية .

وهكذا أصبح العلم البريطاني يرفرف فوق سطح مياه الخليج العربي ، وبدأت السفن الإنجليزية تبحر وسطه دون إذن مسبق من القوات البرتغالية التي سيطرت على مدخل الخليج وأهم موانيه أكثر من قرن من الزمان ، كما أصبحت الشركة الإنجليزية بعد ذلك لا تجد منافسة حقيقية في منطقة الخليج إلا من حلفائهم الهولنديين الذين آثروا بعد فترة من المنافسة ، الاتحاد مع الإنجليز للوقوف جبهة واحدة أمام القوات البرتغالية ، والتي تمثل العدو المشترك والمنافس للوجودين البريطاني والهولندي في منطقة المحيط الهندي . وقد حرصت الشركة الإنجليزية والحكومة البريطانية على التواجد الدائم بعد ذلك في منطقة الخليج ، وكثيرا ما دعمت هذا الوجود التجاري بقوات عسكرية مهدت لإنجلترا إحكام السيطرة على كثير من موانى الخليج ، وإعلان تبعيتها للتاج البريطاني مما جعل شعوب منطقة الخليج تعانى كثيراً من ويلات الاستعمار البريطاني الذي وفد الى المنطقة أول الأمر في صورة نشاط تجارى بتشجيع من الشاه عباس الأول .

* * *

ثالثاً : علاقات الشاه عباس مع هولندا

بعد أن تمكن الشاه عباس من طرد البرتغاليين من جزيرة هرمز بمساعدة القوات التابعة لشركة الهند الشرقية الإنجليزية فى عام ١٠٣١ هـ ، سارعت شركة الهند الشرقية الهولندية المتحالفة مع الشركة الإنجليزية بالظهور فى الخليج بحجة مساندة القوات البريطانية فى صراعهما المشترك مع الوجود البرتغالى بمنطقة المحيط الهندى والخليج العربى[١] ، ولكى تضمن البقاء بالمنطقه استأذنت الشاه عباس فى بناء دار للتجارة الهولندية فى بندر عباس ، فأذن لهم ، وتم تأسيس هذه الدار فى عام ١٠٣٢ هـ أى فى العام التالى لإخراج البرتغاليين من جزيرة هرمز[٢] .

وبعد أن استقرت أقدام الهولنديين فى إيران ، بدأوا يتطلعون للقيام بدور مستقل فى تجارة إيران . فوافقهم الشاه عباس على شراء كمية من الحرير الإيرانى كل عام حرصا منه على إيجاد منافسة بين أكبر عدد من مشترى الحرير مما يحقق له ولإيران مكاسب كبيرة . فلم تمض إلا فترة وجيزة حتى تحولت الآمال العريضة التى كانت تتوقعها الشركة الإنجليزية من وراء الاتجار مع إيران إلى نوع من اليأس ، حيث أصبحت الشركة الهولندية أكبر منافس تجارى للإنجليز فى الخليج[٣] .

ولكى تدعم هولندا علاقاتها التجارية مع إيران ، أرسلت إلى إيران وفداً هولنديا فى عام ١٠٣٣ هـ (١٦٢٤م) ونجح الوفد فى عقد اتفاقية مع الشاه عباس يتم

---

(١) زندگانى شاه عباس اول ، جـ ٥ ، ص : ١٧٠

(٢) انقراض سلسله صفويه ... [لكهارت] ، ص : ٤١٤

(٣) المرجع السابق . نفس الصفحة

بمقتضاها تقديم تسهيلات تجارية للرعايا الهولنديين ، كما نصت بعض بنودها على السماح للهولنديين بإقامة كنائس وأماكن عبادة خاصة بهم ، ومن حقهم مجازاة أي هولندى يعتنق الدين الإسلامى ، بأن يلقوا القبض عليه ويحاكموه ويصادروا أمواله[1] .

ولعل الشاه عباس وقع معهم هذه المعاهدة على أمل أن يساعدوه ضد القوات البرتغالية الموجودة في مسقط والتى كانت تحاول استعادة جزيرة هرمز؛ لذا نجده يرسل وفدا إيرانيا إلى هولندا ليتفاوض مع ملكها بشأن مطلبين هامين بالنسبة لإيران وهما :[2]

١ ـ قطع الصلات التجارية والسياسية بين هولندا والدولة العثمانية .

٢ — مشاركة القوات البحرية التابعة لشركة الهند الشرقية الهولندية للقوات الإيرانية في طرد القوات البرتغالية من مسقط وعمان .

استقبل ملك هولندا الوفد الإيرانى بترحاب ، ولكنه اعتذر عن تحقيق المطلبين، وبين لرئيس الوفد تعذر تحقيق المهمة التى أُوفد من أجلها، وعلى الرغم من هذا الرفض، نجد ملك هولندا يرسل رسالة إلى الشاه عباس يخبره بأنه يرحب بالتعاون المشترك للقضاء على البرتغاليين فى منطقة الخليج، وأنه سيرسل رسولا من قبله صوب إيران ليتفاوض مع الشاه عباس فى الشروط التى سيتم بمقتضاها القيام بحملة مشتركة ضد البرتغاليين . ولعل ملك هولندا لجأ إلى هذا التمويه حفاظا منه على المصالح التجارية التى تحققت للهولنديين فى إيران ومنطقة الخليج العربى ، وقد أفاد هذا الوعد شركة الهند الشرقية الهولندية فى تدعيم موقفها

[١] زندگانى شاه عباس أول ، جـ ٥ ، ص ١٧١ - ١٧٢

[٢] المرجع السابق ، ص : ١٧٥ - ١٧٦

التجارى بإيران ، وزادت من عملياتها التجارية . ومن منافستها للشركة الإنجليزية ، حتى أصبحت هذه الشركة الهولندية على الرغم من قصر المدة التى وفدت فيها إلى إيران، تشرف على النصيب الأكبر من تجارة إيران الخارجية .

طال انتظار الشاه عباس للسفير الهولندى الذى وعـــد ملك هولندا بإرساله ، مما جعله يشعر بالضيق من الهولنديين ، فأرسل عباس رسولا من قبله إلى البلاط الهولنـــدى ليستفسر عن الأسباب التى منعت السفير الهولندى من القدوم إلى إيران حتى ذلك الوقت . و قد تضمنت الرسالة عتاباً وتلويحا بقطع العلاقات بين البلدين ، مما جعل ملك هولندا يسارع بتكليف أحد مبعوثيه بالتوجه صوب إيران ومقابلة الشاه عباس وتطييب خاطره ، وإعلان استعداد هولندا للتعاون المشترك معه ضد البرتغاليين . وسافر المبعوث الهولنـــدى إلى إيران ولكنه وصلها بعد وفاة الشاه عباس بشهرين ونصف تقريباً .

وعلى الرغم من أن المدة التى وفد فيها الهولنديون إلى إيران وحتى وفاة الشاه عباس عام ١٠٣٨ هـ كانت قصيرة ، إلا أنهم استطاعوا إثبات وجودهم وتدعيم موقفهم وبنوا لهم فى إيران ثلاث دور تجارية ، فى أصفهان وبندر عباس ولار ، فكانت دار تجارتهم فى أصفهان بمثابة المركز الرئيسى لشركة الهند الشرقية الهولندية بإيران ، وقد بنيت هذه الدار على مقربة من سوق القيصرية بالعاصمة . وكانت دارهم ببنـــدر عباس تشرف على تفريغ السفن الهولندية القادمة ، وكذلك إعداد الحمولات من البضائع الإيرانية التى ستحملها هذه السفن فى طريق عودتها ، أما دارهم فى لار فكانت بمثابة مكان تستريح فيه القوافل التى تحمل البضائع الهولندية من بندر عباس إلى أصفهان (١) .

---

[١] انقراض سلسله صفويه ... ص٤٢٥ وما بعدها

وأم البضائع التى كانت تستوردها هولندا من إيران الحرير والسجاد، والمخمل والمسكوكات الذهبية ، أما وارداتها إلى إيران فكانت تشمل الأصواف والأوانى والعطور ، وجميع الأدوية ، ولعل هولندا كانت أكبر مورد للعطور والأدوية إلى إيران (١) .

وهكذا كانت العلاقات الإيرانية الهولندية تعتمد على النشاط التجارى دون غيره ، وقد حاول الشاه عباس استثمار هذا التعاون فى مجال السياسة ، ولكن هولندا رفضت الاستجابة لمطالب الشاه ، ومع ذلك فقد كان لوجود سفنهم بالخليج أثر عظيم فى زيادة المنافسة البحرية بين كل من الهولنديين والإنجليز والبرتغاليين فى منطقة الخليج ، مما عرض ثروات شعوب المنطقة للنهب والسلب .

---

(١) المرجع السابق ، ص : ٤٣٨ - ٤٤٠

رابعا : علاقات الشاه عباس مع روسيا

كانت هناك صلات ودية بين الشاه عباس وقياصرة روسيا ، وذلك منذ السنوات الأولى لتتويج عباس ، فقد ذكرت المصادر أن الشاه عباس أرسل فى عام ٩٩٧ هـ (١٥٨٩ م) — أى فى العام التالى لتتويجه — وفدا إيرانيا برئاسة هادى بيك وبوداق بيك إلى موسكو [١] ، وكلف هذا الوفد بطلب العون من روسيا لمساعدة إيران فى حروبها ضد العثمانيين ، وقد جاء فى رسالة الشاه عباس المرسلة إلى قيصر روسيا ما يلى :

ترحب إيران بتقدم الجيش الروسى صوب باكو ودربند ، بل إنها تتمنى أن يتقدم هذا الجيش الروسى صوب آذربايجان وشروان وكرجستان ، حتى يبعد السيطرة العثمانية عن هذه المناطق . . . [٢]

ومنذ ذلك الوقت وتبادل الرسائل والرسل قائم بين البلاطين الصفوى والروسى ، وساعد على ذلك أن عدداً كبيراً من رسل الشاه عباس إلى أوربا ، كانوا يتوجهون أولا إلى موسكو ، ثم يواصلون مسيرتهم بعد ذلك صوب العواصم الأوربية المختلفة . ومن هؤلاء المبعوثين أنتونى شرلى وحسينعلى بيك بيات فى عام ١٠٠٧ هـ ، وروبرت شرلى فى عام ١٠١٦ هـ ، ومن المفارقات التى حدثت أثناء سفارة انتونى شرلى وحسينعلى بيك بيات ، معاملة أنتونى شرلى بازدراء بالغ فى موسكو ، بل ذكر البعض بأنهم زجُّوا به فى السجن فترة من الزمن ، ثم أفرج عنه بعد ذلك وسمح له بمقابلة القيصر [٣] ؛

---

[١] لغت نامه ، شمارة ٧٦ ؛ ص : ٤٣

[٢] زندگانى شاه عباس اول ، حـ ٥ ، ص : ١٣٤

(٣) History of Persia, Vol. II p.·77

ويقول البعض بأن هذا التصرف كان تعبيراً عن ضيق البلاط الروسى بأن يكون المبعوث الإيرانى شخصا بريطانياً.

وإلى جانب تبادل السفراء، كان هناك تبادل تجارى بين البلدين، فقد كان الشاه عباس المولع بالتجارة يحاول تشجيع تجار روسيا على الوفود إلى إيران، والمشاركة فى شراء الحرير الإيرانى. ومما ضاعف النشاط التجارى بين البلدين أن جزءاً كبيراً من البضائع الإيرانية المصدرة إلى أوربا كان يرسل عن طريق الأراضى الروسية، والسبب فى ذلك إغلاق الدولة العثمانية للطرق الأخرى التى كانت القوافل التجارية تسلكها عبر العراق والشام قبل اندلاع الحروب الصفوية العثمانية[1].

وعندما استرد الشاه عباس آذربايجان وكرجستان وشيروان، أصبحت أراضى الدولة الصفوية تجاور الأراضى الروسية، فزادت الصلات الودية بين البلدين وارتفع حجم التبادل التجارى بينهما، كما زادت العلاقات السياسية نموا وازدهارا، وتم تبادل السفراء بين البلاطين[2].

وهكذا كانت السمة الواضحة لهذه العلاقات الود والمجاملة، ولكن حدث فى عام ١٠٢٧ هـ ما ألقى على هذه العلاقات ظلا من الإهمال والتجاهل، فقد حدثت فى هذا العام بعض الاضطرابات فى البلاط الروسى، مما وضع البلاد فى ضائقة مالية، فسارع القيصر ميخائيل رومانوف بمراسلة الشاه عباس، وطلب منه العون المادى والمالى، وكان يتوقع ألا يتأخر صديقه الشاه عباس فى تلبية الطلب، ولكن رسله فوجئوا بتجاهل الشاه عباس لهذه المطالب

---

(١) سپهبد أمان الله جهانبانى : مرزهاى إيران وشوروى، ص : ٣ طهران ١٣٣٦ سنة

(٢) تاريخ إيران از مغول تا افشاريه، ص : ٣٥٠، ٣٥١

ومماطلته في الاستجابة لها ، مما أغضبهم ، فرجعوا خالي الوفاض إلى موسكو[1] .

ونتيجة لهذا المسلك توقفت الاتصالات الودية بين البلدين ، ولم يرد في الأخبار بعد ذلك أن تبادلا للرسل أو الرسالات تم بين البلاطين منذ ذلك العام وحتى وفاة الشاه عباس الأول ، في عام ١٠٣٨ هـ .

---

(١) وندكاني شاه عباس أول ، جـ ٥ ، ص : ١٦٠ ومابعدها .

خامسا : علاقات الشاه عباس مع باقى الدول الأوربية

حرص الشاه عباس على أن يكون على علاقات طيبة مع جميع ملوك أوربا. على أمل أن يقدم له هؤلاء الملوك العون والمساعدة ضد الدولة العثمانية ، وكذلك لزيادة التبادل التجارى بين إيران وجميع الدول الأوربية . فإلى جانب علاقاته بملوك كل من أسبانيا وانجلترا وهولندا وروسيا ، فقد كانت هناك علاقات بين الشاه عبـــاس وعدد آخر من ملوك أوربا ، وبعض هذه العلاقات كانت تتوقف عند مستوى تبادل الرسل والرسائل التى تتحدث عن ضرورة التعاون المشترك ضد الدولة العثمانية ، دون أن يبرز هذا التعاون إلى حيز الوجود ، وكانت بعض العلاقات الأخرى تشمل إلى جانب ذلك تبادل البضائع بين إيران وبين بعض البلاد الأوربية .

ومن هؤلاء الملوك الذين راسلهم الشاه عباس الأول ، امبراطور ألمانيا رودلف الثانى ، الذى زاره من قبل الشاه عبـــاس كلٌ من أنتونى شرلى وحسينعلى بيك بيات ومهد يقلى بيك وروبرت شرلى ، كما أرسل رودلف الثانى وفدا ألمانيا وصل إلى إيران فى عام ١٠١١ هـ (١٦٠٢م) وذلك للتأكد من رغبة الشاه عباس فى التحالف مع ملوك أوربا المسيحيين ضد الدولة العثمانية . وكان على رأس هذا الوفد الألمانى شخص يدعى كاكاش ، واتفق أن وصل الوفد والشاه عباس مشغول بحروبه ضد العثمانيين فى أذربايجان ، مما أخر لقاء الوفد بالشاه عباس ، وفجأة تناول الوفد طعاما فاسدا أودى بحياة رئيس الوفد وثلاثة من رفاقه ، وأخيراً جاء الشاه عباس من آذربايجان والتقى ببقية أعضاء الوفد الألمانى ورحب بهم ، وأبدى أسفه لما ألم برفاقهم ، ثم حملهم رسالة ودية إلى امبراطور ألمانيا[1] .

---

(١) إيران در زمان صفويه ، ص : ٢٤٨ ، ٢٤٩

ومن الملوك الذين اتصل بهم الشاه عباس كذلك ملك بولندا ، حيث تبادلا الرسائل والمنافع التجارية ، كما أرسل الشاه عباس إليه ذات مرة يستأذنه في السماح للقوافل التي تحمل الحرير الإيراني بعبور الأراضي البولندية في طريقها إلى وسط أوربا ، وذلك بعد أن أغلق الطريق عبر الأراضي العثمانية[1].

ومن الذين اتصل بهم الشاه عباس كذلك بابا روما ، وحاول عن طريقه حث ملوك أوربا المسيحيين على وحدة الكلمة والتعاون مع إيران في القضاء على الدولة العثمانية ، كما اهتم البابا بتوطيد علاقاته بالشاه عباس تدعيما لموقف المسيحيين في إيران ، وقد أرسل البابا عدة رسائل للشاه عباس يوصيه فيها بحسن معاملة مسيحيي إيران والسماح لهم ببناء الكنائس وإقامة الشرائع المسيحية . ومن الرسائل الهامة التي تصور لنا حرص بابا روما على تعميق هوة الخلاف بين الشاه عباس والعثمانيين تلك الرسالة التي أرسلها البابا بول الخامس مع وفد وصل إلى إيران ليهنىء الشاه عباس بانتصاره على الأوزبك ويحرضه على محاربة العثمانيين ، ومن بين ما جاء في الرسالة ، النقاط التالية[2] .

١ — كم يتمنى البابا إضعاف الدولة العثمانية ، وكم يأمل في التعاون مع جميع القوى الراغبة في تحقيق هذا الأمل ، وسيجتهد البابا في استنفار جميع الملوك المسيحيين للاتحاد فيما بينهم ، كي يقوموا بهجمة مشتركة ضد الدولة العثمانية من الغرب ، في حين يقوم الشاه عباس بهجمة أخرى من الشرق .

٢ — يعد البابا بإرسال المهندسين والخبراء العسكريين للعمل من أجل تقوية جيش إيران .

(١) زندكانى شاه عباس أول ، جـ ٥ ص : ٢١٧ — ٢٢٥

(٢) ايران درزمان صفويه ، ص: ٢٢٠ — ٢٤١

٣ ـ يرغب البابا فى إنشاء سفارة فى كل أصفهان وروما للاشراف على توطيد العلاقات بين الطرفين .

٤ ـ يأمل البابا من شاه إيران أن يحسن معاملة مسيحيى إيران، وكذلك المسيحيين الأجانب ، وألا يعاقب من يعتنق الدين المسيحى ، وألا يجبرهم على التخلى على دينهم ، وفى مقابل ذلك يعد البابا بأن يحظى الإيرانيون وسائر المسلمين بنفس المعاملة فى البلاد المسيحية .

وحرص الشاه عباس كذلك على توطيد علاقاته الودية بحكام فينيسيا وبخاصة فى النواحى التجارية ، إذ كان تجار فينيسيا يقومون بدور كبير فى التبادل التجارى بين آسيا وأوربا ، فحرص الشاه عباس على الإفادة من خبرة هؤلاء التجار ، لذا كان يشجعهم على المجىء إلى إيران ، والمساهمة بنصيب فى رواج تجارة الحرير الإيرانى الذى كان حكرًا خاصًا للشاه عباس الأول[١] .

ولكن على الرغم من هذه الصلات العديدة بين الشاه عباس الأول وعدد كبير من ملوك أوربا ، لم تكن هناك صلات من أى نوع بين الشاه عباس وملوك فرنسا[٢] .

---

(١) زندگانى شاه عباس أول ، ج ٥ ، ص ٢١٧ — ٣٢٥

(٢) إيران در زمان صفوية ، ص : ٩٨

استقبال سفراء الشاه عباس في بلاط فينيسيا

تعقيب على العلاقات الإيرانية الأوربية

فى عهد الشاه عباس الأول

لقد استعرضنا أهم العلاقات الإيرانية الأوربية مع التركيز على علاقات إيران بكل من البرتغاليين والإنجليز، وذلك للدور المباشر الذى لعبوه فى منطقة الخليج فى عصر الشاه عباس واستمر هذا الدور بعد عصره كذلك، وأدركنا كم كان الشاه عباس حريصا كل الحرص على توثيق علاقاته بجميع ملوك أوربا على وجه التقريب، ويمكن تلخيص الأهداف التى سعت إليها هذه العلاقات؛ فيما يلى:

١ ـ العداء المشترك للعثمانيين.

٢ ـ زيادة التبادل التجارى بين إيران وأوروبا.

٣ ـ التبشير بالدين المسيحى فى إيران.

فإلى أى مدى تحققت هذه الاهداف؟

من ناحية العداء المشترك للعثمانيين، والرغبة فى عقد معاهدات دفاع مشترك بين إيران والدول الأوربية، نجد أن الأمر اقتصر على مجرد الوعود من جانب ملوك أوربا، دون مبادرة أحد منهم لتقديم أى عون عسكرى للشاه عباس وهو يحارب الدولة العثمانية زهاء عشرين عاما أو أكثر، كما لوحظ أن عددا من هؤلاء الملوك كان يراسل الشاه عباس ويعده بالعون والمساعدة، وفى نفس الوقت يعمل على تنقية الجو بينه وبين العثمانيين، وعلى سبيل المثال نجد رودلف الثانى إمبراطور ألمانيا يرسل وفدا من قبله إلى بلاط الشاه عباس ليؤكد على ضرورة المشاركة فى محاربة الدولة العثمانية، وبعد فترة تصل إلى إيران الأنباء بتوقيع معاهدة صلح بينه وبين السلطان العثمانى.

ولعل الشيء الوحيد الذى أفادته إيران من الأوربيين من الناحية الحربية

تلك المجهودات التى بذلها الأخوان شرلى ورفاقهما البريطانيون فى سبيل تنظيم الجيش الصفوى وإعادة تدريبه وتسليحه ، مما وفر له القدرة على مجابهة القوات العثمانية ، وإحراز العديد من الانتصار فى آذربايجان وبغداد ، ولكن هذا التعاون كان فرديا ، ولم يكن تعاونا بين حكومة إيران وأى حكومة أوربية وعدت الشاه عباس بتقديم العون العسكرى .

وأما من الناحية التجارية ، فيجب الاعتراف بأن إيران أفادت من التبادل التجارى ، حيث راجت سوق الحرير الإيرانى ، فقد أدت المنافسة بين البرتغاليين والإنجليز والهولنديين والأرمن وغيرهم إلى زيادة ثمنه ، كما نتج عن هذا الانفتاح التجارى إقامة العديد من المراكز التجارية فى إيران ، حيث أقامت كل من انجلترا وهولندا والبرتغال عدة مراكز تجارية لها فى أصفهان وشيراز وبندر عباس ، كما ساعد هذا التبادل التجارى على توفر البضائع الأجنبية بأسعار معقولة فى إيران ، وذلك نتيجة للمنافسة الشديدة بين الموردين الأوربيين .

ولكن هذا الانفتاح التجارى جعل منطقة الخليج إحدى مناطق الصراع الساخنة بين الدول الاحتكارية الأوربية التى كانت تتطلع إلى فرض سيطرتها على أسواق العالم ونهب ثرواته .

أما عن التبشير بالدين المسيحى ، فقد نجح الأوربيون فى حمل الشاه عباس على التعاطف الشديد مع مسيحيى إيران وكذلك مسيحيى أوربا الذين كانوا يفدون إلى إيران . كما جعلوه يوافق على بناء الكنائس فى أصفهان وغيرها من المدن الإيرانية ، كما أنه سمح للبعثات التبشيرية بالقدوم إلى إيران ومنحها حرية الحركة والتبشير ، وقد أدى هذا إلى إعتناق بعض الإيرانيين -ومنهم عدد من مستشارى الشاه عباس- الديانة المسيحية ، بل إنه أدى إلى اتهام

البعض للشاه عباس نفسه بالميل إلى الديانة المسيحية ، كما أدى تعاطفه مع البعثات التبشيرية ، إلى أن عرض عليه أحد القساوسة الدخول فى الدين المسيحى ، فرد عليه الشاه قائلا : لنترك هذا إلى وقت آخر !

وهناك نقطة تستلفت النظر فى علاقات الشاه عباس الخارجية، حيث أسند مهمة تمثيله فى أوربا إلى الأخوين انتونى شرلى وروبرت شرلى، وقد أغضب هذا عدداً كبيراً من الإيرانيين ، فدار صراع كبير بين هذين البريطانيين وبين رفاقهما من الإيرانيين ، مما أدى إلى فشل مهمة انتونى شرلى وحسينعلى بيك بيات ، كما أدى أيضاً إلى فشل مهمة روبرت شرلى الثانية فى انجلترا ، عندما تشاجر معه نقد عليبيك وادعى أن الوثائق التى يحملها مزورة ، وأنه لا يمثل إيران ولا الشاه عباس ، لذا كان الأجدى أن يسند هذه المهمة لإيرانيين يثق فيهم بدلا من إسنادها لأوربيين منعاً لما حدث من مشاكل . وليكونوا أكثر حرصا على مصلحة إيران فى أى معاهدة يوقعونها مع أى حاكم أوربى .

وعلى هذا يمكن القول بأن الفوائد التى جنتها إيران من صلاتها بأوربا ، تمثلت فى الازدهار التجارى ، دون غيره ، أما المكاسب التى أحرزتها الدول الأوربية ؛ فقد تمثلت فى وجود الأوربيين فى منطقة الخليج كتجار أولا ، ثم مستعمرين بعد ذلك ، وتمثلت أيضاً فى صورة مبشرين ودعاة للديانة المسيحية ، ولا يخفى علينا أثر هؤلاء المبشرين فى تعميق هوة الخلاف بين الشيعة الإيرانيين ، وبين أهل السنة من جيران إيران فى الشرق والغرب ، وأثر ذلك على علاقات إيران بجيرانها .

وخير ما أختتم به التعقيب على علاقات الشاه عباس بملوك أوربا ، ذلك

التعليق الذى كتبه الباحث الإيرانى أحمد تاج بخش فى كتابه : « ايران درزمان صفويه » ، وقال فيه[1] :

كان أكثر سلاطين إيران وبخاصة الشاه عباس يحرصون على توثيق صلاتهم بملوك أوربا أملا فى عقد حلف يعمل ضد الامبراطورية العثمانية ، وفى كل مرة كان السفراء يسافرون إلى أوربا ، كانت إيران تقدم المزيد من التسهيلات والامتيازات للتجار الأوربيين .

وإيران فى ذلك الوقت كانت قوية ، لذا لم تكن مجبرة على إعطاء امتيازات متعددة للانجليز والهولنديين والأسبان ، أو أن تغلب المنافع الأجنبية على المنافع الوطنية ، فالمتصفح للمعاهدات التى عقدت أيام الشاه عباس يدرك كم أعطى من امتيازات للتجار الأوربيين وللأجانب عامة .

وعلى الرغم من تلك الامتيازات ، فإن ممالك أوربا لم تقدم أى مساعدة فعالة لمحاربة الدولة العثمانية ، بل كانت فى كل مرة تكتفى بالوعود دون تنفيذ لهذه الوعود ، حتى ولو كانت الدولة الأوربية هى التى اقترحت تقديم المساعدة .

وإذا دققنا النظر نجد أن المعاهدات كانت منحازة وتعمل على زيادة الرعاية للتجار المسيحيين ؛ حتى تبدو هذه المعاهدات وكأنها بين دولتين إحداها قوية والأخرى ضعيفة !

---

(١) إيران در زمان صفويه ، ص : ٢٥٣

الفصل السادس

وفاة الشاه عباس ونظرة التاريخ اليه

الفصل السادس

وفاة الشاه عباس ونظرة التاريخ إليه

— ١ —

وفاة الشاه عباس :

عاش الشاه عباس سنوات طوالا فى صراع وعراك مستمرين ، سواء كان هذا الصراع من أجل تثبيت دعائم حكمه بالداخل ، أو سواء كان العراك مع أعداء وطنه وبخاصة الأوزبك فى الشرق والعثمانيين فى الغرب ، ولم يترك له هذا الصراع فرصة لكى يستريح ، فما أن ينتهى من جبهة ، حتى يندلع الصراع فى جبهة جديدة ، كل هذا أثر على صحته ، وبدأ الخور والضعف يدبان فى جسده ، فأصيب بمرض الصفراء [1] وأخذت صحته فى التدهور والذبول ، لذا فكر فى التوجه صوب منطقة أشرف بمازندران للاستشفاء والاستجمام لعله يبرأ من علته .

وقبل أن يتوجه إلى منطقة أشرف حرص على أن يختار وليا للعهد حتى لا يفاجئه الموت ولا وجود لوريث شرعى يخلفه ، مما قد يعرض الدولة للفتن والمؤامرات ، وأخيراً وقع اختياره على حفيده سام ميرزا بن صفى ميرزا الذى اغتيل بأمر الشاه عباس نفسه ، واستطاع الشاه عباس أن يأخذ لحفيده البيعة من جميع أمراء البيت الصفوى [2] .

---

(١) ملحقات تاريخ روضة الصفا ، ج ٨ ، ص : ٤٣٦

(٢) تاريخ إيران از مغول تا افشاريه ، ص ٣٣٧

بعد ذلك سافر إلى أشرف بما زندران وقضى هناك فترة من الزمن على أمل أن يبرأ من علته ، ولكن المرض كان يشتد باستمرار ، وظل على هذه الحال إلى أن قضى نحبه في صبيحة يوم الخميس الرابع والعشرين من جمادى الأولى عام ١٠٣٨ هـ [١] (والموافق التاسع من يناير عام ١٦٢٩ م) [٢].

بعد ذلك نقل جثمانه إلى منطقة كاشان ، حيث أودع خلف قبر الإمام زاده حبيب بن موسى [٣] فى منطقة پشت مشهد على مشارف كاشان ، وقيل إن ذلك كان بصفة مؤقتة ، حتى ينقل بعد ذلك إلى أحد الأماكن المقدسة ، ولكن لا يعرف على وجه اليقين ، هل نقل إلى أى مكان مقدس بعد ذلك أم ظل بمنطقة كاشان ، فقد قال البعض بأنه اتخذت الترتيبات لنقله إلى المنطقة المقدسة بمدينة قم ولكن لم يتم نقله ، وبقى فى منطقة پشت مشهد بكاشان ، ورواية أخرى تقول بأن الشاه عباس كان حريصا على أن يكون قبره غير معلوم ، لذا أعد كبار معاونيه ثلاثة توابيت ، أرسلوا أحدها إلى مشهد و الثانى إلى أردبيل ، والثالث إلى النجف ، ولا يعلم إلى أى واحد فيها نقل جثمانه بعد ذلك .

ويعلق عباس إقبال على هذه الروايات بقوله : « الحقيقة أنه لا يوجد أحد مطلقا يعرف ماذا حدث لجثمان أكبر ملوك الدولة الصفوية ، وأين استقر به المطاف فى النهاية [٤] ! » .

---

(١) مجله يادكار ، سالسوم ، شماره دوم ، ص : ١٣ مقالة بعنوان : مباحث تاريخى : از ابتداى صفويه تا آخر قاجاريه : (پادشاهان ايران : هريك در كجا مدفونند)

(٢) H. F. Farmayan : The Policies and Reforms of shah Abbas 1, Utah'1969, p.II.

(٣) لغت نامه ، شماره ٧٦ ، ص : ٤٣

(٤) مجله يادكار ، سالسوم ، شماره دوم ، ص : ١١

الشاه عباس الأول (نقلا عن تاريخ ادبيات ايران ج٣ لادوارد براون)

— ٢ —

الإشادة بالشاه عباس :

أشاد عدد كبير من المستشرقين والإيرانيين بالشاه عباس ، وامتدحوا العديد من أعماله ، ومن المستشرقين الذين أشادوا به سير بيرسى سايكس فقد قال :

« إن شهرة الشاه عباس لا تعتمد فقط على مقدرته العسكرية وحدها ، بل إنها قامت كذلك على عبقريته الفذة فى مجال الإدارة والحكومة .. »(١)

وقال إدوارد براون :

يتفق المؤرخون على أن مملكة إيران وصلت فى فترة حكم الشاه عباس ، إلى درجة من العظمة والعمران والشوكة لم تبلغها طوال عصورها الإسلامية .. كما أن قصة الدولة الصفوية تشبه قصة سيدنا سليمان الذى مات ، ولم تعرف الجن نبأ وفاته حتى نخرت السوس عصاه ، وسقط على الأرض ،فأدركت الجن نبأ وفاته وبدأت تتحرر من القيود التى فرضها عليها ، وهكذا أبقى اسم الشاه عباس على الدولة الصفوية بعد موته بما يقرب من مائة عام ، ذلك بفضل حسن سياسته وتدبيره على الرغم من ضعف من تبعوه ، وسهولة القضاء عليهم(٢) .

وقال هـ . ف فارمايان معلقا على فترة حكم الشاه عباس الأول :

عندما نستعرض تاريخ ايران إبان هذه الفترة ، يعجب الإنسان أيما إعجاب

---

(١) History of Persia, Vol. II p 180

(٢) تاريخ أدبيات إيران از آغاز عهد صفويه تا زمان حاضر ، ص ٩٩ — ١٠٦

بحكمة وجلد الشاه عباس الذى أعاد الحياة إلى دولته من الناحيتين العسكرية والإدارية ، وقد توفى هذا الإمبراطور وله من العمر ستون عاما منهيا بذلك حكما قويا راسخا استمر ثنتين وأربعين سنة ، استطاع خلالها انتشال إيران من هوة الانحطاط السياسى ، والارتفاع بها مرة أخرى حتى أصبحت أكبر قوة قادرة على أن تمثل خطورة حقيقية على الدولة العثمانية فى النصف الأول من القرن السابع عشر الميلادى (الحادى عشر الهجرى)[1] .

أما إشادة أبناء وطنه وهم الإيرانيون بشخصيته وسياسته ، فتصل إلى حد التقديس والتمجيد ، وسنكتفى بذكر آراء بعضهم وذلك على سبيل المثال لا الحصر ، فقد قال رضا قليخان هدايت :

أوصل الشاه عباس الدولة الصفوية إلى معارج الكمال ، وأعاد فتح البلاد التى انفصلت عن إيران قبل حكمه ، وفى الحقيقة كان ملكا عادلا عاقلا كريما ذاهمة وسياسيا ذا كياسة ومدبرا ، وقد تمكن من إنجاز أعمال عظيمة ، وخلف اسما لامعا ، وكان عديم النظير فى نشر الشريعة (المذهب الشيعى) وفى الأخذ بيد الضعاف والمكدودين ، وكان فى العدل قرينا لكسرى الثانى (كسرى أنوشيروان).[2]

وقال نصر الله فسائى:

حقا لقد تجدد الاستقلال السياسى لإيران،وعادت إليها وحدتها الوطنية بعد سقوط الدولة الساسانية بفضل هذا الملك العظيم (الشاه عباس) ، وقد سلكت إيران طريقا جـــديدا بفضل رجاحة عقله وحسن تدبيره فى السياستين

---

(١) The Policies and Reforms of Shah Abbes I p.11

(٢) ملحقات تاريخ روضة الصفا ، جـ ٨ ، ص : ٤٣٨

الداخلية والخارجية ، حيث حقق لها أساس القدرة والرفعة والشهرة فى ربوع العالم أجمع ولاشك أن هذا الوطن الواسع العامر المستقر وتلك الدولة القوية الذائعة الصيت التى أوجدها عباس لم تكن تتاح لولا استعداده الذاتى ونبوغه وحسن سياسته وتدبيره وسعة علمه ووضوح فكره ، وجسارته وشجاعته[1]

وقال رضا بازوكى :

ما أن تنازل السلطان محمد خدا بنده عن الحكم لابنه الشاه عباس الأول حتى دبت الحياة من جديد فى كيان الدولة الصفوية ، حتى يمكننا القول بأن الشاه عباس كان المؤسس الثانى الدولة الصفوية[2]

وفى رأيى أن الشاه عباس يستحق الإشادة به ، كما يستحق التفاف قلوب مواطنيه حوله وحول اسمه حتى اليوم ، وذلك للأسباب الآتية :

١ — بذل عباس المزيد من الجهد فى مجال السياسة الداخلية والإدارة ، فقد تسلم دفة الحكم وإيران تتهاوى أمام جبروت رؤساء طوائف القزلباش وحكام الأقاليم ، ومحاولة كل رئيس منهم الخروج على الحكومة المركزية ، فاستطاع الشاه عباس القضاء على هيبه هؤلاء الرؤساء وأعاد للحكومة المركزية هيبتها ، ولم يعد هنالك قوة مسيطرة داخل إيران كلها إلا شخصية الشاه عباس وحدها ، وهكذا أعاد إلى إيران وحدتها السياسية التى مكنتها من التصدى للأخطار الخارجية وهى مرتكزة على جبهة داخلية قوية تغذى الجبهة الخارجية بكل احتياجاتها ومقومات نجاحها .

٢ — ومن الناحية العسكرية استطاع الشاه عباس الانتصار فى العديد

---

(١) زندگانى شاه عباس أول ، جـ ١ ، ص : يد

(٢) تاريخ ايران آز مغول تا افشاريه ، ص : ٣١١

من المعارك التى أحالت إيران من دولة مغلوبة على أمرها ، وأرضها نهبا مباحا لكل طامع فى الشرق والغرب، إلى دولة فتية تمكنت من ردالأوزبك والعثمانيين وطرد القوات البرتغالية من جزيرتى قشم وهرمز ، وهكذا أعاد للشخصية الإيرانية افتخارها وعزتها ، بعد أن عادت الراية الإيرانية ترفرف على جميع أراضى الدولة الصفوية من جديد .

ومن الناحية العسكرية أيضاً ، استطاع الشاه عباس تكوين جيش صفوى مدرب على أحدث النظم العسكرية المألوفة فى ذلك الوقت ، وزوده بأسلحة نارية حديثة ، وجعل هذا الجيش يرتبط بشخصه ويتلقى الأوامر منه مباشرة بعد أن كان الجيش الإيرانى قبل فترة حكمه ، يأتمر بأوامر رؤساء طوائف القزلباش ، ولا يستطيع الشاه الصفوى قبل عباس أن يصدر أوامره إلى الجيش إلا من خلال رؤساء الطوائف ، ولكن الشاه عباس سلب هذا الحق من جميع رؤساء الطوائف ، وجعل الجيش يتمتع برئاسة واحدة تتمثل فى شخص الشاه نفسه ، مما ساعده على تحريك الجيش فى أى اتجاه يرغبه ، وساعده هذا على تحقيق انتصارات حاسمة على أعدائه فى الداخل والخارج .

ومن الناحية العسكرية أيضاً ، اتسم الشاه عباس بالذكاء فى رسم الخطط العسكرية ، حيث امتنع عن دخول معركتين فى وقت واحد ، حتى لا يشتت قواته ومجهوداته ، فعندما هاجمته القوات العثمانية والأوزبكية فى وقت واحد بعد توليه الحكم مباشرة ، آثر عقد صلح مع العثمانيين حتى ينتهى من حروبه مع الأوزبك ، وبعد ذلك يتفرغ لمحاربة العثمانيين ، ونجح فى هذا المخطط ، واستطاع تحقيق انتصارات حاسمة على الجبهتين الأوزبكية والعثمانية كل على حدة .

ويبدو ذكاؤه الحربى كذلك فى استخدامه أسلوب الإخلاء والتهجير

إذا ماواجه عدوا تفوق قواته قوات الجيش الصفوى عددا وعدة ، إذ كان يترك الطبيعة القاسية تحارب العدو بدلا من الجيش الصفوى ، وبعد أن تكون الطبيعة قد أنهكت العدو ، فإن جيشه يستطيع بأقل مجهود أن يحقق الانتصار عليه ، وقد استخدم الشاه عباس هذه الطريقة بكفاءة فى أكثر من موقعة فى آذربايجان أثناء معاركه العديدة مع الجيوش العثمانية .

ومما يثبت ذكاءه الحربى كذلك ، تحريكه الجيوش من أصفهان حتى قزوين وهى لاتعرف الوجهة الحقيقية التى تقصدها ، وقد أفادته هذه السرية والكتمان فى مفاجأة القوات العثمانية فى تبريز دون أن يكون لديها علم مسبق بوصوله ، مما ضمن له الانتصار عليها وتحرير تبريز .

ومن مظاهر ذكائه الحربى كذلك ، اتباعه طريقة "الكماشة" فى العديد من معارك آذربايجان مع العثمانيين ، وأشهرها تلك المعارك التى استطاع فيها جيشه التغلب على الجيش العثمانى وانتحار قائده چغال أوغلى بعد ذلك .

٣ — نجح الشاه عباس عن طريق إيجاد منافسة تجارية بين الدول الأوربية فى رفع أسعار الحرير الإيرانى الذى كانت جميع البلاد الأوربية تتكالب على شرائه ، وبذلك تخلص من احتكار البرتغاليين لهذا المحصول الإيرانى الهام ، وحقق من وراء ذلك أموالا وأرباحا طائلة أفادته فى تعمير إيران ، وبناء جيش قوى .

٤ — يحمد للشاه عباس اهتمامه بالعمران والتشييد ، فعلى الرغم من حروبه العديدة فى كل الجبهات إلا أنه اهتم بإقامة العديد من المبانى الفخمة التى تعتز بها إيران الحديثة ، وتحرص على أن يؤمها السائحون ، إذ أن معظم هذه المبانى مازال قائما فى عاصمته أصفهان ، حيث بذل الكثير من الجهد

والمال حتى أحالها إلى مدينة غاية فى الجمال والتنسيق ، استحقت أن يطلق عليها فى ذلك الوقت : « أصفهان نصف الدنيا » .

* * *

— ٣ —

مآخذ على سياسية الشاه عباس :

على الرغم من الأعمال الجيدة التى اقترنت باسم الشاه عباس الأول ، ورفعت اسمه ومكانة وطنه ، فقد ارتكب عدة أخطاء استحق من جرائها لوم المؤرخين ؛ فقد قال ادوارد براون الإنجليزى :

مع أن الشاه عباس زاد من مهابة السلطنة ، إلا أنه دفع الأمة فى النهاية إلى هاوية الضعف ، وأدى إلى انحطاط أخلاق الحكام ، فقد كان الملوك السابقون يطلبون العون من أقوامهم وأقاربهم ، ويحيطون أنفسهم برؤساء الطوائف القوية ، ولكن الشاه عباس اعتمد على نفسه دون غيره ، وبدلا من أن يعين أولاده فى المناصب الإدارية العليا ، ويشركهم معه فى حروبه ، فإننا نجده إما حرمهم من حلية الإبصار ، أوجعلهم حبيسى جدران أربعة ، وهكذا تركهم — كما يقول كرونسكى — يقاسون الشدة والمشقة والحرمان، ولم يعطهم الفرصة لكى يتمتعوا بمباهج السلطنة،فنشأوا ناقصى الإعدادوالتربية، وجعلهم تحت إمرة رجال البلاط حتى أصبح رجال البلاط هم أصحاب الكلمة الأولى فى الدولة بعد ذلك(١) .

وقال المستشرق الفرنسى شاردان الذى زار إيران بعد وفاة الشاه عباس

(١) تاريخ ادبيات إيران آز اغاز عهد صفوية تازمان حاضر ، ص : ١١٤

الأول بحوالى نصف قرن : مما لاشك فيه أن عباس الكبير عمل على توفير الرخاء والتعمير لإيران ، ولكن على الرغم من كل مافعله لسيادة وطنه وجلاله، فإنه بذر بذور المصائب فى أرض إيران كذلك[1] .

ويوضح لورانس لكهارت الهولندى هذا الرأى ؛ فيقول :

على الرغم من الخدمات الجليلة التى قدمها عباس الكبير لوطنه ، إلا أنه مسئول عن سبب هام من أسباب انحطاط وزوال أسرته ؛ فإن الشاه عباس بسبب الخوف من أبنائه وبسبب الحقـــد عليهم ، ابتدع سنة سيئة وضارة ، وهذه السنة تتلخص فى تحديد إقامة ولى العهد داخل الحريم . . . وأنَّى لولى العهد أن يستقل بتصريف الأمور عندما يتولى السلطنة وهو عديم التجربة؟ ولو نظرنا بعين فاحصة إلى فترات حكم خلفاء الشاه عباس لوضح تماما أن تربية كهذه قـــد أثرت تأثيرا سيئا وشؤما على الأمراء ، وبخاصة من الناحية الأخلاقية[2] .

ولخص سرجان ملكم مضار هذه التربية فى العبارة المقتضبة التالية :

« لا يمكن أن يتوقع من سلطان لم يسمح له بالخروج من هذا السجن (الحريم) إلا وقت جلوسه على كرسى العرش ، أن يتصرف كالرجال ذوى الكفاية ، بل سيعمد إلى السلطنة المطلقة ، ويكون خضوعه لحكم الهوى نتيجة حتمية لحرمانه السابق وانعدام التجربة عنده[3] » .

ومن المآخذ التى سجلها أحمد تاج بخش على الشاه عباس ، عقده معاهدات مجحفة لإيران مع ملوك أوربا ، وقال فى نهاية تعليقه على هذه المعاهدات:

---

(١) نقلا عن انقراض سلسلة صفويه ، ص : ١٩

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٩ — ٣٠

(٣) سرجان ملكم : تاريخ إيران ، ج ١ ص : ٥٥٧ ٢٥٥٦ ، وذلك نقلا عن المرجع السابق ص : ٣٠

إذا دققنا النظر نجد أن المعاهدات كانت منحازة وتعمل على زيادة الرعاية للتجار المسيحيين ، حتى تبدو هذه المعاهدات ، وكأنها بين دولتين إحداها قوية والأخرى ضعيفة(١) .

وإلى جانب هذه المآخذ التي سجلت على الشاه ، يمكننا أن نضيف ما يلي :

١ — كان الشاه عباس في أحايين كثيرة ظالما مستبدا بلا سبب مقنع إلا الرغبة في سفك الدماء والبطش ، فكان يأمر أحيانا وهو في مجلس الشراب بأن يُقتل فلان ، فيُنفذ فيه حكم الإعدام بلا مناقشة ، حتى أصبح ندماؤه يخشون الجلوس معه خوفا من أن يأمر بقتل أحدهم دون جريرة أو ذنب . كما كان يبادر بقتل أبناء من يقتلهم ، وكذلك من يعيشون في كنفهم حتى لا يبقى منهم أحد قد يثأر منه في المستقبل ، فعندما قتل مرشد قليخان ، أمر بقتل جميع أبنائه وأخوته وصادر أموالهم ، ونكل بهم جميعا دون ذنب اقترفوه أو جريمة ارتكبوها ، إلا قرابتهم لمرشد قليخان .

ومن مظاهر قسوته إصداره الأوامر للأبناء بقتل آبائهم ، أو للآباء بقتل أولادهم ، ومافعله مع الأكراد دليل واضح على قسوته وجبروته ، حيث نكل بهم في كردستان ، ثم أمر بنقل عدة آلاف منهم للعيش في خراسان ، على الرغم مما سيقاسونه من الإحساس بالغربة والتشرد .

إلى غير ذلك من مظاهر القسوة التي اتسمت بها أخلاق عباس ، مما جعل الملك الهندي أكبر ينفر من قسوته ، فأرسل ينصحه بالكف عن مثل هذه المآسي .

---

(١) إيران در زمان صفويه ، ص : ٢٥٣ ، وقد أوردت التعليق كاملا ص ٢٧٨ من هذا الكتاب .

٢ — كان الشاه عباس لاينظر إلى المستقبل وهو يتعامل مع الأوربيين الذين وفدوا إلى منطقة الخليج ، فقد شجع كلا من الإنجليز والهولنديين على المجيء إلى منطقة الخليج والمشاركة فى النشاط التجارى فى هذه المنطقة، وليناقسوا البرتغاليين الذين فرضوا سلطانهم على المنطقة أكثر من قرن من الزمان، وبذلك أدخل الشاه عباس منطقة الخليج العربى فى دائرة الصراع الاحتكارى والاستعمارى بين الدول الأوربية المتنافسة على بسط سيطرتها على ربوع العالم ونهب ثرواته ، وقد تأثرت إيران نفسها بعد ذلك بخطر وجود هذه القوى الاحتكارية والاستعمارية التى جاءت إلى المنطقة بتشجيع من الشاه عباس .

٣ — على الرغم من اهتمام الشاه عباس بالنواحى العسكرية ، وتسليحه جيشه بأسلحة نارية حديثة مكنته من مجابهة القوات العثمانية والانتصار عليها ، إلا أنه أهمل تكوين قوة بحرية إيرانية تلعب دورا مهما فى بحر قزوين والخليج العربى ، وأمام هذا العجز لجأ الشاه عباس إلى البحريتين الإنجليزية والهولندية لتخلصاه من القوات البرتغالية المتمركزة فى هرمز . ولو اهتم الشاه عباس بتكوين أسطول إيرانى مستقل ، لما أصبح فى حاجة لمساعدة من البحرية الإنجليزية ولما عانت المنطقة من ويلات الاستعمار البريطانى بعد ذلك .

٤ — على الرغم من حرص الشاه عباس الشديد على الانفراد بالحكم إلا أنه كان يؤمن إيمانا جازما بأقوال منجمه جلال الدين محمد يزدى الذى التحق بخدمته منذ عام ٩٩٤ وحتى عام ١٠٢٩ هـ، فكان الشاه يستشيره فى كل صغيرة أو كبيرة ، ولا يقدم على أى شيء لا يتفق ورؤية هذا المنجم ، ولا يغيب عن بالنا قصة تنازل الشاه عن العرش لمدة ثلاثة أيام لأحد أتباع المذهب النقطوى، عندما رأى الشاه رؤية مؤداها أن عظيما إيرانيا سيموت بعد ثلاثة أيام ،

وظن أنه المقصود بهذا المطيم ، فأشار عليه المنجم بتخليه عن الحكم لهذا النقطوى ، ثم ينفذ فيه حكم الأعدام بعد ثلاثة أيام(١) .

٥ — عداؤه الشديد للدولة العثمانية جعله يقدم على أفعال كثيرة تتجافى والعقيدة الإسلامية ، وقد ارتكب هذه الأفعال الجافية إرضاء لمسيحيى أوربا الذين كان يلهث وراء التقرب منهم ، على أمل أن يساعدوه ضد العثمانيين ، ومن هذه الأعمال المستهجنة ، مشاركته إياهم الاحتفال بأحد أعيادهم ، وشربه الخمر فى نهار رمضان ، ثم أمره لجميع رجاله باحتساء الخمر وهم صائمون ، فيضطرون للإفطار على محرم خوفا من سطوته ، ثم أتبع كل ذلك بحديث وجهه لأحد قساوستهم ، قال فيه :

« عندما تذهب إلى روما ، وتمثل أمام البابا ، أخبره كيف شربت الخمر فى نهار رمضان ، وأن ذلك كان فى محضر القاضى والمفتى ، وكيف جعلت الجميع يشربون ، وقل له إنه على الرغم من أننى لست مسيحيا ، فإننى جدير بالتقدير والاحترام(٢) !! »

ونتيجة لتعاطفه الشديد مع المسيحيين ، طلبت منه الكنيسة الكاثوليكية السماح لقساوستها بإعادة المسيحيين الذين اعتنقوا الدين الإسلامى إلى الدين المسيحى مرة أخرى ، فقبل الشاه عباس هذا الطلب ، وعلى سبيل المثال ما حدث مع أحد غلمانه ويدعى (الكساندر) ، فقد استطاعت الجماعات التبشيرية إعادته إلى الدين المسيحى بعد أن كان قد أعلن إسلامه من قبل(٣) .

فكيف يقبل الشاه عباس هذا الطلب ، ولم يطالب هو الآخر ملك أسبانيا

---

(١) راجع القصة هامش ص : ٢٤٧ ، من هذا الكتاب

(٢) زندگانى شاه عباس اول ج ٢ ، ص ٢٦٤

(٣) المرجع السابق ج ٣ ، ص ٨١ — ٨٤

بإعادة دون جوان ورفاقه الذين اعتنقوا الدين المسيحي إلى الدين الإسلامي مرة أخرى ، ولا يخفى علينا أن تعاطف الشاه عباس مع المبشرين كان العامل المؤثر فى اعتناق بعض رجال البلاط الإيرانى للدين المسيحى .

وقد كان عباس حريصا كل الحرص على التعاطف مع المبشرين ، ولكنهم كانوا يضمرون له السوء ، ففى أثناء استعداد القوات الإيرانية والإنجليزية لمهاجمة جزيرة هرمز ، أرسل قساوسة فرقة القديس أغوستين الموجودون بأصفهان إلى البرتغاليين فى هرمز، يؤازرونهم ويوصونهم بضرورة محاربة الشاه عباس والانتصار عليه[1] .

ومن الأقوال التى قال الشاه عباس، وتجافى الروح الإسلامية ،ولا يقبل أن يقولها أى مسلم مهما كان على خلاف مذهبى مع بعض أعدائه هذه العبارة التى قالها لأنتونيو دى جوفيا المبعوث الأسبانى ، وهو يحضه على محاربة العثمانيين : « كم أتمنى أن أرى فى أقصر وقت ممكن جميع مساجد الأتراك وقد تحولت إلى كنائس ، وكلى أمل أن أرى سقوط الخلافة العثمانية وخرابها[2] !

ولاشك أن هذا التعصب الدينى الشديد كان ذا آثار ضارة على المسلمين عامة سواء أ كانوا من أهل السنة أو من الشيعة .

. . .

وهكذا كانت شخصية الشاه عباس مزيجا من القوة والقسوة ، كما كانت أعماله مزيجا من الانتصارات والتردى فى بعض الأخطاء ، ولكن على

---

(١) زندگانى شاه عباس جـ ٤ ، ص ٢١٢

(٢) المرجع السابق ص : ١٥

الرغم من هذه الأخطاء والمآخذ التى سجلت عليه ، فإن الإيرانيين ـ حتى اليوم ـ يكبرونه ، ويعتبرونه بطلا قوميا استطاع أن يرفع من شأن وطنه ، ويجسد آمال الإيرانيين ويحقق أهدافهم ، وبخاصة فى الانتصار على أعدى أعدائهم وهم العثمانيون .

ومما يزيد من احترام الإيرانيين للشاه عباس أنه تسلم الدولة ضعيفة أسيرة التطاحن والانقسام فإذا به ينجح في معالجة كل مشاكلها ويجعلها مرهوبة الجانب من جميع جيرانها ، ولكن ما أن ودع الدنيا حتى عادت إيران إلى سابق عهدها من الضعف والتخاذل ، وقوي أعداؤها عليها وتطاولوا على ممتلكاتها ، ففي الجهة الغربية ، هاجمت الدولة العثمانية إيران أكثر من مرة حاصرت فيها العاصمة أصفهان ، كما أخرجت الإيرانيين من الأماكن المقدسة في العراق العربي . أما في الجبهة الشرقية فقد هاجم الأوزبك خراسان عدة مرات ، كما ثارت القبائل الأفغانية ضد الوجود الصفوي ، وأعلنت أفغانستان استقلالها لأول مرة عن إيران وفي منطقة الخليج العربي فقد زاد الوجود الأوربي . واستولت القوات الإنجليزية على جميع موانيء الخليج ومدت نفوذها بعد ذلك إلى جميع البلدان المحيطة بالخليج .

وكلما تذكر الإيرانيون ما أصاب بلادهم من اضطراب وتقلص بعد الإزدهار الذي أحرزته في عصر عباس ، تذكروا عظمة الشاه عباس الأول ، وما فعله في سبيل إيران ، وجعلها مرهوبة الجانب ، مزدانة بأبهى مظاهر العمران ، ثم نسوا كل ما يوجه إليه من أخطاء ، لأن أعماله العظيمة قد غطت – في رأيهم – على أي خطأ يكون قد ارتكبه !

المراجع

المراجع[1]

أولا : المراجع العربية

١ — أبو بشير شيبه بن نور الدين عبدالله بن حميد السالمى :

نهضة الأعيان : بحرية عمان ـ دار الكتاب العربى بالقاهرة .

٢ — أحمد بن زين دحلان :

الفتوحات الإسلامية بعد مضى الفتوحات النبوية . القاهرة ١٣٢٣ ﻫ

٣ — أحمد محمود الساداتى (دكتور) :

تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندوباكستانية وحضارتهم . الطبعة الثانية القاهرة ١٩٧٠ .

٤ — البدليسى :

أمير شرف خان : شرفنامه تحقيق محمد على عونى نشر فرج الله زكى طبع القاهرة ١٩٣٠ م.

٥ — أرمنيوس فامبرى :

تاريخ بخارى، ترجمة الدكتور أحمد محمود الساداتى، القاهرة ١٩٦٥م.

٦ — جمال زكريا قاسم (دكتور) .

الادعاءات الإيرانية فى الخليج العربى : أصول المشكلة وتطورها التاريخى (بحث مستخرج من المجلة المصرية للدراسات التاريخية . المجلد المشرون) القاهرة ١٩٨٣ م.

---

(١) نذكر هنا قائمة بأهم المراجع فى حين ورد غيرها فى ثنايا الكتاب .

٧ — حسن ظاظا (دكتور)

اسرائيل كفصيلة خاصة من فصائل المعسكر الاستعمارى (القسم الأول من كتاب : الصهيونية العالمية وإسرائيل) . القاهرة : ١٩٧١ م

٨ — حسين مجيب المصرى (دكتور)

فضولى البغدادى ، أمير الشعر التركى القديم ، القاهرة ١٩٦٧ م

٩ — صلاح العقاد (دكتور)

التيارات السياسية فى الخليج العربى . القاهرة ١٩٦٥ م

١٠ — عبد العزيز سليمان نوار (دكتور)

مصر والعراق . دراسة فى تاريخ العلاقات بينهما حتى نشوب الحرب العالمية الأولى القاهرة ١٩٦٨ م

١١ — عبد النعيم محمد حسنين (دكتور)

دولة السلاجقة . القاهرة ١٩٧٥ م

١٢ — محمد أمين زكى .

خلاصة تاريخ الكرد وكردستان من أقدم العصور التاريخية حتى الآن ترجمة محمد على عونى . القاهرة ١٩٣٦ م

١٣ — محمد السعيد جمال الدين (دكتور)

دولة الاسماعيلية فى إيران القاهرة ١٩٧٥

ثانيا : المراجع الفارسية

١٤ — أبو القاسم رفيعى مهر آبادى :

آثار ملى أصفهان تهران ١٣٥٣ ش

١٥ — أحمد تاج بخش (دكتر)

إيران در زمان صفويه ، تبريز ١٣٤٠ ش

١٦ — أحمد على خان وزير كرمانى :

تاريخ كرمان ، تصحيح محمد ابراهيم باستانى باريزى ١٣٤٠ ش

١٨ — إدوارد براون :

تاريخ أدبيات ايران از آغاز عهد صفوية تازمان حاضر ، ترجمه رشيد ياسمى چاپ دوم ، تهران ١٣٢٩ ش

١٨ — اسكندر بيك تركمان منشى :

تاريخ عالم آراى عباسى تهران ١٣٣٤ ش

١٩ — أمان الله جهانبانى (سپهبد)

مرزهاى إيران وشوروى ، إيران : ١٣٣٦ ش

٢٠ — أمير يحيى بن عبد اللطيف الحسينى

لب التواريخ

٢١ — حسن روملو

أحسن التواريخ ، بسعى وتصحيح جارلسن نارمن سيدن ازانتشارات كتابخانه صدر طبع طهران ١٣٤٢ هـ . ش

۲۲ — حسین پسر ابدال (شیخ)
سلسلهٔ النسب صفویه برلین ۱۳۰۲ ش

۲۳ — حمد الله مستوفی قزوینی
نزهة القلوب، بسعی گای لیسترانج

۲٤ — خواندمیر (غیاث الدین بن همام الدین)
حبیب السیر فی أخبار أفراد البشر : تهران

۲۵ — دهخدا
لغت نامه، مراجعة دکتر محمد معین تهران

۲٦ — رحیم زاده صفوی :
شرح جنگها وتاریخ زندگانی شاه اسماعیل صفوی به اهتمام یوسف پور صفوی، تهران ۱۳٤۱ ش

۲۷ — رضا پازوکی:
تاریخ إیران ازمغول تا افشاریه . چاپ أول، تهران ۱۳۳٤ ش

۲۸ — طهماسب صفوی
تذکرهٔ طهماسب : شرح وقایع واحوالات زندگانی شاه طهماسب صفوی، به اهتمام عبد الشکور، تهران

۲۹ — طهماسب صفوی (شاه)
مجموعهٔ اسنا دو مکاتبات تاریخی، به اهتمام: دکتر عبدالحسین نوائی تهران ۱۳۵۰ ش

۴۰ — عباس اقبال :

مطالعاتی درباب بحرین وجزایر وسواحل خلیج فـــارس طبع طهران ۱۳۲۸ هـ . ش ، کما نشر ضمن مجلة یادگار سال‌چهارم ، شمارهٔ سوم وچهارم

۳۱ — عبد الله رازی همدانی :

تاریخ إیران از ازمنهٔ باستانی تاسال ۱۳۱٦ ش، طهران ۱۳۱۷ ش

۳۲ — عبد الله شوشتری :

تذ کرة شوشتر ، تصحیح جان بهادر قلی ومحمد هدایت حسین

۳۳ — کلیفورد ادمون بوسورث

سلسلهٔ های إسلامی ، ترجمهٔ فریدون بدره ای تهران ۱۳٤۹ ش

۳٤ — لورانس لیـکهارت :

انقراض سلسلهٔ صفویه ، وأیام استیلای افاغنه در إیران ترجمه : مصطفی قلی عماد . طهران ۱۳٤۳ ش

۳۵ — مسعود کیهان :

جغرافیای مفصل إیران تهران ۱۳۱۱ ش

٤٦ — نصر الله فلسفی :

تاریخ روابـــط إیران وأوربا در دورهٔ صفویة ، قسمت أول طهران ۱۳۱٦ ش

۳۷ — نصر الله فلسفی :

زندگانی شاه عباس أول ـ

جلد اول: چاب أول تهران ۱۳۳٤ ش

جلد دوم چاپ چهارم تهران ۱۳۴۷ ش
جلد سوم چاپ دوم « ۱۳۴۵ ش
جلد چهارم چاپ دوم « ۱۳۴٦
جلد پنجم چاپ أول « ۱۳۵۲ ش
۳۸ — نظام الدين مجير شيبانی (دكتر)
تشكيل شاهنشاهی صفوية (احيای وحدت ملی) تهران ۱۳٤٦ ش
۳۹ — هدايت (رضاقليخان)
ملحقات تاريخ روضة الصفا ناصری جلد هشتم قم ۱۳۳۹ ش
٤۰ — تذكرة الملوك .
به اهتمام مينورسكی
٤۱ — عالم آرای صفوی به اهتمام يد الله شكری تهران ۱۳۵۰ ش (مجهول المؤلف)

مقالات فارسية

٤۲ — عباس اقبال: مباحث تاريخی ازابتدای صفوية تا آخر قاجاريه :
پادشاهان إيران: هريك دركجا مدفونند. مجلهٔ يادگار ، شمارهٔ
دوم ، سال سوم
٤۳ — عباس اقبال مهرماه ۱۳۵۵ ش أصفهان وآثار تاريخی آن مجلهٔ
يادگار ، شمارهٔ نهم سال دوم
٤٤ — عباس زرياب خوئی :
ديوان شاه اسماعيل خطائی ، راهنمای كتاب ، شمارهٔ چهارم
سال سوم
٤۵ — نصر الله فلسفی :
جنگ چالداران؛ مجلهٔ دانشكدهٔ أدبيات دی ۱۳۳۲ ش

ثالثا مراجع أخرى

٤٦ — فريدون بيگ

منشآت فريدون بيگ برنجى جلد استانبول ١٢٦٣ هـ (تركى)

Ismail Hakke: Uzuncarsile: Osmanli Tariki, Ankara 1964 — ٤٧

Farmayan: H.F : The Policies and Reforms of Shah — ٤٨

Abbas I Utah 1969.

Syikes (Sir Percy) : History of Parsia, London 1951). — ٤٩

الفهرس

الفهرس

الموضوع	الصفحة
تقديم :	٥
تمهيد ،	٧
١ ـ الصفويون ٢ ـ الدولة الصفوية قبل عباس	
الفصل الاول	
اقامة عباس ميرزا في خراسان وتتويجه في قزوين	١٥
١ ـ مولده ٢ ـ ولايته أمر خراسان ٣ ـ الامر باغتياله ٤ ـ التحفظ عليه في هراة ٥ ـ تنصيبه ملكا في هراة ٦ ـ عباس في مشهد ٧ ـ النزاع حول ولاية العهد ٨ ـ تحركه صوب قزوين ٩ ـ تتويجه ٠	
الفصل الثاني	
سياسة الشاه عباس الداخلية	٤٧
١ ـ الانفراد بالحكم ٢ ـ التخلص من نفوذ القزلباس ٣ ـ الاهتمام بالجيش ٤ـ اخماد الفتن الداخلية ٥ـ النظام الاداري ٦ـ النشاط الاقتصادي ٧ ـ سياسته مع عامة الشعب ورجال القبائل ٨ ـ سياسته المذهبية ٠	
الفصل الثالث	
أصفهان في عهد الشاه عباس	١١٣

الموضوع الصفحة

الفصل الرابع

حروب الشاه عباس مع جيران ايران ١٤٧

اولا : مع الاوزبك

١ ـ مقدمات الهجوم الاوزبكي على خرسان ٢ ـ سقوط هراة ٣ ـ تحرك عباس صوب خراسان وتراجعه ٤ ـ سقوط مشهد ٥ ـ تحرير هراة والتخلص من الخطر الاوزبكي ٠

ثانيا : حروب الشاه عباس مع العثمانيين

١ ـ معاهدة ٩٩٨ هـ ٢ ـ الجولة الحربية الاولى ٣ ـ الجولة الحربية الثانية ٤ ـ مفاوضات الصلح ٥ ـ الجولة الحربية الثالثة ٦ ـ الاستيلاء على بغداد ٧ ـ تعقيب على العلاقات الصفوية العثمانية في عهد الشاه عباس ٠

ثالثا : حروب الشاه عباس مع الدولة المغولية في الهند ٠

الفصل الخامس

علاقات الشاه عباس بالدول الاوربية ٢١٣

أولا : علاقات الشاه عباس مع البرتغال واسبانيا

١ ـ العلاقات قبل عصر عباس ٢ ـ تبادل السفراء ٣ ـ المعارك قبل تحرير هرمز ٤ ـ اخراج القوات البرتغالية من هرمز ٥ ـ العلاقات بعد الاستيلاء على هرمز ٠

ثانيا : علاقات الشاه عباس مع بريطانيا

١ ـ بعثات الاخوين شرلي ٢ ـ العلاقات بين الشاه عباس وشركة الهند الشرقية الانجليزية ٠

ثالثا : علاقات الشاه عباس مع هولندا ٠

رابعا : علاقات الشاه عباس مع روسيا ٠

خامسا : علاقات الشاه عباس مع باقي الدول الاوربية

تعقيب على العلاقات الايرانية الاوربية في عهد الشاه عباس الاول ٠

الفصل السادس

وفاة الشاه عباس ونظرة التاريخ اليه ٢٧٩

١ ـ وفاته ٢ ـ الاشادة به ٣ ـ مآخذ على سياسته

المراجع ٢٩٧

دار النهضة العربية
للطباعة والنشر
بيروت ص. ب ٧٤٩